في ظلال
عرش الرحمن

تأليف

فضيلة الشيخ عطية محمد سالم
رحمه الله تعالى (ت ١٤٢٠هـ)

دار

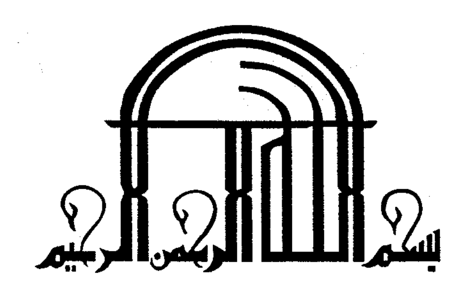


في ظلال
عرش الرحمن

الطبعة الأولىٰ
١٤٢٦هـ



المدينة النبوية
شارع الملك عبد العزيز - التناك
هاتف : ٨٣٨١١٤٨
فاكس : ٨٣٩٠٨٣٨


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــــدَاء

لمن أهدي كتابي هذا، وأنا أشعر بالجهد الذي بذلت فيه؟ لو كان يصح الإهداء للنفس، لما كان أحد أحق به مني. ولكن عوضاً عن هذا الإهداء، ما يوجد لَدَيَّ من عظيم الرجاء، في فضل الله بعظيم الجزاء. إذاً لمن الإهداء؟

نظرت في الأصناف السبعة، فإذا كل صنف حَرِيّ به، ولا أحب أن أفاضل بينهم، فأهديته إليهم أجمعين؛ منفردين أو مجتمعين؛ سواء من مضى منهم في سلفنا، أو يوجد في عصرنا، أو يأتي بعدنا. وبالله تعالى التوفيق.

✍ المؤلف



مقدمة المؤلف

الحمد لله بكرة وأصيلاً، والشكر له على آلائه ونعمه الجليلة، والصلاة والسلام على من آتاه الله الوسيلة والفضيلة، ورضي الله عن آله الطيبين، وعن صحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فإن حديث الظلال، لَيحث على فضائل الأعمال، ويبحث عند كل مؤمن عظيم الرجاء، وكبير الآمال، في سعة فضل رب العزة والجلال، لما في هذا الحديث الصحيح من حميد الخصال، ميسرة المثال. ينالها الشاب الناشئ، والمصلي العابد، والمعطي المتصدق الباذل لوجه الله. والمتحابين في الله، والمتعفف عن محارم الله، ومن لسانه رطب بذكر الله، والإمام القائم بحدود الله. فاستوعب المجتمع بطبقاته من قاعدته الثابتة إلى قمته العالية: من الإمام العدل العادل، إلى من في رعيته، في نسق شامل.

وموضوع الظلال يوم القيامة أمنية كل مؤمن يوم الجزاء، القائم بين الخوف والرجاء. يتقلب قلبه بين الرغبة والرهبة: الرغبة في الجنة ونعيمها، والرهبة من النار وجحيمها، والخوف من فزع يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٧ ـ ٨].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٥].

﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] تدنو شمسه من الرؤوس، وتكاد تزهق من حرها النفوس، حفاة عراة، يومٌ يطول مداه خمسين ألف سنة على ما في علم الله، فلا حميم ولا خليل، ولا ظل ولا ظليل، إلا من وسعهم الله بفضله، وأظلهم ـ سبحانه ـ بظله، يوم لا ظل إلا ظله.

وهذا الحديث تعددت الطرق إليه، فعظمت منزلته وتطلع كل مؤمن إليه. وقال ابن عبد البر: هذا الحديث أشمل وأهم أحاديث فضائل الأعمال، ولو أفرد كلُّ صنف من أصنافه السبعة برسالة لكانت جديرة به.

ولقد تَطَلَّبْتُ الرسائل التي كتبت فيه، فوجدتها كلها عنيت بالعدد المذكور، وزادت السبعة إلى السبعين، وأوجزوا القول في معانيه، مع أن الحديث في موضوعه فريد في نوعه، ولو استوعبت أصنافه، وجمعت أطرافه، لكان موسوعة واسعة، تكون عدة للدعاة والمرشدين.

فاستعنت الله في عمل هذا الشرح المسهب، وتوخيت اشتماله كل مطلب. وليس فيه بحمد الله من حشو الكلام مما تمله الأفهام. وقد بذلت من الجهد ما وسعني، متوخياً السهل مما حضرني، وجعلته سبعة مباحث، بعدد أصنافه السبعة، وأفردت كل صنف فيه بمبحث، سقت فيه ما يحقق بغية طالب العلم والعامي. ولست أدعي فيه جديداً ليس في الموسوعات العلمية في الحديث أو الفقه، ولكن جمعت شتات كل موضوع، وحللت كل صنف، وربطت تلك الأصناف بعضها ببعض، مما لم يوجد له من قبل نظير. فإن راق للقارئ، فهذا ما أردت، وإلا فلن يضيره ما جمعت.

وقد زينت كُل مبحث بالأمثلة العملية، ليأنس القارئ بها، وينسج على منوالها.

ولم أتعرض لغير الأصناف السبعة الواردة في الحديث الصحيح، لأن ما عداها قد يكون مندرجاً فيها، أو أسانيدها معترض عليها.

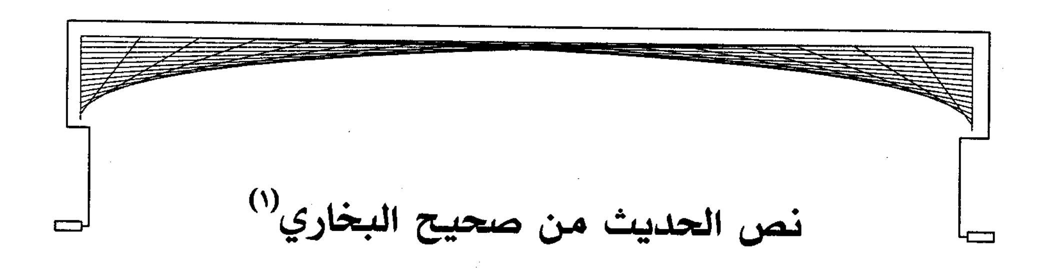
وأرجو من القارئ الكريم، أن لا يتعجل القراءة، فإن التأني أدعى إلى دقة الفهم.

ولا يستطيل البحث، فإن البحث الطويل قد يحمده القارئ في النهاية.

ولا يجمع بين مبحثين في وقت واحد، فإن إفراد البحث أدعى لاستيعابه.

والله أسأل: أن يجعلنا ممن يظلهم الله بظله، يوم لا ظل إلا ظله وأن يجعله علماً يُنتفع به، ويجري علينا أجره. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم وآته الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

المؤلف



نص الحديث من صحيح البخاري[1]

قال: حدثني مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن عُبيد الله، قال: حدثني خُبَيْب بن عبدِ الرحمٰن، عن حفصِ بن عَاصِم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلهُمُ الله تعالى في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَ إلَّا ظِلُّهُ:

إمَامٌ عَادِلٌ.

وشَابٌ نَشَأ في عبادَةِ الله.

ورجلٌ قلبهُ مُعَلقٌ بالمَسَاجد.

ورَجُلانِ تَحَابَّا في الله، اجتمعَا عليه، وتَفَرَّقا عليه.

ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَال، فقال: إنِّي أخافُ الله.

ورجلٌ تَصَدَّق بصدقةٍ فأخْفَاهَا حتى لا تعلمَ شِمَالهُ مَا تُنفقُ يمينُه.

ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضتْ عينَاه».

○ ورواية مالك في الموطأ مع تقديم وتأخير:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أو أبي سعيد. وفيها:

«ورجلٌ قلبُه مُعَلقٌ بالمسجدِ، إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه».

وفيه أيضاً:

«في ظلِّ عرشِهِ، يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه».

وقال ابن عبد البر: أكثر روايته عن مالك: **«إمامٌ عَادِلٌ»**. وفي بعضها: **«إمَامٌ مُقْتَصِدٌ»**، و**«شَابٌ نَشَأ في عبادةِ الله حتى تُوفِّي على ذلكَ»**.

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٩٣). [رقم الحديث: ١٤٢٣].

تمهيد

إن أكثر الأحاديث قد تتوحد مواضيعها، ويتخصص مدلولها، كأحاديث الأحكام أو الآداب في الإسلام، أو الحِكَم والمواعظ. وكلٌّ في بابه نبراس وهداية، وحري بالدراسة والعناية.

ولكن؛ قد لا يقف عنده، ولا يقصد إليه إلا ذوي الاختصاص، والقليل من الناس.

وبعض الأحاديث قد تتعدد مواضيعها، وتعم وتشمل مدلولاتها أكثر من جانب، كهذا الحديث، وكحديث: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّماً فلا تَظَالموا**» إلى آخره. وحديث جبريل في السؤال عن الإسلام والإيمان والإحسان وما مع ذلك. . . إلى آخره. وحديث: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك**». ونحو ذلك من الأحاديث العامة والشاملة، وهذه الأحاديث من خير ما يسعف الداعية والواعظ لتجديد وتنمية الإيمان في قلوب العامة، بل وقد يتطلبها الخاصة لأسلوبها المتميز، ومواضيعها التي تلمس شغاف القلوب.

وقد وجدت حقها من العناية في موسوعات الحديث المتداولة بأيدي المسلمين.

وهذا الحديث «**سبعة يظلهم الله**» قد تميز بأسلوبه وتعداد أصنافه، وشموله طبقات المجتمع. فهو غاية ومقصد لكل الطبقات، وهو لطيف بمؤداه عميق بمعناه. يستهوي كل من يسمعه إليه، وينتزع الإعجاب والاستحسان من كل من وقف عليه. فهو حري بعناية العلماء، وقد كان. إلا أن جل الذين عَنَوا به كانت همتهم مصروفة إلى عنوانه: «**سبعة يظلهم الله**».

فأخذوا يطوفون بالسبعة حتى جاوزت السبعين، أما المعاني والدلالات

والعلاقة العامة والخاصة بين تلك الأصناف السبعة فيما بينهم، وعلاقتهم بعموم المجتمع، وكيف أثروا، أو تأثروا بالمجتمع؟ أو كيف توجد السبل والوسائل التي تكثر من هذه الأصناف في مجتمعنا، فلم نجد من عني بذلك بالقدر الذي يتناسب ومنزلة وعظيم أهمية هذا الحديث الشريف الذي يثير الرجاء والخوف. الرجاء في رحمة الله وقرب جواره؛ والخوف من ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ذلك اليوم الذي يشتد فيه الموقف على أهله، وتدنو فيه الشمس من الرؤوس حتى يلجم العرق بعض من فيه.

ذلك اليوم الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] تلك حالة أكثر أهل الموقف، بينما يتراءى لنا في الأفق هذا الظلال والفضل من ذي الجلال، نرى هؤلاء الأصناف، تشملهم الرحمة والعناية، فلا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يهولهم هول ذلك الموقف العظيم.

وإن الإنسان مهما أوتي من بيان، وسعة أفق وجنان وصدق تعبير وإحسان، فلن يستطيع أن يجلي معاني هذا الحديث وأن يُقوِّمَ ما فيه من معطيات ودلالات. ولكنها محاولة توجيه الدارسين، وإرشاد الراغبين. ولعل كلاً منهم يجد بعض بغيته، مما يوفر الوقت عليه، ولا يحتاج مرجعاً مع هذا يرجع إليه.

وقد يَسَّرْتُ للناظر في ذلك طريق الطمأنينة لسنده، والاستيعاب لمواضيعه، وإني لأرجو الله تعالى أن يوفق الجميع لكل ما يحبه ويرضاه، وأن يجعل هذا العمل لنا ذخراً، وأن يعلمنا ما جهلنا، ويذكرنا ما نسينا، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم إنه القادر عليه، وأن يوفق الجميع لكل ما يحبه ويرضاه، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد ﷺ.

○ اعتذار:

أخي القارئ: قبل أن تقرأ هذا البحث أعتذر إليك عن الإطالة، لأنني توخيت بذل الوسع في البيان والإيضاح، وعمدت إلى نقل كل ما يمكن نقله خدمة لك، وتوفيراً للوقت عليك، وخاصة في المقدمة والتمهيد.

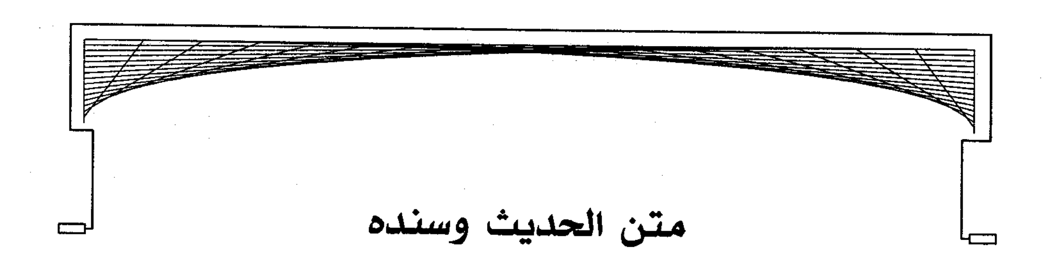
وما ذلك إلا لأني لم أجد البديل عما كتبت، ولأني لمست حالة الطلاب اليوم في زحمة الدروس، ومزاحمة الأعمال، حسب مناهج الحياة المفروضة علينا في هذا العصر.

وإني لأشكر لك صبرك ومثابرتك على الاسترسال في القراءة إلى النهاية. كما أحب أن تخص كل صنف بمجلس، وأن لا تجمع قراءة صنفين في وقت واحد.

❍ رجاء:

ورجائي من كل أخ كريم ظهرت له وجهة نظر أو لاح له بادرة خطأ، أن يتكرم مشكوراً بإهداء ما يدركه إليَّ لأصلح الخطأ، وأستفيد من وجهة النظر، والمؤمن مرآة أخيه. وإذا شرح الله صدرك لموضوع، واستروحت نفسك لفكرة، فلا تنس أخاك من خالص دعوة كريمة يكن لك مثلها، وبالله تعالى التوفيق.





متن الحديث وسنده

١ ـ بيان المتن:

أولاً: عند مالك رحمه الله في الموطأ:

أورده مالك في كتاب (الجامع) في باب (ما جاء في المتحابين في الله).

ونصه: حدثني عن مالك عن خبيب بن عبد الرحمٰن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله ﷻ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»**.

أ ـ ففي سنده هنا من التابعي إلى الصحابي بـ (أو) بصيغة الشك ما بين أبي سعيد وأبي هريرة.

ثانياً: عند البخاري رحمه الله أورده في صحيحه في عدة أماكن، منها:

١ ـ باب (من جلس في المسجد ينتظر الصلاة):

ونصه: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا يحيى، عن عبيد الله، قال: حدثني خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل**

ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

٢ ـ والموضع الثاني: في باب (الصدقة باليمين):

ونصه: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن عبيد الله، قال: حدثني خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»**[2].

٣ ـ وفي باب (البكاء من خشية الله):

عن محمد بن بشار بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله في ظله ... رجل ذكر الله ففاضت عيناه»**[3].

٤ ـ وفي باب (فضل من ترك الفواحش):

ونصه: حدثنا محمد بن سلام، أخبرنا عبد الله، عن عبيد الله بن عمر، عن خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»**[4].

ثالثاً: عند مسلم في كتاب الزكاة باب (فضل إخفاء الصدقة):

حدثني زهير بن حرب ومحمد بن المثنى جميعاً، عن يحيى القطان، قال زهير: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله أخبرني خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم الله**

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٤٣).
(٢) فتح الباري (٣/ ٢٩٣).
(٣) الفتح (١١/ ٣١٢).
(٤) الفتح (١٢/ ١١٢).

في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

وحدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك، عن خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ. . ، بمثل حديث عبيد الله، وقال: «**ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**»[1].

رابعاً: وعند النسائي ساقه في كتاب آداب القضاء (فضل الحاكم العادل) قال:

أخبرنا سويد بن نصر، قال: أخبرنا عبد الله عن عبيد الله عن خبيب بن عبد الرحمٰن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله ﷻ يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله ﷻ، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل كان قلبه معلقاً في المسجد، ورجلان تحابا في الله ﷻ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله ﷻ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه**».

خامساً: وللترمذي في جامعه في باب (ما جاء في الحب في الله):

ونصه: حدثنا الأنصاري، أخبرنا معن، أخبرنا مالك، عن خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله ﷻ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**». هذا حديث حسن صحيح.

---

(١) شرح مسلم (٧/ ١٢٠).

وهكذا روي هذا الحديث عن مالك بن أنس من غير وجه مثل هذا، وشك فيه وقال: عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد. وعبيد الله بن عمر رواه عن خبيب بن عبد الرحمٰن ولم يشك فيه فقال: عن أبي هريرة.

حدثنا سوَّار بن عبد الله العنبريّ ومحمد بن المثنى قالا: أخبرنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن عمر، عن خبيب بن عبد الرحمٰن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو حديث مالك بن أنس بمعناه إلا أنه قال: «**كان قلبه معلقاً بالمساجد**». وقال: «**ذات منصب وجمال**» حسن صحيح[1].

سادساً: عند السيوطي في الجامع الصغير أورده ثلاث مرات:

أ ـ الأولى: برواية مالك ورمز له (مالك، ت) عن أبي هريرة، أو أبي سعيد (حم ق ن عن أبي هريرة (م) عن أبي هريرة، وأبي سعيد معاً) (صح).

ب ـ الثانية: «**ورجل يحب عبداً لا يحبه إلا لله، ورجل قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياها، ورجل يعطي الصدقة بيمينه فيكاد يخفيها عن شماله، وإمام مقسط في رعيته، ورجل عرضت عليه نفسها ذات منصب وجمال فتركها لجلال الله، ورجل كان في سرية مع قوم فلقوا العدو فانكشفوا فحمى آثارهم حتى نجا ونجوا أو استشهد**». ابن زنجويه عن الحسن مرسلاً [، ابن عساكر] عن أبي هريرة.

جـ ـ الثالثة: وذكر: «**رجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة...**» إلخ، «**ورجلان تحابا، ورجل غض عينه عن محارم الله، وعين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله**». البيهقي في الأسماء عن أبي هريرة (ح).

٢ ـ بيان السند:

١ ـ مالك يرويه بالشك بين أبي سعيد أو أبي هريرة.

٢ ـ والبخاري لم تختلف روايته، عن أبي هريرة فقط.

٣ ـ ومسلم له رواية عن غير مالك إلى أبي هريرة فقط، ورواية أخرى عن طريق مالك بالشك بين أبي سعيد وأبي هريرة، أي وافقَ مالكاً.

---

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ٧٩ ـ ٨٠)، ولابن العربي (٩/ ٢٣٧).

٤ ـ النسائي يرويه عن أبي هريرة فقط.

٥ ـ الترمذي عن طريق مالك وبرواية الشك كذلك. ورواية أخرى عن عبيد الله بن عمر من غير طريق مالك وعن أبي هريرة فقط.

فتكون كل الروايات عن غير طريق مالك بالجزم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وطريق مالك فقط في الموطأ هي التي فيها الشك بين أبي سعيد وأبي هريرة، بينما لم يذكره أحد عن طريق أبي سعيد، فما سبب ذلك؟ وهل له تأثير على الحديث أم لا؟

إذا جئنا إلى الزرقاني في شرحه على الحديث، نجده يورد الآتي، مبيناً أنه جاء عن مالك بثلاث حالات سوى ما في الموطأ:

١ ـ إفراد أبي هريرة. ٢ ـ إفراد أبي سعيد. ٣ ـ اشتراكهما معاً بالواو. ولكنه ناقشها، وهي كالآتي:

١ ـ رواه الموطأ بالشك.

٢ ـ مصعب الزبيري وموسى بن طارق، فجعلاه عنهما بواو العطف، وشذًا في ذلك عن أصحاب مالك، قاله الحافظ. وذكر أبو عمر أن أبا معاذ البلخي عن مالك تابعهما في روايته بالواو، وقال:

٣ ـ ورواية زكريا بن يحيى الوقاد عن ابن وهب وابن القاسم ويوسف بن عمر بن يزيد، كلهم عن مالك عن خبيب عن حفص عن أبي سعيد وحده.

٤ ـ ورواه عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم عن خاله خبيب عن جده حفص عن أبي هريرة وحده. قال الحافظ في الأمالي: المحفوظ عن مالك بالشك ورواية زكريا خطأ، والمحفوظ عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة وحده، وكذلك أخرجه الشيخان والنسائي من طريق عبيد الله وهو أحد الحفاظ الأثبات وخبيب خاله وحفص جده ولم يشك، فروايته أولى. وتابعه مبارك بن فضالة عن خبيب. أخرجه الطيالسي. وقال في الفتح: والظاهر أن عبيد الله حفظه لكونه لم يشك فيه، لكونه من رواية خاله وحده[1].

فمالك شارك الجميع في أبي هريرة وخالف الجميع في أبي سعيد، فكأنه

---

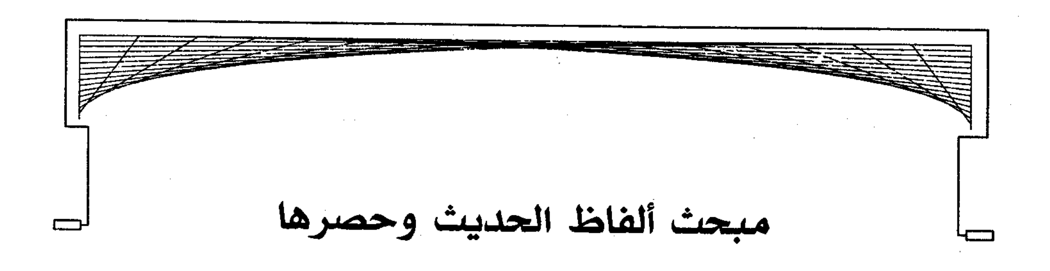
(١) شرح الزرقاني على الموطأ (٤/٣٤٣).

معه زيادة، مما يعطي السند قوة، لا أن يُسبب له ضعفاً، ويكفي وجوده في هذه المراجع الأم بالنسبة للحديث: البخاري ومسلم والنسائي والترمذي ومسند أحمد.

كما أن الروايات الأخرى عن مالك عن أبي سعيد وأبي هريرة بواو العطف. وعن أبي سعيد وحده قد ساقها ابن عبد البر مع رواية أو التي للشك المثبتة في الموطأ[١] وكلها بطريق حفص بن عاصم أيضاً.



(١) التمهيد (٢/ ٢٨٠).



مبحث ألفاظ الحديث وحصرها

يتضح من إيراد النصوص المتقدمة لهذا الحديث، أنه توجد مغايرات في بعض ألفاظه بزيادة أو نقص، أو استبدال لفظ مكان آخر، أو صنف من السبعة بدل صنف آخر. كما يتضح أيضاً وجود مغايرة في ترتيبه ونسق الأصناف السبعة، من تقديم بعضها على بعض وذلك كالآتي:

○ أولاً: في ألفاظه ونقدمها جملة جملة:

*** الأولى:**

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

هذه الجملة ساقها مالك في الموطأ ووافقه مسلم والترمذي والبخاري في الموضعين الأولين. أما الموضع الثالث فزاد فيها **«يوم القيامة»** وهي عند النسائي فقال: **«سبعةٌ يُظلِّهم الله يومَ القيامة في ظلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظله»** ولم يأت لفظ العرش في رواية من تلك الروايات كما ترى.

إثبات لفظ (العرش):

ساق ابن عبد البر في التمهيد هذه الجملة بثلاث روايات، وهي كالآتي:

١ ـ الرواية الأولى: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»**.

وهي عن أبي هريرة وأبي سعيد.

٢ ـ **«سبعة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله»**: وهي كذلك بـ: أو، عنهما.

٣ ـ **«سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»**: وهذه عن أبي سعيد وحده. فتكون لفظة **«عرشه»** ثابتة عند ابن عبد البر في التمهيد، وسندها عنده كالآتي: أخبرنا علي بن إبراهيم قال: حدثنا الحسن بن رشيق قال: حدثنا أبو محمد سعيد بن أحمد بن زكرياء كاتب العمري زكرياء بن يحيى الوقاد، حدثنا عبد الله بن وهب وعبد الرحمٰن بن القاسم ويوسف بن عمر بن

يزيد كلهم يقول: حدثني مالك بن أنس عن خبيب... إلى آخر السند.

وذكر الزرقاني لفظة (العرش) قال في حديث سلمان عن سعيد بن منصور بإسناد حسن: **«سبعة يظلهم الله في ظل عرشه»**.

فالمغايرة هنا: بزيادة **«يوم القيامة»**. ولفظ **«عرشه»**.

*** الثانية:**

أ ـ **«إمام عادل»**: هذه الجملة منكرة الطرفين، رواية الموطأ ووافقه عليها البخاري في المكان الرابع، وكذلك هي عند الترمذي والنسائي.

ب ـ **«الإمام العادل»**: بتعريف الطرفين: رواية البخاري في أول إيراد الحديث ووافقه عليها مسلم.

«إمام عدل»: بالنعت بالمصدر. رواية البخاري في الموطن الثاني من إيراد الحديث.

«إمام مُقسط في رعيته»: من روايات السيوطي في الجامع الصغير.

والمغايرة هنا: بين تنكير وتعريف الطرفين، و**«إمام عدل»**، و**«إمام عادل»**، و**«إمام مقسط»**.

*** الثالثة:**

أ ـ **«شاب نشأ في عبادة الله»**: رواية الموطأ ووافق عليه البخاري في الموطن الثاني، وفي الموطن الرابع، والنسائي وزاد: (ﷻ).

ب ـ **«شاب نشأ في عبادة ربه»**: للبخاري في الموطن الأول.

جـ ـ **«شاب نشأ بعبادة الله»**: لمسلم وللترمذي.

والمغايرة هنا: في **«عبادة الله»**، في **«عبادة ربه»**، و**«بعبادة الله»** بالباء.

*** الرابعة:**

أ ـ **«ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه»**: هذه رواية الموطأ (بالمسجد) بالباء.

ب ـ **«ورجل قلبه معلق في المسجد»**: للبخاري في (الرابع) في المسجد.

جـ ـ **«ورجل قلبه معلق في المساجد»**: بالجمع للبخاري في (الأول) ومسلم.

د ـ **«ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه»**: بدون ذكر القلب لمسلم.

هـ ـ «**ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**»: بزيادة (كان) للترمذي.

و ـ «**ورجل قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياها**»: للترمذي أيضاً.

ز ـ «**ورجل كان قلبه معلقاً في المسجد**»: للنسائي.

والمغايرة هنا: بين أفراد المسجد وجمعه، وتعدي معلق: بالباء أو في.

* **الخامسة:**

أ ـ «**ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا**»: للموطأ.

ب ـ «**ورجلان تحابا في الله ﷻ**»: للنسائي.

جـ ـ «**ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»: البخاري في الأولى ولمسلم.

د ـ «**ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا**»: البخاري في الثاني.

هـ ـ «**ورجل يحب رجلاً لا يحبه إلا لله**»: للسيوطي.

والمغايرة هنا: في الاجتماع والتفرق، وتثنية «رجل» مع «تحابَّا»، وإفراده وصدور الحب منه هو.

* **السادسة:**

أ ـ «**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»: الترمذي وللموطأ وللبخاري الأول والثاني ولمسلم.

ب ـ «**ورجل ذكر الله في خلاء**»: للبخاري في الرابعة، وللنسائي.

جـ ـ «**وعين بكت من خشية الله**»: للسيوطي.

المغايرة هنا: في «**رجل**» وفي «**عين**» و«**خالياً**» وفي «**خلاء**».

* **السابعة:**

أ ـ «**ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله**»: للموطأ.

ب ـ «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها**»: النسائي.

جـ ـ **ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»: للبخاري في الرابع ومسلم.

د ـ «**ورجل دعته ذات حسب وجمال**»: بدون ذكر امرأة للترمذي.

هـ ـ «**ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال**»: للبخاري في الأولى.

و ـ «**ورجل عرضت عليه نفسها ذات منصب وجمال فتركها لجلال الله**». وهذه للسيوطي.

والمغايرة هنا: في الحسب والمنصب، وطلبت، وعرضت، وذكر المرأة وحذفها.

* **الثامنة:**

أ ـ «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**». للموطأ وللبخاري في الثاني والرابع وللترمذي.

ب ـ «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه**» للنسائي.

جـ ـ «**ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»: للبخاري في الأول.

د ـ «**ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لم تعلم شماله ما أنفقت يمينه**»: في التمهيد.

هـ ـ «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله**»: لمسلم بإسناد الإنفاق لشماله.

و ـ «**ورجل يعطي الصدقة بيمينه فيكاد يخفيها عن شماله**».

والمغايرة هنا بين: ما تنفق وأنفقت، ودلالة تنفق على التكرار أكثر، وبين «**أنفقت يمينه**» و«**أنفقت شماله**»، و«**أنفقت شماله**» أدخل في الإخفاء، وبين أنفقت وصنعت.

المغايرة في ألفاظ الحديث وأصنافه:

لم تقع مغايرة في الأصناف السبعة التي وردت في الحديث إلا عند السيوطي. فقد زاد ونقص فيما أورد زيادة على الرواية المتفق عليها.

في الرواية الأولى:

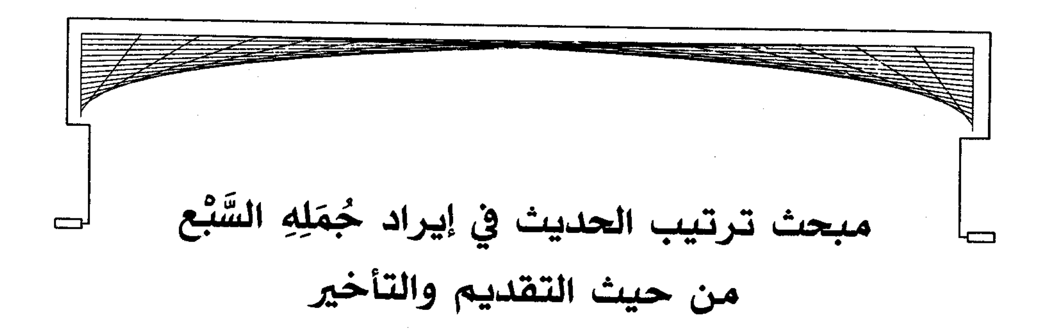
أ ـ أنقص «**شاب نشأ في عبادة الله**». و«**رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

ب ـ وذكر بدل منهما: «**ورجل كان في سرية مع قوم فلقوا العدو فانكشفوا، فحمى آثارهم حتى نجا ونجوا أو استشهد**».

وفي الرواية الثانية:

أ ـ حذف: «**شاب**»، و«**إمام عادل**»، و«**رجل تصدق**».

ب ـ وذكر: «**ورجل غض عينه عن محارم الله**» و«**عين حرست في سبيل الله**».



مبحث ترتيب الحديث في إيراد جُمَلِهِ السَّبْع من حيث التقديم والتأخير

لا شك أن لترتيب الحديث أثراً في ربط المعاني وأوجه الدلالة، وإن كانت تلك الأصناف السبعة كلها مغايرة بعضها لبعض، وكل قسم منها قائم بذاته، مستقل عن غيره، لو أفرد بنفسه.

ولكن للترتيب صلة بالتعليل والسببية، وهو مقصد بلاغي عظيم، له أثره في الحديث النبوي الشريف، كما له الأثر البالغ في القرآن الكريم. وقد لاحظنا تقديماً وتأخيراً وذلك كالآتي:

أولاً: اتفقوا على تقديم الإمام العادل، والتثنية بالشاب الناشئ في عبادة الله.

ثانياً: جاء الصنف الثالث: التعلق بالمسجد عند الجميع، ما عدا موضعاً للبخاري هو الرابع، **جاء** محله **«ذكر الله خالياً»**.

ثالثاً: جاء الصنف الرابع: الحب في الله عند الجميع، ما عدا البخاري في الموضع الرابع جاء محله المسجد.

رابعاً: الصنف الخامس: جاء الذكر عند مالك والترمذي. والحب عند البخاري في الرابع بينما جاءت المرأة عند البخاري في الأول والثاني، وعند مسلم.

خامساً: جاء الصنف السادس: المرأة عند مالك والبخاري في الرابع والترمذي. بينما جاءت الصدقة عند البخاري في الأول ومسلم.

سادساً: جاء الصنف السابع: الصدقة عند مالك والبخاري في الرابع والترمذي. بينما جاء الذكر عند البخاري في الأول ومسلم.

فمسلم والبخاري متفقان تماماً في الترتيب بدءاً بالإمام العدل، وختماً بذكر الله تعالى.

ومالك والترمذي متفقان تماماً بدءاً بالإمام وختماً بالصدقة.

ومعلوم أن رواية الترمذي عن طريق مالك فلم يختلف معه في الترتيب وعلى هذا فإنا بدراسة الحديث وظهور الارتباط بين الأصناف فإننا نختار تقديمه على حسب ترتيب الشيخين البخاري ومسلم، لاتفاقهما عليه من جهة ولظهور قوة الربط، وبيان وجهة السببية للأصناف بعضها لبعض على ما سيأتي إن شاء الله.

ولبيان صورة الترتيب نقدم هذا الجدول باختصار:

الرواة / الأصناف	مالك	البخاري (١)	(٢)	(٤)	مسلم	الترمذي	النسائي
١ ـ الإمام	=	=	=	=	=	=	=
٢ ـ الشاب	=	=	=	=	=	=	=
٣ ـ المساجد	=	=	=	الذكر خالياً	المساجد	=	الذكر خالياً
٤ ـ الحب في الله	=	=	=	المساجد	الحب في الله	=	المساجد
٥ ـ الذكر خالياً	=	امرأة	=	الحب في الله	امرأة	الذكر	الحب في الله
٦ ـ امرأة	=	صدقة	=	امرأة	صدقة	امرأة	امرأة
٧ ـ صدقة	=	الذكر	=	صدقة	الذكر	صدقة	تصدق

تفرد مالك بترتيبه: اتفق البخاري في (١) و(٢) مع مسلم. ٣ ـ واتفق النسائي مع البخاري في (٤) ووافق الترمذي مالكاً لأنه عن طريقه رواه.

○ نص الحديث على ترتيب البخاري في الموضعين ومسلم:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

١ ـ الإمام العادل.

٢ ـ وشاب نشأ في عبادة ربه.

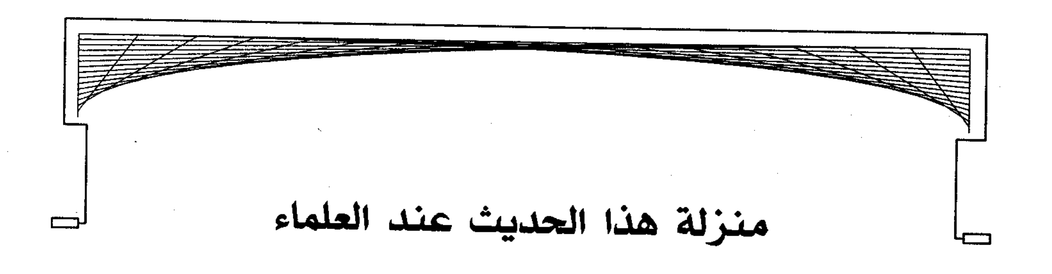
٣ ـ ورجل قلبه معلق في المسجد.

٤ ـ ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه.

٥ ـ ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله.

٦ ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

٧ ـ ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.



منزلة هذا الحديث عند العلماء

قال ابن عبد البر في التمهيد[1]: هذا أحسن حديث يروى في فضائل الأعمال، وأعمها وأصحها إن شاء الله. وحسبك به فضلاً لأن العلم محيط بأن كل من كان في ظل الله يوم القيامة لم ينله هول الموقف. إلى أن قال: وفي فضل الإمام العادل، وفضل الشاب الناسك، وفضل المشي إلى المسجد والصلاة فيه، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وفي المتحابين في الله، وفي البغض في الله والحب في الله، وفي العين الباكية من خوف الله، مع قول الله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ وفي العفة وفضلها، وفي ذم الزنا وأنه من الكبائر، وما انضاف إلى ذلك المعنى من قصة ذي الكفل، وفي فضل الصدقة في السر، مع قول الله ﷻ: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وفي تضعيف الله الصدقة المقبولة من الكسب الطيب، إلى سائر ما ينتظم بهذه المعاني آثارٌ كثيرة جداً تحتمل أن يُفرد لها كتاب، فضلاً عن أن ترسل في باب، ومن طلب العلم لله، فالقليل يكفيه إن شاء الله، وبالله التوفيق.

وهو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تحتمل معانيه أن تفرد في كتاب، وقد أفردت بالفعل، ولكن كل التآليف التي أفردت لهذا الحديث تتجه إلى العدد، وتضيف أصنافاً أُخَرَ.

○ كلام المناوي على ما أُلِّفَ في هذا الحديث:

قال في شرحه على الجامع الصغير ما نصه:

العدد لا مفهوم له. فقد روي الإظلال لذي خصال أُخَر، جمعها الحافظ ابن حجر في أماليه، ثم أفردَها بكتاب سمّاه: «معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال».

---

(١) (٢/ ٢٨٤).

ثم أَلَّف بعده السخاوي، والمؤلفُ، ومجموعها نحو تسعين خصلة، ثم ساق من ذلك حوالي الثمانين صنفاً، وبعدها قال: «هذا محصول ما التقطه ابن حجر والسخاوي والمؤلف في الأخبار، وأكثرها ضعاف، ومن أراد الوقوف على ما فيها من الكلام، ومن رواها من الأعلام، فليرجع إلى تلك التآليف».

ومن هذا الكلام يظهر لنا أمران:

أ ـ أن تلك التآليف لم تتوسع في بيان المعاني التي قال فيها ابن عبد البر:

إنها تحتمل كتاباً، أي: لسعة مدلولاتها، ووفرة معانيها، وشمولها لجوانب المجتمع الإسلامي، وحكمة التشريع، وقوة التأثير في الفرد، ومن ثم في الجماعة.

ب ـ أن تلك التآليف اتجهت إلى جمع الأصناف، وفيها الآثار المقبولة والضعيفة. وهذا يدعو إلى عملين عظيمين إزاء هذا الحديث:

الأول: العمل على بيان مدلول كل صنف أولاً من هذه السبعة التي صح سندها، وصحت نسبتها إلى النبي ﷺ، وبيان نتائجها على الفرد وعلى الجماعة، ثم عوامل تكوين الإنسان التي استطاع بها أن يكتسب هذه الصفة أو تلك، إذ أنها كلها صفات مثالية كاملة، لا تُنال إلا بجهد وجهاد.

وكيف نربي عليها الإنسان المسلم من شبابه إلى إمامته، وما بين ذلك من عدلٍ، وتقى وعفة وتعاون، وتحابب وذكر لله تعالى، إلى غير ذلك من أعطيات هذا الحديث أسلوباً وموضوعاً.

الثاني من الأعمال هو: إيراد تلك الأصناف التي أوصلوها إلى التسعين، وبيان ما هو الصحيح منها، وما هو الضعيف إحقاقاً للحق، وأمانة للعلم، وخدمة للقارئ ليكون على بينة في ذلك، وهذا ما نستعين الله تعالى على القيام به إن شاء الله تعالى، ومنه سبحانه نستلهم الهدى والرشاد والتوفيق، ونسأله تعالى أن يجعلنا من تلك الأصناف بمنه ولطفه وإحسانه، وأن يظلنا تحت ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله.

○ الخطة في تحقيق ذلك:

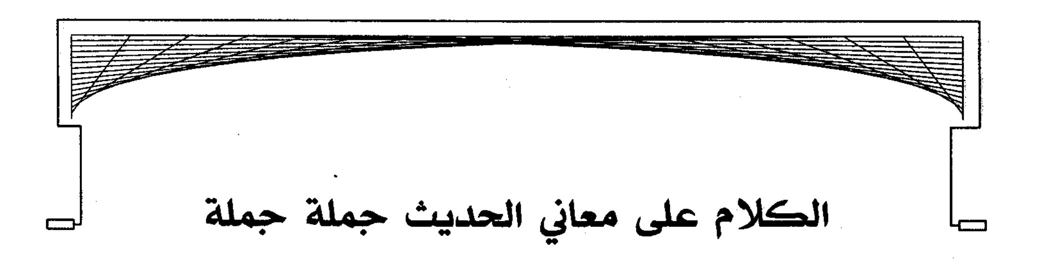
سنورد أقوال العلماء في ذلك، وبيان معاني تلك الأصناف، والمراد عندهم

من الإظلال والظل وغير ذلك، ليكون أساساً للبحث، وليقف القارئ على أقوال السلف رحمهم الله. ثم نورد ما يفتح الله تعالى علينا به فيما تأثرنا به في معانيه، ثم بيان النظم والسياق والسببية في هذا الأسلوب النبوي الكريم.

ثم نورد ما جمعه الأئمة من الأصناف، وإن أجمعها وأوفاها ما ذكره المناوي عن السيوطي والسخاوي، ثم الزرقاني رحمهم الله. وقد أفردها الزرقاني برسالة وضمنها شرحه على الموطأ. وسوف نذكرها في نهاية البحث إن شاء الله تعالى.

كما وقفتُ على رسالة بعنوان «منيل البش فيمن يُظلُّهم الله بظل العرش»، لأبي عبد الله سيدي محمد مصطفى ماء العينين ابن الشيخ محمد فاضل بن مَامِين الشريف الحسني الإدريسي الشنقيطي، جمع ما ساقه القسطلاني في إرشاد الساري بشرح البخاري وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله عند إيراد أقوال العلماء، وهي رسالة موجزة، ذكر نص الحديث، ثم أورد ما زاده القسطلاني في إرشاد الساري بشرح البخاري، وقال: ربما زدت عليه، وكلامه كله موجز إلا على الصنف الأخير في الذكر وأنواعه، وسنلم بما يلزم في محله بإذن الله.





الكلام على معاني الحديث جملة جملة

بإيراد أقوال العلماء مما نقف عليه، ثم التعليق على كل جملة بما ييسره الله تعالى لنا.

أولاً: أقوال العلماء، ونخص بالذات الآتي:

١ ـ ابن عبد البر في التمهيد على الموطأ.

٢ ـ الباجي في المنتقى على الموطأ.

٣ ـ الزرقاني على الموطأ.

٤ ـ ابن حجر في الفتح على صحيح البخاري.

٥ ـ القسطلاني في إرشاد الساري على صحيح البخاري.

٦ ـ النووي على صحيح مسلم.

٧ ـ المبارك فوري على الترمذي في تحفة الأحوذي.

٨ ـ السيوطي.

٩ ـ المناوي في فتح القدير على الجامع الصغير.

١٠ـ من رسالة الشيخ ماء العينين «مُنيل البش».

١١ـ ما تيسر من غير تلك المراجع.

١٢ـ وأخيراً ما نورده مما ييسره الله تعالى لنا في كل جملة، وربط الجمل بعضها ببعض بما يظهر بدائع الحِكَمِ، من جوامع الكلم، إن شاء الله.

* * *

الجملة الأولى: والتي هي بمثابة العنوان العظيم لهذا الحديث الكريم: قال ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»**.

قوله ﷺ: **«سبعة»**. لم يتعرض ابن عبد البر لمنطوق هذا العدد، ولا

لمفهومه، ولا صاحب تحفة الأحوذي، ولا النووي على مسلم، وكذلك الباجي في المنتقى، والزرقاني في شرحه للموطأ، إلا أن الزرقاني في نهاية شرحه للحديث قال: وظاهر الحديث اختصاص السبعة المذكورين، ووجهه الكرماني بما حاصله: إن الطاعة إما بين العبد والرب، أو بينه وبين الخلق:

فالأول: باللسان والذكر، أو بالقلب، وهو المُعلق بالمسجد، أو بالبدن وهو الناشئ بالعبادة.

والثاني: عام. وهو العادل، أو خاص بالقلب وهو التحابّ، أو بالمال وهو الصدقة، أو بالبدن وهو العفة. انتهى.

أي انتهى ما نقله الزرقاني عن الكرماني، ثم قال الزرقاني:

لكن دل استقراء الأحاديث على أن هذا العدد لا مفهوم له. وأخذ يورد الأحاديث التي وردت في أصناف أخرى زيادة على هذه السبعة. فهو ممن يقول: لا مفهوم لهذا العدد. وله رسالة مستقلة في ذلك كما نوهنا عنها سابقاً وسنوردها بكاملها إن شاء الله بعد إتمام الكلام على الحديث.

وعند القسطلاني: عند أول إيراد البخاري للحديث في باب (من جلس في المسجد ينتظر الصلاة) قال: وتقييد العدد بالسبعة لا مفهوم له، بدليل ورود غيرها. وسرد بعض النصوص عند مسلم وغيره، إلى أن قال: ومن تتبع دواوين الحديث وجد زيادة كثيرة على ما ذكرته، ثم قال: وللحافظ ابن حجر مُؤَلّف سماه: «معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال» ويأتي مزيد كذلك إن شاء الله في الزكاة والرقائق»[1].

وقال في شرحه على مشروعية الصدقة باليمين: لا مفهوم للعدد بالسبعة. فقد روي الإظلال لذي خصال أخَر كثيرة غير هذه، أفردها شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي في جزء فبلغت مع هذه السبعة ثنتين وسبعين بتقديم الفوقية على المهملة[2].

ورسالة السخاوي تلك هي ما نوهنا عنها عند الزرقاني، فقد أورد ما اشتملت عليه من الأصناف ونظمها كلها وسنوردها إن شاء الله بعد كلام ابن

---

(١) إرشاد الساري (٢/ ٣٣).

(٢) إرشاد الساري (٣/ ٢٤).

حجر وزياداته ونظمه لما زاده، وما زاده السيوطي ونظمه أيضاً.

وعند ابن حجر في فتح الباري عند أول إيراد البخاري لهذا الحديث ما نصه[1]: قوله: «سبعة» ظاهره اختصاص المذكورين بالثواب المذكور. ونقل توجيه الكرماني الذي نقله الزرقاني وقدمناه سابقاً. ثم قال:

وقد نظم السبعة العلامة أبو شامة عبد الرحمٰن بن إسماعيل فيما أنشده أبو إسحاق التنوخي إذناً عن أبي الهدى أحمد بن أبي شامة عن أبيه سماعاً من لفظه قال:

وقال النبيُّ المصطفى إنَّ سبعةً ... يُظلهمُ اللهُ الكريمُ بظلِّهِ
محبٌّ عفيفٌ ناشئٌ متصدِّقٌ ... وباكٍ مُصَلٍّ والإمامُ بعدلِه

ثم ذكر بعض النصوص فيما جاء في هذا المعنى إلى أن قال: فدل على أن العدد المذكور لا مفهوم له.. إلى أن قال: إنه تتبع الأحاديث الواردة في مثل ذلك فزادت على عشر خصال وقد انتقى منها سبعاً وردت بأسانيد جياد ونظمها في بيتين تذييلاً على بيتي أبي شامة وهما:

وزدْ سبعةً إظلالَ غازٍ وعونَهُ ... وإنصارَ ذي عُسْرٍ وتخفيفَ حَمْلهِ
وإرفادَ ذي غُرْمٍ وعونَ مُكاتبٍ ... وتاجرَ صدقٍ في المقال وفعلهِ

وذكَرَ رواياتها ومن أخرجها: **فالغازي** عند: ابن حبان وغيره. **وعون المجاهد**: أحمد والحاكم. **وإنظار المعسر والوضيعة عنه** عند: مسلم. **وإرفاد الغارم وعون المكاتب**: أحمد والحاكم. **التاجر الصدوق**: البغوي في شرح السنة.

ونظمه مرة أخرى فقال في السبعة الثانية:

وتحسين خُلْقٍ مع إعانةِ غارمٍ ... خفيفِ يدٍ حتى مُكَاتب أهلهِ

وبين رواتها أيضاً: **فتحسين الخلق**: للطبراني بسند ضعيف، ثم قال: ثم تتبعت ذلك فجمعت سبعة أخرى ونظمتها في بيتين آخرين، هما:

وزدْ سبعةً: حزنٌ ومشيٌ لمسجدٍ ... وكرهُ وضوءٍ ثم مُطعمُ فضلِه

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٤٣).

وأخـذُ حـقٍّ بـاذلٌ ثـم كـافـلٌ وتـاجرُ صدقٍ في الـمقال وفعلِه

ثم قال: ثم تتبعت ذلك فجمعت سبعة أخرى، ولكن أحاديثها ضعيفة، وقال: وقد أوردت الجميع في «الأمالي» وقد أفردته في جزء سميته «معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال».

فهو قد أوصلها أربع سبعات، كما قال: وقلت في آخر البيت:

تُرَبّعُ بها السبعاتُ من فَيْضِ فَضْلِهِ

وقد ساق السيوطي هذا وبنظمه إلى أن أوصلها إلى السبعين، أي عشر سبعات وأورد نظمها في تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك في سبعات متفاوتة.

وقد أورد المناوي على الجامع الصغير مضمون ما جمعه الشيخان ابن حجر والسخاوي نحو الثمانين: ثمانية وسبعين صنفاً، وقال: هذا محصول ما التقطه ابن حجر والسخاوي والمؤلِّف في الأخبار وأكثرها ضعاف، ومن أراد الوقوف على ما فيها من كلام، ومَن رواها من الأعلام. فليرجع إلى تلك التآليف[1].

○ مقارنة هذه الزيادات:

مما تقدم يتبين أن ابن حجر أول من تتبع تلك الأصناف، وزاد فيها حتى أوصلها أربع سبعات، ونظمها في «الأمالي» ثم تابعها السيوطي، وزادها إلى سبع سبعات، ثم إلى تمام السبعين، وقد أورد السيوطي نظم ابن حجر للأربع سبعات التي نوه عنها في الفتح والتي أودعها جزء «الأمالي» ثم زاد ما تحصل له من سبعات له هو وذلك كالآتي:

أولاً ما هو لابن حجر ونصه:

وزدْ سـبـعـةً إظـلالَ غـاز وعـونَـه وإنظارَ ذي عسرٍ تخفيف حملِه

وحامي غزاة حين وَلَّواْ وعونَ ذي غـرامـةٍ حـقٍّ مـع مُـكـاتـبِ أهـلِـه

قال ـ أي ابن حجر ـ: ثم تتبعت فجمعت سبعة أخرى، ثم سبعة أخرى، ولكن أحاديثها ضعيفة، ونظمت ذلك فقلت:

---

(١) فتح القدير على الجامع الصغير (٤/ ٩١).

وزد مع ضَعْفٍ سبعتين إعانةً لأخْرَقَ مع أخذٍ لحقٍّ وبذلِهِ
وكُرْهُ وضوءٍ ثم مشيٌ لمسجدٍ وتحسينُ خُلق ثم مُطْعِم فَضْلِهِ
وكافل ذي يُتْمٍ وأرملةٍ وَهَتْ وتاجرُ صدقٍ في المقال وفِعَلِهِ
وحزنٌ وتصبيرٌ ونصحٌ ورأفةٌ تُرَبَّعُ بها السبعاتُ من فيض فضلهِ

أ ـ قلت ـ أي السيوطي ـ: وقد تتبعت فوجدت سبعة ثم سبعة ثم سبعة وقد نظمتها فقلت:

وزدْ مع ضعْفٍ من يُضيفُ وعونِه لأيتامها ثم القريبُ بوصلهِ
واعلمْ بأنَّ الله معه وحبه إجلالِه والجوع من أهل حبلِه
وزهدٌ وتفريحٌ وغَضٌّ وقوّةٌ صلاةٌ على الهادي وإحياء فعلِه
وتركُ الربا مع رشوةِ الحكم والزنا وطفلٌ وراعي الشمس ذِكْرَاً وظِلّه
وصومٌ وتشييعٌ لَمْيتٍ عبادةٌ فَسَبِّعْ بها السبعاتِ يا زينَ أصلِه

ب ـ ثم تتبعت فوجدت سبعة ثم سبعة وقد نظمتها فقلت ـ أي السيوطي ـ:

وزدْ سبعتين الحبُّ لله بالغاً وتطهيرُ قلبٍ والغضوبَ لأجلهِ
وحبُّ عليٍّ ثم ذكرُ إنا بهِ وأمرٌ ونهيٌ والدُّعاءُ لِسُبْلهِ
وكمنْ أوّلَ الأنعام يقرأ غداتَه ومُستغفرُ الأسحارِ يا طيبَ فعلِهِ
وبِرٌّ وتركُ النَّمِّ والحَسَدِ الذي يَشينُ الفتى فاشكرْ لجامع شِمِله

جـ ـ قال ـ أي السيوطي ـ: ثم تتبعت فوجدت سبعة أخرى تتمة سبعين، وقد نظمتها فقلت:

وزدْ سبعةً قاضي حوائجِ خلقِه وعبدٌ تقيٌّ والشهيدُ بقتلِه
وأمٌّ وتعليمٌ أذانٌ وهجرة فتمَّتْ لها السبعونَ من فيضِ فضلهِ

فأبو شامة نظم السبعة التي في الحديث.

وابن حجر أضاف إليها ثلاث سبعات فبلغت أربع سبعات، والسيوطي أضاف ست سبعات فبلغ الجميع عشر سبعات بسبعين صنفاً.

○ عمل السخاوي:

لم نقف على رسالة السخاوي بعينها، ولكن أشار إلى مضمونها الإمام القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري «إرشاد الساري» فقال: عدها شيخنا

الحافظ السخاوي في جزء فبلغت مع هذه السبعة ثنتين وتسعين بتقديم الفوقية، ثم ذكرها بأسانيدها كلها مبيناً درجة كل حديث فيها[1].

بينما الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني في شرحه على الموطأ أورد ملخص ما ذكره السخاوي بأسانيدها وأوصلها إلى أربعة وتسعين، ونقل في آخر نقله عن السخاوي قوله: «هذا خلاصة ما ذكره الحافظ السخاوي في مؤلفه قائلاً: هذا ما يسر الله لي الوقوف عليه في مدة متطاولة، وليس ذلك على وجه الحصر فيه، بل باب الفضل مفتوح، ووقف بها السيوطي إلى نيف وسبعين ونظمها، إلى أن قال ـ أي الزرقاني ـ: وقد كنت لَخَّصْتُ تأويل السخاوي في وريقات، ونظمت هذه الخصال تذييلاً على بيتي أبي شامة وأبيات الحافظ فقلت . . . إلخ على ما سيأتي.

فيكون نظم الزرقاني هو آخر جمع لكل ما تقدم، حيث تضمن ما جمعه من قبله وبلغت أربعاً وتسعين صنفاً.

وأورد في رسالته تلك، وفي شرحه هذا، تلك الأصناف برواياتها، وسنوردها إن شاء الله بعد إيراد النظم، وعمل المقارنة بين ما نظمه هو وما نظمه السيوطي، ليظهر اتفاقهما أو افتراقهما، وهذا هو نظم الزرقاني، قال:

أتى في الموطأ والصحيحين سبعةٌ	يُظلُّهم الله الكريمُ بظله
أشار لهم نظماً[2] إمامُ زمانه	أبو شامة إذ قال في بيت وصلِه
محبٌّ عفيفٌ ناشئٌ متصدِّقٌ	وباكٍ مصلٍّ والإمامُ بعدلِه
وزادَ عليه العسقلانيُّ[3] بعدهُ	ثلاثاً من السبعات نظماً بقولِه
زادَ سبعةً إظلالُ غازٍ وعونُه	وإنظارُ ذي عُسْرٍ وتخفيفُ حِمْلِهِ
وحامي غزاةٍ حين ولَّوا وعونُ ذي	غرامةِ حقٍّ مع مُكَاتبِ أهلِه
وزدْ مع ضَعْفِ سبعتين إعانةً	لأخرق مع أخذٍ لحقٍّ وبذلِه
وكرهِ وُضوءٍ ثم مشيٍ لمسجدٍ	وتحسينِ خُلْقٍ ثم مُطعمِ فضلِه
وكافل ذي يُتمٍ وأرملةٍ وَهَتْ	وتاجرِ صدقٍ في المقالِ وفعلِه
وحزنٍ وتصبيرٍ ونُصْحٍ ورأفةٍ	تُرَبِّعُ بها السبعاتُ من فَيْضِ فضلِهِ

---

(١) إرشاد الساري (٣/ ٢٢).

(٢) في المخطوطة «رمزاً».

(٣) يعني ابن حجر العسقلاني.

وقد زادَها ستاً[1] بضَعْفٍ ولم تقعْ … منظمةً منه فخذْ نظمَ جملِه
فحبُّ عليٍّ ثم تركٌ لرشوةٍ … زناً وربا حكمٌ لغيرِ كمثلِه
ومِن أوّلِ الأنعام آيُ ثلاثةٍ … عقيبَ صلاةِ الصبحِ غايةَ نفلِه
وأوصلَها الشيخُ السخاويُّ أربعاً وتسـ … ـعين مع ضَعْفٍ لإسناد جُلِّهِ
مُراقبُ شمسٍ للمواقيتِ ساكت … بحلمٍ وعن علم يقولُ وعقلِه
ومَنْ حفظَ القرآنَ حالةَ صغرهِ … وفي كُبْرٍ يتلو وحاملُ كُلِّهِ
مريضٌ وتشييعٌ لميتٍ عبادةً … شهيدٌ ومن في أُحُدٍ فازَ بقتلِه
وعلمٌ بأن اللهَ معه وتاجرٌ … أمينٌ بلا مدحٍ وذمٍّ لرحلِه
ومَنْ لم يمد اليد نحوَ مُحَرَّمٍ … عليه ولم ينظرْ إلى غير حلِّه
ومُحسنُ طُعْمٍ للفقير مُصْدِقٌ … على معسرٍ تركُ الغريمِ لعُسْرهِ
وكافلةٌ أيتامَها بعد زوجها … ومشبعُ جوعٍ ثم واصلُ أهلِه
محبُّ الأناسي للجلالِ مُؤَذِّنٌ … ومن لم يخفْ في الله لوماً لعدلِه
كذا رحمٌ ثم الأمانةُ بعدها … خيارُ ذوي التوحيد طَيِّبُ فعلِه
مفرِّجُ كربٍ ثم مُحيي لسنةٍ … مُصَلٌّ عَلى الهَادي كثيراً بأجلِّهِ
قِرانٌ وأهل الجوع خوفاً وصائم … ثلاثَة عشر من رجبٍ حَوْلِهِ
من يقرأ الإخلاصَ من بعد مغربٍ … ثلاثينَ في ثنتين من بعد نفلِهِ
وأطفالُ ذي الأيمانِ نجُل نبيِّنا … وغيرُ حسودٍ لا يَعِقُّ لأصلِهِ
وطاهرُ قلبٍ ليس يمشي نميمةً … بريءٌ ومَكْلُوفٌ يحبُّ لربِّهِ
منيبٌ ومذكورٌ بذكر إلٰهه … لحرمتِه غضبانَ داعٍ لسبلِه
وأمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ لمنكرٍ … وذِكْرٌ بقلبٍ مع لسانٍ لنُبْلِه
ومستغفرُ الأسحارِ عُمَّارُ مسجدٍ … كذلك صوّامٌ مُعَلِّمُ طفلِه
ومَنْ يذكرِ الرحمنَ مع ذكرهم له … كذا أنبياءُ الله مع أهلِ صفوهِ
خليلُ إلٰه العرشِ فاطمةٌ كذا … عليٌّ ونجلاهُ وخاتَمُ رُسْلِهِ
عليه صلاةٌ مع سلام به نُرى … بحرمتِه يومَ القيامةِ بظِلِّه

---

(١) يعني العسقلاني زادها ستة أصناف ولم ينظمها مع الأربع سبعات وهي التي جاءت في قوله: فحبُّ عليٍّ. . . إلى قراءة أول الأنعام.

○ حقيقة:

بيان لحقيقة تلك الزيادات:

إن من يقتصر على نظم الزرقاني يجد الآتي:

أ ـ لم يعز للسيوطي شيئاً.

ب ـ عزا لابن حجر ستة أصناف ونظمها هو، بينما هي مما زاده السيوطي.

جـ ـ ضمن ما عزاه للسخاوي كل ما هو للسيوطي فحصل بذلك تداخل ولبس. والذي يظهر أن الحقيقة هي:

١ ـ زاد ابن حجر ثلاث سبعات فبلغت ٤ × ٧ = ٢٨.

٢ ـ زاد السيوطي (٦) سبعات فصارت ٦ × ٧ = ٤٢ + ٢٨ = ٧٠، فيكون الباقي وهو حوالي (٢٤) من زيادة السخاوي.

«تنبيه أول»:

إن إيصالها إلى هذا العدد المذكور ـ نيف وتسعين ـ إنما هو فضلاً عن ضعف أسانيد الكثير منها ـ فإنه يوجد بعضها متداخلاً مع غيره، أو مكرراً معه، والاختلاف مع مكرره في شكلية بسيطة جداً مثل: إنظار المعسر والتخفيف عنه مع عون ذي غرامة ومكاتب.

ومثل: رجل قلبه معلق بالمساجد مع: مشي لمسجد، ومراقب شمس للمواقيت، وعمار مسجد، إلى مثل ذلك.

«تنبيه ثان»:

يلاحظ من نظم الزرقاني وكأنه لم يطلع على نظم السيوطي للسبعات التي توصل إليها ونظمها بنفسها حتى أوصل العدد إلى سبعين صنفاً، كما جاء في تنوير الحوالك له.

لأنه ذكر أولاً السبعة ونظم أبي شامة إياها، ثم جاء بثلاث سبعات ابن حجر التي نظمها هو ـ أي ابن حجر ـ وذكر ستة أصناف لابن حجر زيادة على الثلاث سبعات، إلا أن ابن حجر لم ينظمها، فنظمها الزرقاني تابعة لما زاده ابن حجر.

ثم انتقل من ابن حجر إلى السخاوي، ولم يذكر نظماً للسيوطي، بل ولا أي ذكر للسيوطي في نظمه هذا.

«تنبيه ثالث»:

أ ـ إن ستة الأصناف التي عزاها الزرقاني لابن حجر ونظمها عنه في بيتين كلّها موجودة ضمن ما زاده السيوطي ونظمه بنفسه.

ب ـ كما أن ما زاده السيوطي ذكره الزرقاني مضافاً للسخاوي.

وعلى كل فإن مجموع ما تحصل من الأصناف ينوف على التسعين، ولكن مع مراعاة ما نص عليه كل من ابن حجر في السبعة الرابعة له، وما نص عليه الزرقاني في زيادات السخاوي من ضعف الأسانيد.

أي أن السبعة الأولى متفق عليها كما تقدم، وثلاث السبعات لابن حجر بأسانيد لا بأس بها في مثل ذلك، وما بعد هذه السبعات الأربع فضعيفة الأسانيد.

ولتطلع طالب العلم لمعرفة أسانيد هذا العدد كله ولا سيما وهو مدون في رسالة الزرقاني تلخيصاً عن رسالة السخاوي فيتعين إيرادها تتمة للفائدة وتيسيراً للوقوف عليها وهي كالآتي:

توجد تلك الرسالة في موضعين:

رسالة مخطوطة، عدد أوراقها (١٥)، وخطها لا بأس به مقروء، كل ورقة فيها صحيفتان، وكل صحيفة فيها (١٧) سطراً، كل سطر ما بين (٧ أو ٨) كلمات. وهي بالجامعة الإسلامية برقم (٢٤١١) (٢٨٥٠٨)، وصدرها المكتبة الأزهرية. بدأها بالبسملة، ثم بحمد الله، ثم بمقدمة مسجوعة. ثم قال:

فهذه عجالة للقاصر الباع القليل الإطلاع. . .إلخ انتقيتها من كتاب الحافظ الشهير العالم الكبير أبي الخير محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، متعه الله بالنظر إليه، وجعله ممن بظل عرشه يأوي في الخصال الموجبة للظلال، فإنه رحمه الله تعالى قد أجاد وقد ساعد الجد حتى أفاد فوق ما استفاد.

روى الشيخان والنسائي والطيالسي عن أبي هريرة والإمام مالك في الموطأ ومن طريقه مسلم والترمذي عن أبي هريرة أو أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: **«سبعة يظلهم الله»**، وذكر نص الحديث كما تقدم.

وقال: رواه أبو نعيم وغيره من حديث أبي هريرة. وابن الجراح في أماليه من حديث ابن مسعود فقال بدل «وشاب نشأ في عبادة الله»: **«ورجل كان في سرية مع قوم فلقوا العدو فانكشفوا فحمى آثارهم** - وفي لفظ: **أدبارهم - حتى نَجَوْا وَنَجَا أو استشهد»**. قال الحافظ ابن حجر: حسن غريب جداً.

وروى الحاكم وتلميذه البيهقي: في الشعب من حديث أبي هريرة، فقال بدل الشاب أيضاً: **«ورجل تعلم القرآن في صغره فهو يتلوه في كبره»**.

وروى عبد الله بن أحمد: - في زوائد الزهد لأبيه - الحديثَ عن سلمان موقوفاً، وحكمه الرفع، فمثله لا يقُال رأياً، وأبدل الإمام والشاب بقوله: **«ورجل يُراعي الشمس لمواقيت الصلاة، ورجل إن تكلّم تكلّم بعلم، وإن سكت سكت عن حلم»**.

ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ: **«سبعة يظلهم الله في ظل عرشه: رجل نبت بحلم وعلم إن تكلم ...» إلخ.**

وأخرج ابن عدي عن أنس رفعه: **«أربعة في ظل الله»** وعدَّ الشاب والمتصدق والإمام. قال: **«ورجل تاجر اشترى وباع فلم يقل إلا حقاً»**.

التاجر وسنده ضعيف. لكن له طريقاً آخر عنه مرفوعاً بلفظ: **«التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة»** رواه الديلمي والأصفهاني وهو ضعيف أيضاً لكن له شواهد عن سلمان عند البيهقي وعلي مرفوعاً وأبي هريرة مرفوعاً.

وأخرج مسلم والحسن بن سفيان وأبو يعلى وآخرون عن أبي اليسر عن النبي ﷺ: **«مَنْ أنظرَ معسراً أو وضع عنه، أظله الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله»**.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد مسند أبيه عن عثمان، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«أظل الله عبداً في ظله يوم لا ظل إلا ظله: من أنظر معسراً أو ترك لغارم»**.

وللطبراني في الأوسط عن شداد بن أوس: سمعت رسول الله ﷺ: **«من أنظر معسراً أو تصدق عليه، أظله الله في ظله يوم القيامة»**.

والصدقة على المعسر أسهل من الوضع عنه في غيرها[1].

وله أيضاً عن جابر مرفوعاً: **«أظل الله في ظله يوم القيامة من أنظر معسراً أو أعان أخرقاً»** وفي إسناده ضعف. والأخرق الذي لا صناعة له، ولا يقدر أن يتعلم صنعة.

ولأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحاكم والبيهقي عن سهل بن حنيف مرفوعاً: **«من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غارماً في عسرته، أو مكاتباً في رقبته: أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»**. وإعانة الغارم لا تتكرر مع الترك له، لأنه أخص من معونته.

وأخرج أبو يعلى والضياء في المختارة عن عمر مرفوعاً: **«من أظل رأس غاز أظله الله يوم القيامة»**.

ولأبي الشيخ في الثواب ومن طريقة التيمي في ترغيبه وأبو نعيم في فضل إطعام الطعام عن جابر رفعه: **«ثلاث من كن فيه أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله: الوضوء على المكاره، والمشي إلى المساجد في الظلم، وإطعام الجائع»**، قال الحافظ ابن حجر: غريب، وفيه القفاري ضعيف جداً. لكن في الترغيب في كلٍّ من الثلاثة أحاديث قوية.

وللطبراني عن جابر: **«من أطعم الجائع حتى يشبع أظله الله تحت ظل عرشه»**. وإشباع الجائع أخص من مطلق إطعامه. قلت: لا ينهض هذا مع اتحاد المخرج وهو جابر، فيحتمل أن ترك الغاية في الرواية الأولى تقصير في السماع، أو المراد الإطعام المعتبر وهو الإشباع، بدليل الرواية الثانية، لكن قد عدهما في الأصل خصلتين. انتهى.

ولأبي الشيخ بسند ضعيف عن عليّ رفعه: **«إن سيد التجار من لزم التجارة التي دلَّ الله عليها من الإيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله فمن لزم البيع والشراء فلا يذم إذا اشترى ولا يحمد إذا باع، وليصدق الحديث، ويؤد الأمانة، ولا يتمنى للمؤمنين الغلاء، فإذا كان كذلك كان أحد السبعة الذين في ظل العرش»**. وهذا قدر زائد على الصدق فيمكن أن تكون خصلة مستقلة.

وللطبراني عن أبي نعيم والديلمي وابن عدي عن أبي هريرة رفعه:

---

(١) في الهامش تعليق على كلمة (أسهل) بقوله: لعله أعم.

«أوحى الله إلى إبراهيم: يا خليلي حَسِّنْ خلقَك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، وإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت ظل عرشي، وأسقيه من حظيرة قدسي وأدنيه من جواري».

وللطبراني عن جابر رفعه في حديث: «ومن كفل يتيماً أو أرملةً أظلَّه الله في ظله يوم القيامة»، ضعيف لكن له شواهد.

ولأحمد وابن منيع والبيهقي وغيرهم، عن عائشة رفعته: «تدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم». قال الحافظ ابن حجر: غريب، ولم أره إلا من حديث ابن لهيعة، وحاله معروف.

وابن عساكر وابن شاهين وابن أبي الدنيا والحاكم عن أبي ذر رفعه: «إني موصيك بوصية فاحفظها لعلها تنفعك، زر القبور تذكرك الآخرة». قلت: بالليل؟ قال: «لا، بالنهار أحياناً، ولازمْ غسل الموتى في معاينة جسد خاوٍ موعظة بليغة، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين في ظل الله معرض لكل خير، وجالس المساكين وسلم عليهم، وكُل مع صاحب البلاء، إيماناً وتواضعاً، والبس الخشن من الثياب، وتزين لعبادة ربك أحياناً، ولا تعذب شيئاً مما خلق الله بالنار». قال الحافظ ابن حجر: غريب وفيه ضعف، وخفيت علته على الحاكم فاستدركه.

ولابن شاهين وأبي نعيم وغيرهما عن الصديق سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالي العادل ظل الله ورمحه في الأرض، فمن نصحه في نفسه وفي عباد الله، أظله الله يوم القيامة بظله يوم لا ظل إلا ظله، ومن غشه في نفسه وفي عباد الله خذله الله يوم القيامة». رجاله معروفون إلا سليمان بن رحال فقال أبو حاتم: مجهول.

وأبو بكر بن لال وأبو الشيخ عن الصديق رفعه: «من أراد أن يظله الله بظله فلا يكن على المؤمنين غليظاً، وليكنْ بالمؤمنين رحيماً».

والدارقطني وابن شاهين عن الصديق، وابن السني والديلمي عنه وعن عمران بن حصين قالا: قال موسى عليه السلام لربه عز وجل: ما جزاءُ من عزّى الثكلى؟ قال: «أظله في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» قال الحافظ القسطلاني: وطريق كل من هذين الحديثين أوهى مما مر.

وابن أبي الدنيا عن فضيل بن عياض، قال: بلغني أن موسى قال: أي ربّ من تظل تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك؟ قال: يا موسى الذين يعودون المرضى، ويشيعون الهلكى، ويعزون الثكلى.

وروى **أبو سعيد السكري** عن علي رفعه: «**السابقون إلى ظل العرش يوم القيامة طوبى لهم**». قال: من هم؟ قال: «**هم شيعتك يا عليّ ومحبوك**»، واهٍ جداً، فيه سليمان الملطي رماه الدارقطني بالكذب، سلم بن ميمون الخواص ضعيف، قال أبو حاتم: لا يُكتب حديثه. وقال ابن حبان: شغله الصلاح[1] عن حفظ الحديث حتى كثرت المناكير في روايته.

والبيهقي وابن عساكر عن أبي الدرداء، قال: قال موسى: يا رب من مُساكنك في حظيرة القدس؟ ومن يستظل بظلك يوم لا ظل إلا ظلك؟ قال: أولئك الذين لا ينظرون بأعينهم الزنا، ولا يبتغون في أقوالهم الربا، ولا يأخذون على أحكامهم الرشا، أولئك طوبى لهم وحسن مآب.

قال الحافظ أبو الفضل: غريب، وليس في روايته من اتفق على تركه، وما كان أبو الدرداء يأخذ عن أهل الكتاب، فالظاهر أن لحديثه حكم الرفع.

وأخرج **أبو القاسم التيمي** في ترغيبه عن ابن عمر مرفوعاً: «**ثلاثة يتحدثون في ظل العرش آمنين والناس في الحساب: رجل لم يأخذه في الله لومة لائم، ورجل لم يمد يده إلى ما لا يحل له، ورجل لم ينظر إلى ما حرم عليه**».

وفيه عنبسة القرشي متروك متهم. لكن روي في الخصال الثلاث ما يرغّب فيها.

وروى **طلحة بن علي بن الصقر** في جزئه المشهور، عن ابن عباس قال: من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من سورة الأنعام إلى... **(ويعلم ما تكسبون)** نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم.. الحديث.

وفيه: فإذا كان يوم القيامة قال الله: امش في ظلي. وفيه إبراهيم بن

---

(١) انظر رحمك الله مدى حرص السلف على صحة حديث رسول الله ﷺ فلم يشفع عندهم صلاح الراوي إذا أخطأ في النقل كما جاء عن مالك: لقد أدركت من أرجو دعوته ولم أقبل روايته.

إسحاق الصبي متروك، قاله الدارقطني، وقال الأزدي: زائغ. وذكره ابن حبان في الثقات. وورد ما يستأنس له به.

وأبو الشيخ والديلمي عن يزيد الرقاشي، عن أنس رفعه: **«ثلاثة في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: واصلُ الرحم يزيد الله في رزقه، ويمدُّ له في أجله، وامرأة مات زوجها وترك أيتاماً صغاراً، فقالت: لا أتزوج أقيم على أيتامي حتى يموتوا أو يغنيهم الله تعالى، وعبدٌ صنع طعاماً فأطاب صنعه، وأحسنَ نفقته، فدعا عليه الفقير والمسكين، فأطعمهم لوجه الله ﷻ»**.

والطبراني في الكبير عن أبي أمامة رفعه: **«ثلاثة في ظل الله يوم القيامة: رجل حيث توجه علم أن الله معه، ورجل دعته امرأة إلى نفسها فتركها من خشية الله، ورجل يحبُّ الناس لجلال الله تعالى»**.

وفيه: بشر بن غبر، متروك.

وروى الخطيب في التاريخ عن أبي سعيد رفعه: **«إذا كان يوم القيامة جيء بكراسي من ذهب مكللة بالدرِّ والياقوت، مفروشة بالسندس والاستبرق، ثم يضرب عليها قباب من نور، ثم ينادي منادٍ أين المؤذنون؟ فيقومون وهم أطول الناس أعناقاً. فيقال لهم: اجلسوا على تلك الكراسي تحت تلك القباب، حتى يفرغ الله من حساب الخلائق، فإنه لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»**.

وسنده ضعيف جداً، وأفرد المؤذن بالذكر عن «مُراعي الشمس» فإنه قد لا يكون مؤذناً.

للديلمي بلا سند عن أنس مرفوعاً: **«ثلاثة تحت ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: من فرّج عن مكروب من أمتي، وأحيا سنتي، وأكثر الصلاة علي»**.

وأخرج الديلمي مرفوعاً: **«أدِّبُوا أولادكم على ثلاث خصال: حبِّ نبيكم، وحبِّ أهل بيته، وعلى قراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه»**.

ومر حديث: **«ورجل تعلم القرآن في صغره، فهو يتلوه في كبره»** لكن الظاهر أن هذه الخصلة وهي «حامل القرآن» غير تلك. قلت: كأنه لحظ أنه لا يلزم من حمله كونه تعلمه في صغره.

وروى أبو يعلى في حديث طويل عن أنس رفعه: «**إذا خرج المسلم من بيته يعودُ أخاه المسلم خاض في الرحمة إلى حقويه، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة، وكان المريض في ظل عرشه والعائد في ظل عرشه**».

وفيه عباد بن كثير ضعيف متروك لغفلته وإن كان صالحاً؛ لكن له شواهد.

والديلمي عن أبي هريرة رفعه: «**أهل الجوع في الدنيا هم الذين يقبض الله أرواحهم، وهم الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أخفياء في الدنيا، معروفون في السماء، إذا رآهم الجاهل ظن بهم سُقماً وما بهم سُقْم إلا الخوف من الله، يستظلون يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله**». وفي إسناده ضعف.

وابن أبي الدنيا عن مغيث بن سمي أنه قال: «**الصائمون في ظل...**»، ومثله لا يقال بالرأي، بل عندهم أيضاً عن أنس مرفوعاً: «**الصائمون ينفح من أفواههم ريح المسك، وتوضع لهم يوم القيامة مائدة تحت العرش، فيأكلون منها والناس في شدة**».

والديلمي عن أبي الدرداء رفعه: «**يوضع للمصلين موائد من ذهب تحت العرش**».

وفي أمالي ابن ناصر عن أبي سعيد رفعه: «**من صام في رجب ثلاثة عشر يوماً وضع الله له يوم القيامة مائدة في ظل العرش يأكل منها والناس في شدة**». وهو شديد الوهْي.

والحارث بن أبي أسامة عن علي رفعه: «**من صلى ركعتين بعد ركعتي المغرب قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ خمس عشرة مرة جاء يوم القيامة، فقيل: هذا من الصديقين، فيجوزهم، فيقال: هذا من الشهداء، فيجوزهم، فيقال: هذا من النبيين، فيجوزهم، فيقال: هذا من الملائكة، فيجوزهم، فلا يحجب حتى ينتهي إلى العرش**» وهذا منكر[1].

والديلمي عن أنس رفعه: «**يُؤتى يوم القيامة بالمتقاعسين والمبتذلين**» قالوا: يا رسول الله ومن هم؟ قال: «**أما المبتذلون: فهم الذين تركوا مهج دمائهم لله**

---

(١) من أظهر دلائل النكارة فيه من حيث المتن أن يتجاوز الأنبياء ﷺ بمثل هذا العمل.

فهراقوها شاهري سيوفهم، يتمنون على الله ﷻ يوم القيامة لا يرد لهم حاجة. وأما المتقاعسون: فهم أطفال المؤمنين اشتد عليهم الموقف، فيتصايحون، فيقول الله: يا جبريل ما هذا الصوت؟ وهو أعلم بذلك. فيقول جبريل: رب أطفال المؤمنين اشتد عليهم الموقف. قال: فيقول: أظلهم تحت ظل عرشي، فيظلهم ثم يقول: يا جبريل أدخلهم الجنة. فيرتعون فيها، فيسوقهم جبريل فيصيحون كما يصيح الخرفان إذا عزلت أمهاتها، فيقول: يا جبريل - وهو بذلك أعلم ما حالهم - قال: يا رب يريدون الآباء والأمهات، فيقول الله ﷻ: أدخل الآباء والأمهات جنتي برحمتي». ضعيف ولبعضه شواهد.

والطبراني برواة ثقات عن ابن عمر مرفوعاً في حديث: إن إبراهيم ابن النبي ﷺ تحت ظل العرش.

وأبو نعيم عن وهب بن منبه قال: قال موسى: إلهي من ذكر بلسانه وقلبه؟ قال: يا موسى أظله بظل عرشي، واجعله في كنفي. وعنده بطريق آخر عن كعب مثله. وهما واهيان لكن في الذكر أحاديث شاهدة بالثواب الجزيل، فيها ما يستأنس به في الجملة.

وابن عساكر عن ابن مسعود **وسعيد بن منصور والبيهقي** عن رجل من الصحابة قال: رأى موسى رجلاً في ظل العرش. قال: من هذا؟ قال: لا أحدثك من هو، ولكن سأخبرك بثلاث فيه: كان لا يحسدُ الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعقُّ والديْه، ولا يمشي بالنميمة.

وأحمد في الزهد **وابن أبي الدنيا**، عن عطاء بن يسار أن موسى قال: يا رب أخبرني بأهلك الذين هم أهلك، الذين تؤويهم في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك. قال: هم الطاهرة قلوبهم، النقية قلوبهم، البرية أبدانهم، يتحابون بجلالي، الذين إذا ذُكرتُ ذكروا بي، وإذا ذكروا ذُكرت بهم، الذي يسعون[1] في الوضوء في المكاره، وينيبون إلى ذكري كما تنيب النسور إلى وكرها، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت، كما يغضب النمر إذا حرب، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس.

---

(١) لعله: (يسبغون الوضوء).

وابن المبارك في الزهد: أخبرنا معمر عن رجل من قريش قال: قال موسى.. فذكره وزاد: «الذين يعمرون مساجدي ويستغفروني بالأسحار».

وأبو نعيم عن أبي إدريس الخولاني قال: قال موسى: يا رب من في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك؟ قال: الذين أذكرهم ويذكروني، ويتحابون لجلالي، فأولئك في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي.

والديلمي عن أنس مرفوعاً: «**يقول الله ﷻ: قرّبوا أهل لا إلٰه إلا الله من ظل عرشي فإني أحبهم**».

والطبراني بسند صحيح في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: لهم ـ أي المؤمنين ـ منابر من نور يظل عليهم بالغمام.

والديلمي وأبو يعلى بسند ضعيف عن أبي الدرداء مرفوعاً: «**خلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية[1]، وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل عرش الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله**» والمراد أخيار المؤمنين كما صرح به القرطبي فقال في قول سلمان: «لا يجدُ حرَّ جهنم مؤمن ولا مؤمنة»: ظاهره العموم وليس كذلك.

أما المراد ـ والله تعالى أعلم ـ مؤمن كامل الإيمان، أو من استظل بظل العرش، وكذا ما جاء: «**المرء في ظل صدقته والأعمال الصالحة أصحابها في ظلها**».

وفي حديث مرفوع: «**إن الشهداء في ظل عرش الرحمٰن في الجنة**».

وأبو داود والحاكم وصححه على شرط مسلم مرفوعاً في شهداء أُحُد: «**إن أرواحهم في أجواف طير خضر تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش**».

وروى **الحسن بن علي بن محمد الخلال والخطيب** عن ابن عباس مرفوعاً: «**اللهم اغفر للمعلمين وأطل أعمارهم وأظلهم تحت ظلك فإنهم يعلمون كتابك المنزل**» قال بعض الحفاظ: هذا موضوع.

---

(١) وتتمتها ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

وأبو الشيخ والديلمي عن عبد الرحمٰن بن عوف مرفوعاً: **«ثلاثة تحت ظل العرش يوم القيامة، القرآن يحاج العباد، والأمانة، والرحم ينادي: ألا من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»** قال العقيلي: لا يصح إسناده.

وأبو نعيم عن كعب: أوحى الله إلى موسى في التوراة: يا موسى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعا الناس إلى طاعتي فله صحبتي في الدنيا وفي القبر وفي القيامة ظلي.

وفي أمالي ابن البختري عن جابر مرفوعاً: **«أنا سيد ولد آدم»** إلى أن قال: **«وفي ظل الرحمٰن ﷻ يوم القيامة، ولا ظل إلا ظله، ولا فخر»**.

ويروى عن أحمد في مناقب علي مرفوعاً: **«إنه يسير يوم القيامة بلواء الحمد وهو حامله، والحسن عن يمينه والحسين عن يساره، حتى يقف بين النبي ﷺ وبين إبراهيم في ظل العرش»** ومن المرامي ما يشهد له إن صلح للاستشهاد ما عند الحاكم عن سلمان مرفوعاً: **«إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة حمراء عن يمين العرش وضربت لإبراهيم قبة من ياقوتة خضراء عن يسار العرش، وضربت فيما بيننا لعلي قبة من لؤلؤة بيضاء فما ظنك بحبيب بين خليلين»**.

والديلمي عن عمر مرفوعاً: **«فاطمة وعلي والحسن والحسين من حظيرة القدس في قبة بيضاء سقفها عرش الرحمٰن»**.

ونحوه عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً: **«أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين يوم القيامة في قبة تحت العرش»**.

اعلم أن عدّ سيد الخلق ﷺ وإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وعلي وفاطمة وابنيهما لأنه أخص من مطلق الأنبياء والأصفياء، كما أن عد السيد إبراهيم بن النبي ﷺ لأنه أخص من مطلق أولاد المؤمنين وكذا عد شهداء أُحُد، لأنهم أخص من مطلق الشهداء. قاله السخاوي: هذا ما يسر الله الوقوف عليه في مدة متطاولة وليس ذلك على وجه الحصر فيه، بل باب الفضل مفتوح. قال: ووصل بها ابن كمال الدين السيوطي ممن تردد إلى وقفها إلى نيف وسبعين ونظمها وأدرج ما لا تصريح بالمراد منه في أحاديثه، وإن أشعرتْ به كالزهد وقضاء الحوائج وصالح العبيد والإمام المرتضى

للمأمومين[1]. والمهاجر.

فلفظه في الأول: **جلساء الله غداً أهل الورع والزهد.**

وفي الثاني: **إذا كان يوم القيامة أجلسوا على منابر من نور ويحادثون الله ورسوله، والناس في الحساب.**

وفي الثالث، والرابع: **ثلاثة على كنب من مسك أسود لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأمّ قوماً وهم راضون. ورجل أذن في مسجد دعا إلى الله ابتغاء وجه الله. ورجل ابتلي بالرق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن طلب الآخرة.** رواه البيهقي.

والخامس: **أن للمهاجرين منابر من نور يجلسون عليها يوم القيامة قد أمنوا من الفزع.**

قال السخاوي: ولو أريد استيفاء ما يشبه ذلك لزادت كثيراً بل ربما يتوهم من نظمه أن الطفل والمو....[2] والمعلم....[2] وليس كذلك. انتهى وقد نظم أبو شامة السبعة الأولى في بيت وذيَّله الحافظ ابن حجر بثلاث سبعات وزادها ستاً ولم ينظمها فذكرت ذلك وذيلت بقية ما ذكر السخاوي والجملة أربعة وتسعون خصلة. قلت: وساق النظم الذي نقلناه في أول هذا المبحث وعدده أربعة وثلاثون بيتاً. وقال بعد إيرادها ما نصه:

«وأما نظم العالم الفقيه النحوي معمر بن عبد القوي المالكي وإن أطنب فيه شيخه السخاوي، وقال: إن أبياته جامعة للخصال، قاطعة للقيل والقال، ففيه إعواز، كقوله في الستة التي من جهات لم ينظمها الحافظ:

فخذ نظمها حكماً لغيرٍ كنفسه ... محبٌّ لسيف الله شيِّق عدله

وترك الزنا ترك الربا ورشوة ... وأول أنعام نهاية كله

إذ لا يعلم المراد بقوله: وأول أنعام. إذ يصدق بآية وبأكثر من الثلاثة ومدِّ الربا وهو مقصور، وفي جوازه للنظم خلاف، وكذا قوله:

«ومن حفظ القرآن في حال صغره ... وفاز كبيراً في الأنام بحمله»

---

(١) إلى هنا يتفق مع ما يوجد في شرح الزرقاني على الموطأ.

(٢) بياض في الأصل.

لا يعلم المراد به فإنه جعل قوله: «وفاز كبيراً بحمله» رمزاً لقوله في الحديث: **«فهو يتلوه في كبره»**. بل يتوهم ببادئ الرأي أنه مكرر مع قوله بعده بأبيات: «وحامل قرآن» والمطلوب أنه غيره.

وكذا قوله: «وصانع طعم لليتيم» فليس المراد مجرد الصنع. بل تحسينه، ولا خصوص اليتيم. فلفظ الحديث: **«وعبد صنع طعاماً فأحسن صنعه فدعى عليه الفقير والمسكين فأطعم لوجه الله»** كما مر.

وكذا قوله: «مصل فقرآن أتى بعد مغرب» فيه إجمال، فلا يعلم المراد به إلا بالوقوف على الحديث.

وكذا قوله: «وعمار بيت الله جل جلاله» أراد به جنس المسجد. مع أن المتبادر من اللفظ «البيت العتيق».

وكذا قوله: «ثم المحب لأجله» أراد خلاف مدلوله: فإنه إشارة للحديث القدسي: **«ويكلفون بحبي»**.

وكذا قوله: «وأحبار ديننا» يتبادر منه أنهم العلماء، مع أنه أراد به معلمي القرآن. ولا يلزم أن يكونوا علماء أحباراً.

لطيفة:

يقال: إن السبعة الأولى اجتمعت في يوسف عليه السلام، فهو: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، وتحاب هو ووالده يعقوب عليه السلام في الله، ودعته «زليخا» وهي ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، وتصدق على إخوته سراً كما في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]. ولا شك أن قلبه كان يحب مواطن العبادات وأنه شديد الشوق إلى الله.

تتمة:

أورد الديلمي في مسند الفردوس وتبعه ابنه بلا سند عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يظلهم في ظل عرشه ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً: من جرّ إزاره أسفل من كعبيه خيلاء وكبراً، ورجل اغتاب من حيث لا يعلم، ورجل نفق سلعته يزينها بما ليس فيها»**. والله أعلم.

بَيَّضه جامعه الحقير محمد بن عبد الباقي الزرقاني، جعله الله خالصاً

لوجهه، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. انتهت حرفياً، وكان بحمد الله تمام نقلها من الرسالة المخطوطة الليلة الثانية من الشهر الثاني للسنة الثانية بعد الألف والأربعمائة من الهجرة النبوية.

تنبيه:

إن هذه الرسالة المخطوطة التي نقلناها للإمام محمد الزرقاني قد أوردها مؤلفها في شرحه لموطأ الإمام مالك عند كلامه على هذا الحديث ذكرها نظماً ونثراً ولكن في المخطوطة بعض الزيادة في آخرها مما استدركه على السخاوي.

ملاحظة عامة:

إن كل ما وقفت عليه من كلام على هذا الحديث لم يهتم بمعاني الجمل، وبيان ترابط جمله، وكيف وصل من ذكروا فيه إلى تلك المرتبة، بقدر ما اهتموا بمفهوم العدد. فذهبوا مشكورين إلى التتبع والاستقصاء، حتى وصلوا به إلى ما رأيت مع إيراد كل ما عنَّ لهم، ولكن مع الخروج من العهدة في بيان الأسانيد والحكم عليها بالضعف أو الوضع.

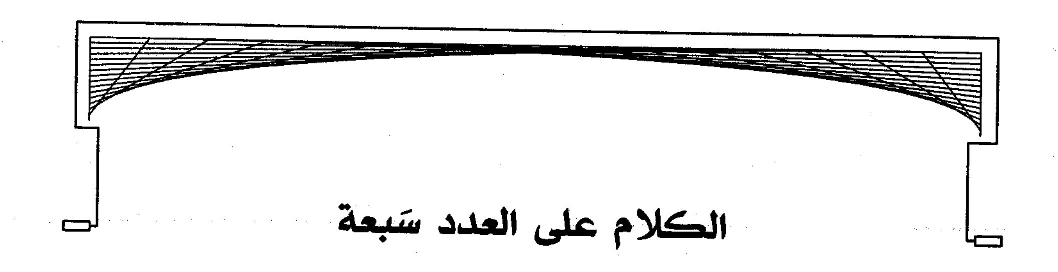
ولذا كان اهتمامي لأول وهلة لمعاني تلك الجمل والتوسع بقدر الطاقة والوسع، لعل في ذلك إيراد المناهج العملية، لإيجاد هذه الأصناف في المجتمع الإسلامي.

وأتمنى على الله أن يكون هذا كالمتمم لعمل السابقين حيث اجتهدوا في عدد الأصناف وبقي الاجتهاد في بيان المعاني.

غير أن تتبع ما أوردوه ـ مع تداخله وضعف موارده ـ لا يتأتى في منهج علمي.

ولذا سَنَقْتَصِرُ على السبعة المتفق عليها سنداً ومتناً، وبالله تعالى التوفيق.

وسنقدم أقوال العلماء على ما نبهنا عليه سابقاً، وحيث يعتبر ما نقل من نظم ونثر في مفهوم العدد (سبعة) وما أوصله العلماء إلى السبعين والتسعين. فإننا نورد هنا اقتصار الحديث الصحيح على العدد سبعة وما لهذا العدد من تعلق في كثير من الأمور الكونية والشرعية والاجتماعية بل والحسابية تتمة لهذا اللفظ.



الكلام على العدد سَبعة

○ أولاً: عند علماء الحساب:

قال صاحب «العذب الفائض في علم الفرائض» ما ملخصه:

إن الأعداد بعد السبعة مكررة المكرر، وأن نهاية العدد حقيقة هو العدد سبعة. كما يقول الجميع بأن المائة تكرار العشرة، والألف تكرار للمائة وهكذا.

وبيان ذلك على حد قولهم: أن كلاً من الأعداد واحَد واثنين وثلاثة أعداد أولية ـ أي ليست مركبة من مكرر بناء على أن الواحد ليس داخلاً في العدد، وأن ابتداء العدّ من اثنين.

ثم تأتي الأربعة مجموع الاثنين، والخمسة مجموع الاثنين والثلاثة، والستة مجموع الثلاثة مرتين، والسبعة مجموع الثلاثة والأربعة.

وما فوق السبعة ففيها تكرار المكرر، وتكرار المكرر لا نهاية له، فالثمانية تكرار الاثنين أربع مرات، ولو قيل: هي مجموع الأربعة مرتين، لقيل: إن الأربعة نفسها تكرار الاثنين، فلا تخرج عن تكرار المكرر.

والتسعة تكرار المكرر الذي هو الثلاثة ثلاث مرات.

والعشرة تكرار الاثنين خمس مرات. قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٢٠٠): «والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه».

وعلى هذا يكون العدد سبعة هو النهاية للعدد، وما بعده يكون تكرار المكرر إلى المئات والآلاف وما فوقها.

ولعل في هذا نوع بيان لذكر هذا العدد في أمور عديدة ونصوص متعددة على ما سيأتي إن شاء الله.

دخول هذا العدد (٧) في عدة مجالات:

وقد تكلم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد (٣/ ٢٠٠) كلاماً لطيفاً نورده ثم نعقب عليه بما لم يذكره، مع بعض التنبيهات على الربط بين كون هذا العدد نهاية العدد، وما ورد فيها من نهاية جنسه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه:

أما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدراً وشرعاً، فخلق الله ﷻ السماوات سبعاً والأرضين سبعاً والأيام سبعاً والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار. وشرعَ الله سبحانه لعباده الطواف بالبيت سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، ورمي الجمار سبعاً سبعاً وتكبيراتُ العيدين سبعاً في الأولى، وقال ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع...**» وإذا صار الغلام سبعاً خُيِّر بين أبويه.

وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبع قرب.

وسخَّر الله الريح على قوم عاد سبع ليال. ودعا النبي ﷺ أن يعينه على قومه بسبع كسبع يوسف، ومثَّل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائة حبة. والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعٌ. والسنين التي زرعوها دَأباً سبعٌ، والبقرات السمانُ العجاف سبع، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً.

فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره. والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه، فإن العدد شفع ووتر، والشفع أول وثان، والوتر كذلك، فهذه أربع مراتب: شفع أول وثان، ووتر أول وثان، ولا تجتمع هذه المراتب من أقل من سبعة. وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة أعني الشفع والوتر، والأوائل والثواني، ونعني بالوتر الأول: الثلاثة، وبالثاني: الخمسة، وبالشفع الأول: الاثنين، وبالثاني: الأربعة.

وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة، ولا سيما في البحارين، وقد قال بقراط: كل شيء من هذا العالم فهو مقدر على سبعة أجزاء.

والنجوم سبعة والأيام سبعة، وأسنان الناس سبعة.. ولا يخفى أنه لم يذكر حديث: «**سبعة يظلهم الله..**» لأن ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما هو من قبيل

الأمثلة لا الاستقصاء وإلا ففي كل باب ذكره، أو أكثرها توجد سبعات أخرى نسوق أهمها مع التنبيه على ما أشرنا من ارتباط بين العدد والمعدود وذلك كالآتي:

أولاً: وأهمها السبع المثاني والتي هي أم الكتاب فهي متناسبة مع السبعة أمِّ العدد.

ثانياً: أنزل القرآن على سبعة أحرف وهو الإمام والمرجع.

ثالثاً: ليلة القدر وهي أم الليالي في سبعة وعشرين أو كما قال ابن عباس: لسبع بقين أو لسبع خلون. وخلق الإنسان على أطوار سبع. وغذاؤه، من سبع: (راجع ابن كثير).

رابعاً: صلاة الجماعة وهي عماد الدين تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة.

خامساً: أعضاء السجود التي تخشع لله تعالى سبع.

سادساً: البدنة عن سبعة، والبدنة هي النهاية في أجسام بهيمة الأنعام.

سابعاً: يبعث في آخر كل سبع أمم نبيٌّ.

ثامناً: أنتم توفون سبعين أمة.

تاسعاً: المهدي يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً. نهاية العدل والأمن.

عاشراً: الكافر يأكل في سبعة أمعاء.

أحد عشر: صيام بعض أيام عوض دم الهدي ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

اثني عشر: المقام عند البكر سبع.

ثلاثة عشر: العقيقة بعد سبع، قالوا: لاستكمال الدورة الزمنية أسبوعاً.

أربعة عشر: العادة عند الالتباس بالحيضة سبعة أيام.

خمسة عشر: «الأخذ من سبعة آبار» وفد موسى عليه السلام (٧٠) رجلاً.

ستة عشر: تسبيع الإناء من ولوغ الكلب.

سبعة عشر: هذا العود الهندي فيه سبعة أشفية.

ثمانية عشر: **«بادروا بالأعمال سبعاً»**.

تسعة عشر: أمرنا ﷺ بسبعٍ ونهانا عن سبع.

عشرين: «اجتنبوا السبع الموبقات».

واحداً وعشرين: الأعمال عند الله سبع.

اثنين وعشرين: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] هذا إيراد ما تيسر على سبيل الإجمال، وإليك إيراد تفصيل الأربعة الأخيرة.

أ ـ **«بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مُفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشرُّ غائبٍ يُنتظر، أو الساعة أدهى وأمرّ».** رواه الترمذي وقال: غريب حسن. تحفة الأحوذي (٦/ ٢٩٥).

ب ـ «وأمرنا بسبع»: حديث البراء: أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير والديباج، والقَسِيّ، والاستبرق. رواه البخاري في كتاب الجنائز.

ج ـ و**«اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات من المؤمنات الغافلات».**

د ـ **«والأعمال عند الله سبع»**: عملان موجبان وعملان بمثلهما وعمل بعشر وعمل بسبعمائة وعمل لا يعلم قدره إلا الله.

أما العملان الموجبان: فالإشراك بالله موجب النار، والإيمان موجب الجنة.

والعملان بمثلهما: من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هَمَّ بسيئة فعملها كتبت سيئة واحدة. وأما العمل بعشر فالحسنة بعشر أمثالها. وأما العمل بسبعمائة فالدرهم في سبيل الله. وأما العمل الذي لا يقدر قدره إلا الله فالصوم.

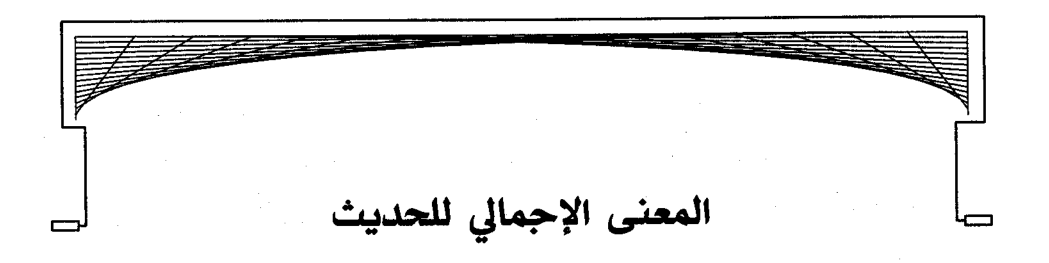
هذا ما أصبنا إيراده وإلا ففي كتب الحديث من ذلك كثير. حتى أنهم ليذكرون أنه ﷺ تزوج عائشة بنت سبع سنين. ولا حاجة لذلك لأنه ليس فيه معنى يتعدى محله.

وبعد إيراد ما يشبه العنوان لهذا الحديث، وقد يقال له: حديث السبعة وبيان مفهوم العدد ومنطوقه.

وخصائص هذا العدد كما تقدم، يلزم تقديم بيان إجمالي لمعنى الحديث قبل الدخول في التفصيل يكون بمثابة التمهيد لتصور الإطار العام لمدلوله والترابط الشامل لموضوعاته.

والتنبيه على المعنى البلاغي والأسلوب النبوي في جمع هذه الأصناف السبعة ومدى ترابط بعضها في بعض وتأثير أولها في تاليها. وبالله تعالى التوفيق.





المعنى الإجمالي للحديث

اشتمل هذا الحديث على سبعة أصناف من المسلمين، وَعَدَهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ وَعْداً كريماً يحقق لهم أغلى وأعظم أمنية كل إنسان، تفضلاً عليه وتكريماً له، حيث يكونون في ظل الله أمناً يوم يفزع الناس، أو في ظل العرش يوم يشتد الحر على الخلائق في الموقف، ويلجمهم العرق، وتدنو الشمس من الرؤوس، والكل يطلب الخلاص، وتهرع الأمم إلى معاشر الأنبياء يستشفعونهم عند الله، والكل يعتذر لشدة الهول، وما يعاينونه من غضب الجبار سبحانه.

وهؤلاء الأصناف ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ حتى يُقضى بين الخلائق لا ينتابهم خوف ولا يعتريهم حزن.

إنها أعلى منزلة بعد الوسيلة لرسول الله ﷺ، وشفاعة الأنبياء في أممهم. مما يبعث في كل قلب مسلم: الإحساس الشديد، وفي نفس كل مؤمن: الحرص على أن يكون ضمن هؤلاء السبعة، سواء من جهة أو جهتين أو أكثر، فلكل مجتهد نصيب، وفضل الله عظيم.

كما أنه انتظم أصنافاً متفاوتة. من قمة المجتمع: إمام عادل. إلى قاعدته: رجلان تحابا في الله، ورجل في نفسه لا يعلم به أحد إلا الله يذكر الله خالياً حتى تفيض عيناه.

ومن مبادئ البلاغة والعادة: أنه لا تورد متعددات إلا مع التجانس، لحسن النسق وجمال التنسيق، كلبنات الجدار، وحبات العقد، وكذلك الكلام والبلاغة النبوية: هي الذروة والقمة، وقد أُعطي ﷺ جوامع الكلم، وكذلك مجامع الحكم.

فكما أن أسلوب الحديث النبوي مُبَرَّأ من تنافر الكلمات، ونشاز العبارات، فكذلك في المعاني.

فإيراد هذه الأصناف السبعة في أسلوب واحد، مع تفاوتها في مواضيعها، وبعد ما بين بعضها البعض، لا بد أن فيها ما يربط بعضها ببعض من معنى شامل، يسوغ نظمها في إيرادها لما تقتضيه البلاغة النبوية العالية، ويستوجبه خلو الحديث النبوي من النَّشَزِ والتنافر.

وقد أعطي في ذلك ما لم يُعْطه أحد، وهو ﷺ أفصح العرب والعجم. مما يدعونا إلى تأملها بعين تتطلع إلى ما يقال له: فائدة الخبر ولازم الفائدة. وهو أبعد غايات البلاغة.

وبالتأمل المذكور نجد الآتي:

أ - نجد معنى مشتركاً بينها كلها، ألا وهو محض الرغبة أو الرهبة في الله، ومن الله.

ب - ونجد كذلك صورة واحدة وهي صورة الإخفاء عن الناس، وإن كان بعضها ظاهراً محسوساً، إلا أنه مرتبط بعنصر الإخفاء حتى لتكاد تكون من باب واحد، وهو مراقبة الله، والخوف منه، وإيداع ودائع السر عند الله.

○ وأما الإمام العدل والعادل:

فعلى أن عدالته لم تتحقق إلا بتقوى الله، وأما عدله فلا يكون إلا خوفاً من الله من مظالم العباد، أو رجاء فيما عند الله من دوام ولايته.

ومعلوم أنه لا سلطان عليه من الرعية، وإنما حقيقة السلطان عليه هو الله. ومن ناحية أخرى لا يطلع على حقيقة عدله إلا الله، فكم يعطي ويمنع ويدني ويقصي ويكرم ويهين، وكم يعمل سراً وخفية. وكل ذلك قد لا يطلع عليه إلا الله سبحانه. وقد يوقع ما قد يستنكر منه فيتعلل أنه للصالح العام: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

○ والشاب الناشئ في عبادة الله:

هو أيضاً لا يرجو ولا يرهب إلا في جانب الله، ثم إنه لا يطلع على حقيقة عبادته وسر إخلاصه أو ريائه إلا الله، ولا يراه دائماً في خلوته وجلوته، وسره وجهره، إلا الله ﷻ.

والرجل المتعلق قلبه بالمساجد: لم يتعلق قلبه بها لدنيا يصيبها، ولا لامرأة يتزوجها، ولا لجاه يحصل عليه. وإنما رغبة ورهبة لله، وفي الله، لما تذوَّق من حلاوة المناجاة لله في بيت الله. ومن السر النبوي هنا: أنه أسند التعلق لقلبه لا لجسمه، ولا لنظره. لأن حلاوة الإيمان محلها القلب، وأقوى مؤثر في ذلك هي الصلاة. كما جاء عنه ﷺ: **«وجعلت قرة عيني في الصلاة»**.

○ وأما المتحابون في الله:

أي لا على مال بينهم، ولا نسب يربطهم، ولا رحم يجمعهم، ولا على مصالح تدفعهم، إنما هو لله، وفي ذات الله. وكذلك لا يعلم حقيقة نصح كل منهما للآخر إلا الله. فإذا اجتمعا كان لله وإذا افترقا كان لله. أي لما يقع من أحدهم ما لا يرضي الله. فارتباطهم حقاً في ذات الله.

○ والمتصدق في الخفاء:

تغلب على شُحِّ نفسه في ماله، وتخطى حب الثناء وطبيعة حب المدح، فغالب في نفسه غريزتين: غريزة الشح الحاضرة في الأنفس، وغريزة حب الثناء المجبولة عليها النفوس. وبذل المال في قانون الحياة لا يكون إلا بمعاوضة إلا في الصدقة، فالمعاوضة فيها معدومة، بل العوض منتظر من الله تعالى. فالإخفاء ركنها الأكبر، والرغبة فيما عند الله الدافع الأول. ويتطلع إلى سبعمائة الضعف التي وعد الله بها وزيادة من فضل الله. فإخفاؤها يُطَهِّرها من شائبة الرياء. وهذا نهاية إرادة وجه الله.

○ وأما الباكي من خشية الله:

فإنه عنصر الإخفاء في نص قوله ﷺ: **«ذكر الله خالياً»** أي خالياً عن الناس وفي خلوة وحده. أو خالياً قلبه من الشواغل فسواء، وكذلك عنصر الخوف. وهل أبكاه إلا خوفه من الله؟ إما من ماضٍ أساء فيه، أو مستقبل لا يعلم ما الله فاعل به. ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المعارج: ٢٧].

وبهذا ظهر جلياً وجود العامل المشترك بين تلك الأصناف التي نجعلها وكأنها من باب واحد. وهنا ارتباط آخر، هو ارتباط هذه الأجناس بعضها

ببعض، وتأثير وتأثر بعضها مع بعض، ولا سيما في النَّسَق الذي أورده البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض رواياته. وقد تقدم لنا أنهم اتفقوا في ترتيب الأصناف الثلاثة الأولى: إمام عادل، شاب نشأ في عبادة الله، رجل قلبه معلق بالمساجد. وإن اختلفوا في التقديم والتأخير في البقية فعلى بعض روايات البخاري: ورجلان تحابَّا في الله، ورجل دعته امرأة، ورجل تصدق، ورجل ذكر الله.

وبتأمل هذا الترتيب، نجد تلك الأصناف بعضها مع بعض، بمثابة المقدمات والنتائج والأسباب ومسبباتها، والآثار ومؤثراتها، مما يشهد حقاً بأن كل متعددات في الحديث النبوي أنها مترابطة المعاني وإن اختلفت المباني.

فالإمام العادل سيقيم مجتمعاً فاضلاً ولا سيما وهو في ذاته عدل أي مستقيم على ما سيأتي إن شاء الله آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مقيماً للصلاة، ومؤتياً الزكاة. ومن الأمر بالمعروف: إقامة محاسن التشريع. ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود. سيكون مجتمعه حقاً فاضلاً تنشأ فيه النشأة، ويشب فيه الشباب على هذا المنهج في عبادة الله.

ومن أخص تلك النشأة ارتياد المساجد، حفاظاً على الصلوات في الجماعة، ومن كان هذا حاله من أول نشأته، لا شك أنه سيتعلق قلبه بالمساجد، ومن تعلق قلبه بالمساجد داوم على ارتيادها، وكان من لوازم ذلك التعارف على المصلين ومحبتهم والشعور بالإخاء معهم. فينتج قطعاً التحاب في الله، لأنهم جميعاً مثله ما جاؤوا إلى المساجد إلا لما جاء هو إليه، وهو ابتغاء وجه الله.

وإلى هنا قوي وجه هذا الارتباط، وظهر مدى هذا التأثير في تكوين أفراد المجتمع. أما من دعته امرأة فتعفف عنها. فإن عفته عنها لم تأت عفواً بل بعد مغالبة الغريزة والفطرة ولا يغلب الغرائز إلا ما كان أقوى منها، ولا يكون إلا الإيمان بالله، والخوف من الله، ولا يورث هذا إلا تلك الصلوات في تلك المساجد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وكذلك إخراج المال في غير معاوضة، وتخطي غريزة الشح، وجبلة حب

الثناء كان من تلك المؤثرات. ومن قوي على مغالبة الغريزة الجنسية فهو على غيرها أقوى. وهل من يستطيع لذلك كله يكون غافلاً عن ذكر الله في السر والعلانية؟ لا وكلا. وهكذا فكل صفة في صنف تؤثر في الصنف الذي يليها.

ملاحظة في هذا الحديث:

يلحظ المتأمل في هذا الحديث من جهة الشمول والاستيعاب: أنه اشتمل أطراف المجتمع الإسلامي من الإمام في عدالته وعدله، والشباب في نشأتهم، والأفراد في ترابطهم، والجنسين في تعففهم، والطبقات الغنية والفقيرة في تقاربهم، وأعمال الدنيا والدين في ذكرهم لله وعدم غفلتهم.

○ الجزاء من جنس العمل:

كما نجد قاعدة «الجزاء من جنس العمل» متحققة في هذا الحديث، بحيث أن الله سبحانه نظر إلى هذه الأصناف وقد جمعت بين الخوف من الله وإخفاء العمل رجاء فيما عند الله.

وأنه سبحانه أمنهم يوم الفزع الأكبر فقابل خوفهم بالأمن. وقد جاء الأثر: «**إني لا أجمع على عبدي خوفين أو أمنين، فمن خافني في الدنيا أمّنته في الآخرة...**» الحديث.

ولما كانوا مخلصين إليه العمل وكانت أعمالهم خفية تولى سبحانه جزاءهم في الآخرة، فآواهم إلى ظله وظل عرشه، كما جاء في الصوم. إذ قال عنه: «**فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَعُ طعامه وشرابه من أجلي...**» وهكذا هؤلاء أقوامٌ أتوا وتركوا ما تركوا من أجله هو سبحانه. جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا معهم. آمين.

وأظن أن في مثل هذا العرض ما يحمل على شدة العناية بهذا الحديث، والحرص على بيان أصنافه، تصويراً للمراد منه، ودعوة للاتصاف به، ومنهجاً لتيسير الوصول إلى ما أمكن من مراتبه.

○ المراد بالسبعة:

قال الزرقاني: «سبعة»: من الأشخاص. ولم يقدر غيره شيئاً. وقال

صاحب رسالة «منيل البش» قوله: «سبعة»: أي من الأشخاص، ليدخل النساء فيما يمكن أن يدخلن فيه شرعاً. فلا يدخلن في الإمامة العظمى ولا في ملازمة المساجد لأن صلاتهن في بيوتهن أفضل. نعم قد يمكن أن يكن ذوات عيال فيعدلن بينهم فيدخلن في الإمامة كغيرها، وحينئذ فالتعبير بالرجال لا مفهوم له كمفهوم العدد بالسبعة.

ونقول: إن التعبير بالرجال لم يرد في نص من نصوص الحديث، فلا حاجة لإيراده ثم رده.

ونقول أيضاً: إنه كما افترض إمكان كونهن ذوات عيال، فيعدلن فيهم، فيصدق عليهن الوصف بالإمامة، أي بالمعنى. فكذلك يقدر لها من حيث المسجد لو افترضنا لها مسجداً في بيتها وتعلق قلبها به حرصاً على أداء الصلوات في أوقاتها. وسيأتي عند هذا القسم.

وفي إرشاد الساري للقسطلاني (٢/ ٣٢): «**سبعة من الناس**».

تنبيه:

بما أنه لم يرد[١] تمييز للعدد ويحتمل تقديره رجالاً أو أشخاصاً وتقديره بالرجال يخرج النساء. وتقديره بالأشخاص قد يشعر بالحصر والتحديد في سبعة بأعيانهم، فإن الأولى عندي تقديره بـ(أصناف) ليشمل العدد من الأفراد في كل واحد من الأقسام السبعة، مما لا يعلم عدده إلا الله. والله تعالى أعلم. إذ سياق الحديث للترغيب في هذه الأعمال وليس للإخبار عن أفراد معينين.

لقد أطلنا في المقدمة، ومفهوم العدد سبعة، توفية للمعنى، وبياناً لمكانة هذا الحديث. وقد وجدنا مكانته عند العلماء، وتوسعهم في مفهوم العدد. ولكن مما لا شك فيه أن السبعة الأولى هي أخص من غيرها. وقال ابن حجر: قوله: «**سبعة**» ظاهره اختصاص المذكورين بالثواب المذكور. قال: ووجهه الكرماني بما محصله: أن الطاعة إما أن تكون بين العبد وبين الرب، أو بينه وبين الخلق.

---

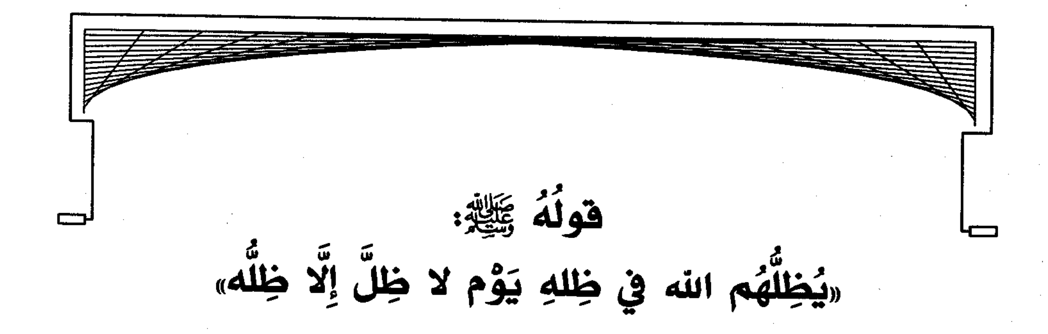
(١) أي لم ترد به رواية. وكذلك لم يذكره أئمة الحديث، كابن عبد البر وابن حجر مثلاً.

فالأولى: باللسان وهو الذكر، أو بالقلب وهو المعلق بالمسجد، أو بالبدن وهو الناشئ في العبادة.

والثاني: عام وهو العادل، أو خاص بالقلب وهو التحاب، أو بالمال وهو الصدقة، أو بالبدن وهو العفة.

وقلنا: أخص لأنهم بمثابة الأصل لكل ما نصوا عليه، سواء بأسانيد صحيحة أو ضعيفة لأنها كلها داخلة في إطار إخفاء العمل، أو إخلاصه لله، رغبة أو رهبة من الله. وكما وجهه الكرماني: إما ذكر باللسان، أو متعلق بالقلب، أو بالمال، أو بالبدن، أو عام في العدالة والعدل.





قولُهُ ﷺ:
«يُظِلُّهُم الله في ظِلهِ يَوْم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه»

○ الروايات في هذه الجملة:

تقدم في مبحث ألفاظ الحديث أن كل رواياته بالنص المذكور أعلاه إلا رواية النسائي، وبعض روايات البخاري في بعض المواطن من صحيحه، ففيها زيادة كلمة «**يوم القيامة**» هكذا: «**سبعة يظلهم الله ﷻ يوم القيامة**».

وكذا كلمة «**العرش**» إنما جاءت في بعض روايات مالك فيما ساقه ابن عبد البر في التمهيد كما تقدم.

وعلى هذه الألفاظ فالكلام على «**يظلهم الله في ظله**» ما هو ظله؟ وكيف يظلهم؟

ثم على «**يظلهم في ظل العرش**» أو «**تحت العرش**». وهل هناك فرق بين الروايتين أم لا؟ وهل يجمع بينهما أو ترجح إحداهما؟

أ ـ أولاً في ظله:

قال ابن حجر[1]: قوله: «**في ظله**». قال عياض: إضافة الظل إلى الله إضافة مُلْك، وكل ظل فهو ملكه، كذا قال. وكان حقه أن يقول: إضافة تشريف، ليتحصل امتياز هذا على غيره. كما قيل للكعبة: بيت الله، مع أن المساجد كلها ملكه.

وقيل: المراد بظله: كرامته وحمايته، كما يقال: فلان في ظل الملك، وهو قول عيسى بن دينار، وقواه عياض.

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٤٤).

وقيل: المراد ظل عرشه. ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه...**» فذكر الحديث.

وإذا كان المراد ظل العرش استلزم ما ذكر من كونهم في كنف الله وكرامته من غير عكس فهو أرجح وبه جزم القرطبي.

ويؤيده أيضاً تقييد ذلك بيوم القيامة. كما صرح به ابن المبارك في روايته عن عبيد الله بن عمر وهو عند المصنف في كتاب الحدود.

وبهذا يندفع قول من قال: المراد ظل طوبى، أو ظل الجنة، لأن ظلهما إنما يحصل لهم بعد الاستقرار في الجنة. ثم إن ذلك مشترك لجميع من يدخلها، والسياق يدل على امتياز أصحاب الخصال المذكورة، فيرجح أن المراد ظل العرش.

وروى الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «**أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عدل**».

وفي الموطن الثاني في الصحيح[1] قال على باب: «**البكاء من خشية الله**» ما نصه: وظل كل شيء بحسبه، ويطلق عليه أيضاً بمعنى النعيم، ومنه ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ وبمعنى الجانب، ومنه «**يسير الراكب في ظلها مائة عام**» وبمعنى الستر والكنف والخاصة. منه: «أنا في ظلك» وبمعنى العز: «أسبغ الله ظلك».

وأقول: إن المعنى الأول والثاني ظاهره الحقيقة. لأن الأول في وصف الجنة وهي ذات ظل حقيقة. والثاني وصف لسدرة المنتهى وهي كذلك. إلا إذا قيل: لا ظل ولا شمس بعد الدنيا. فيكون المراد بيان الصورة على ما نفعل في الدنيا.

أما المعنى الثالث والرابع: فهو استعمال صحيح. كما في حديث رمضان: «**هذا شهر الصيام قد أظلكم**» أي اقترب منكم. قاله ﷺ في نهاية شعبان يحثهم على التهيؤ لاستقباله.

وقال القسطلاني: «**يظلهم الله في ظله**» أي عرشه. «**يوم لا ظل**» في القيامة ودنو الشمس من الخلق؛ (إلا ظله).

---

(١) (٣١٢/١١).

وعند ابن عبد البر قال: والظل في هذا الحديث يراد به الرحمة والله أعلم.

ومن رحمة الله: الجنة. قال ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ وقال: ﴿فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ وروي عن النبي ﷺ من حديث المقداد بن الأسود أنه قال: «**تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم على قدر ميل أو كمقدار ميل. قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم من يكون فيه إلى كعبيه، ومنهم من يكون فيه إلى ركبتيه، ومنهم من يكون فيه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً**» وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. وساق في آخره قول الراوي: والله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذي يكتحل به؟

ثم أجمل المعنى بقوله: ومن كان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله نجا من هول ذلك الموقف إن شاء الله، والله أعلم، جعلنا الله منهم برحمته آمين[1].

وقال النووي في شرح مسلم (٧/ ١٢٠): قال القاضي: إضافة الظل إلى الله تعالى إضافة ملك وكل ظل فهو لله وملكه وخلقه وسلطانه. والمراد هنا ظل العرش كما جاء في حديث آخر مبيناً. والمراد يوم القيامة إذا قام الناس لرب العالمين ودنت منهم الشمس واشتد عليهم حرها. وأخذهم العرق ولا ظل هناك لشيء إلا العرش. وقد يراد به هنا ظل الجنة وهو نعيمها والكون فيها كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال القاضي: وقال ابن دينار: المراد بالظل هنا الكرامة، والكنف، والكف عن المكاره في ذلك الموقف. قال: وليس المراد ظل الشمس. قال القاضي: وما قاله معلوم في اللسان، يقال: فلان في ظل فلان، أي في كنفه وحمايته. قال: وهذا أولى الأقوال: وتكون إضافته إلى العرش لأنه مكان التقريب والكرامة، وإلا فالشمس وسائر العالم تحت العرش وفي ظله.

وقال الإمام أبو بكر بن العربي: في عارضته على الترمذي (٩/ ٢٣٧) ما نصه: حديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله**» الظل الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان، وقيل: هو مخصوص بما كان منه إلى زوال

---

(١) التمهيد (٢/ ٢٨٢).

الشمس، أي الغداة، وما كان بعده أي العشي، فهو الفيء، وهو نقيض الضحى. ويجمع على ظلال وظلول وأظلال. وفي الحديث: «**الجنة تحت ظلال السيوف**» وهو كناية عن الدنو من الضراب في الجهاد حتى يعلوه السيف ويصير ظله عليه، وقد روي: «**سبعة في ظل العرش**» أي في ظل رحمته، وفي حديث آخر: «**السلطان ظل الله في الأرض**»؛ لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظل أذى حر الشمس.

وقد يكنى بالظل عن الكنف والناحية، ومنه: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام**»؛ أي في ذراها وناحيتها. وفي شعر العباس يمدح النبي ﷺ:

من قبلها طبْت في الظِّلال وفي مُستودعٍ حيثُ يُخْصَفُ الورقُ

أراد ظلال الجنة. أي كنت طيباً في صلب آدم حيث كان في الجنة. وقوله: من قبلها. أي من قبل نزولك إلى الدنيا وإلى الأرض. فكنَّى عنها، ولم يتقدم لها ذكر، لبيان المعنى ووضوحه.

* * *

○ التعليق على هذه الجملة:

أولاً: معنى الإظلال. ثانياً: وقته. ثالثاً: مكانه. وأخيراً تحديد المراد في هذا الحديث.

أما معنى الإظلال: فمما تقدم من قول أئمة الحديث، تجده دائراً بين الحقيقة والمجاز.

أ ـ فعلى الحقيقة:

يكون الإظلال في ظل العرش وهذا من حيث الصناعة تقييد للمطلق ولا يتعارض مع الروايات الأخرى، يظلهم الله في ظله إذ ظل العرش لله تعالى وليس لغيره سبحانه. ولا يملك أحد أن يظل أحداً في ظل العرش إلا الله سبحانه وحده، فهو ظل مضاف إلى العرش، والعرش مضاف إلى الله، فصدق عليه أنه لله، سواء على ما قال القاضي عياض، إضافة ملك أو على ما وجهه

ابن حجر: إضافة تشريف. أو من باب بيان المجمل إذ في ظل الله مجمل وإضافته إلى العرش بيان له. ويكون ذلك جمعاً بين الروايتين وإعمالاً لهما معاً.

أما اعتبار الإظلال في الجنة أو طوبى فإن هذا لا ذكر له في الحديث، وهو من باب تأويل اللفظ، لا من باب النص عليه، وإن الكل لله، ويصدق عليه جملة أنه ظل لله، أي مملوك له سبحانه إلا أنه تأويل مردود بما تقدم من أن هذا الإظلال يكون بعد دخول الجنة. فإذا دخل الناس الجنة كان هذا الإظلال عامّاً لجميع أهل الجنة. والحال أن الحديث سيق لتخصيص هؤلاء السبعة بظل خاص، فلم يبق صالحاً للحمل على الحقيقة إلا ظل العرش كما تقدم.

ب ـ أما على مجازه وكناياته:

فكل ما قيل من المعاني محتمل إلا أنه أعم من المراد، إذ الكنف والعز والسلطان لله تعالى شامل لأوليائه وأصفيائه وعباده الصالحين في الدنيا قبل الآخرة.

بل في الحديث ما يشير إلى القيد بغير الدنيا بأمرين:

١ ـ قوله: يوم لا ظل إلا ظله. والناس في الدنيا قد يكون بعضهم في ظل بعض، وكما في حديث: «**السلطان ظل الله في الأرض**» فهذا ظل للسلطان وإن كان مرجعه إلى الله، إلا أنه مضاف إلى عدل السلطان.

٢ ـ وقوله في بعض الروايات الصحيحة: «**يوم القيامة**» إلا أنه في ذلك اليوم أظهر وأشد فعالية وأعظم منة وتفضلاً حيث تمس الحاجة إليه، وليس هناك ما يغني عنه، إذ لا ملجأ ولا منجى منه سبحانه إلا إليه.

فإذا لم يحمل على حقيقته بظل العرش، فلا سبيل إلى حمله على حقيقته بالنسبة إلى ذات الله. إذ محال على الله أن يكون له ظل كما نتصور في المخلوق حينما يكون حاجزاً للشمس فينشأ له ظل.

وليس هذا من باب الصفات التي تثبت على مراد الله به، إذ لم يرد لا في آيات الصفات ولا أحاديثها وصف الله وصفاً مستقلاً بذلك. وهذا ما يظهر والله تعالى أعلم.

تنبيه:

بل إن حقيقة الإظلال بالعرش لا نستطيع تكييفها كتكييفنا للظل في الدنيا، لأن الشمس من كواكب السماء الدنيا أو حتى على ما قيل في السماء الرابعة، فأين هي من العرش حتى تعلوه؟ فيكون هو الحاجز دونها ويستظلون في ظله.

إنه لولا حديث: «**تدنو الشمس من الخلائق قدر ميل**» المتقدم ذكره لما استطعنا تصور وجود شمس في ذلك اليوم لأن الله تعالى يبدل العالم كله كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وكقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٧ ـ ٦٩]؛ فأي نور هو؟

وقوله في حق الشمس خاصة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ [التكوير: ١ ـ ١١].

تغيير شامل للعالم كله.

الأرض وما عليها من جبال وبحار ودواب.

والسماء وما فيها من الشمس والنجوم.

فمتى يكون ذلك التكوير؟ أهو عند تسيير الجبال وانكدار النجوم؟ قال الفخر الرازي: واعلم أن هذه العلامات الست يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا، ويمكن وقوعها أيضاً بعد قيام القيامة، وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين.

وكذلك قال القرطبي بعد روايات عديدة.

أما ابن جرير فقد أورد كل الأقوال ثم جاء بأثر عن أبي العالية في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ قال: سيأتي أولها والناس ينظرون. وسيأتي آخرها إذا النفوس زوجت.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار رواية أبي العالية أن تغيرات الشمس تبدأ والناس ينظرون، وتنتهي إذا النفوس زوجت. ولاحظنا حديث: «دنو الشمس من الرؤوس في الموقف» فإنه يمكن أن يقال: لا مانع من وجود الشمس حالة الموقف ودنوها من الرؤوس، ثم بعد الانتهاء من الموقف تكور الشمس وتلقى: سواء في البحر فتسجر بها، أو في النار، أو يطفأ نورها على الروايات التي جاءت في هذا كله، ومصير العلم حقيقة لله تعالى.

ومهما يكن من شيء فليس هناك جواب حقيقي لبيان الحقيقة، وإن حقيقة الأمر مردها إلى الله سبحانه.

إلا أن المعنى العام كما قال ابن عبد البر: ومن كان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، نجا من هول ذلك الموقف إن شاء الله، والله أعلم، جعلنا الله منهم برحمته آمين.

لأننا نعلم يقيناً أن المعنى العام في جملته: هو التنويه بفضل هذه الصفات، وفضيلة هذه الأصناف، وتفضل الله تعالى عليهم، وكرامته إياهم، وتخصيصهم دون غيرهم.

وقريب منه في عمومه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥]، حيث لا يعلم أحد كنه ذلك إلا الله. جعلنا الله تعالى منهم جميعاً بفضله وتفضله، ورحمته وإحسانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

○ شمول هذه الأصناف السبعة لجميع تلك الأصناف:

وبعد هذه المقدمة نأتي إلى الأصناف السبعة المتفق عليها، إذ هي محل القصد من هذا العرض، وبقية السبعات المنوه عنها يطول إيرادها، ولأن في هذه السبعة النماذج الكافية، بل قد يمكن إدخال بقية تلك الأصناف ضمنها وذلك للآتي:

أولاً: اشتملت تلك الأصناف السبعة طبقات المجتمع من القمة إلى القاعدة: إمام عادل، رجلان تحابا في الله.

ثانياً: قَسَّم العلماء أعمال الخير إلى قسمين: بدنية ومالية:

الأول: كالصلاة والصيام والذكر.

والثاني: الزكاة والصدقة... وينشأ عنهما قسم ثالث جامع بينهما: الحج والجهاد.

وهذه الأصناف السبعة جمعت القسمين: البدنية، والمالية على أكمل وجه.

ثالثاً: قسم الأصوليون الأحكام التكليفية إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ ضروريات، ب ـ حاجيات، جـ ـ تتميمات:

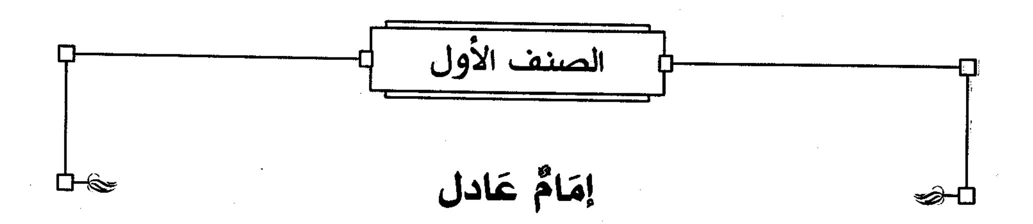
فالضروريات: الحفاظ على الجواهر الست.

والحاجيات: عقود المعاملات.

والتتميمات: الحث على مكارم الأخلاق.

وهذا الحديث في نسق هؤلاء السبعة قد شملها ضمناً والتزاماً بدلالة الإيماء والتنبيه فأغنى بيانه عن غيره، ولله الحمد والمنة.





الصنف الأول

إمَامٌ عَادل

○ **الألفاظ الواردة فيه:**

١ ـ إمام عادل: بتنكير الطرفين ووزن الفاعل في عادل. رواية مالك وإحدى روايات البخاري وعند الترمذي والنسائي.

٢ ـ الإمام العادل: بتعريف الطرفين: وهي لمسلم وإحدى روايات البخاري.

٣ ـ إمام عدل: بتنكير إمام وعدل على وزن فعل نعت بالمصدر. إحدى روايات البخاري.

٤ ـ إمام مقسط في رعيته: من روايات السيوطي في الجامع الصغير وعزاها لابن عساكر.

قال ابن عبد البر: إمام عدل: هو المختار عند أهل اللغة يقال: رجل عدل، ورجال عدل، وامرأة عدل، وكذلك: رضاً سواء.

ويجوز عادل على اسم الفاعل، يقال: عدل فهو عادل، كما يقال: ضرب فهو ضارب. إلا أن للعادل في اللغة معانٍ مختلفة منها:

١ ـ العدول عن الحق، ومنها الإشراك بالله ﷻ وهذان المعنيان ليسا من هذا الحديث في شيء، ثم استشهد على إطلاق عادل على فاعل بقول الشاعر:

وَمَنْ كانَ في إخوانِه غيرَ عادلٍ فما أحدٌ في العدلِ منه بطَامِعِ

وقال ابن حجر: ورواية عدل أبلغ، لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً، أي منه النعت بالمصدر، كأن العدل تجسم وتمثل في شخصه.

ويوضح ما قاله ما جاء في وصف النبي ﷺ، فجاء تارة: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وتارة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. ففي حالة

اختصاص الوصف بالمؤمنين وُصف بصفة: ﴿رَّحِيمٌ﴾. وفي حالة عمومه للعالمين وُصف: (بالرحمة) وهي المصدر.

وكل من ابن عبد البر وابن حجر يريان أن الأصل لـ(عدل) و(عادل) واحد وهو العدالة ضد الظلم.

والذي يظهر لي أن بينهما فرقاً في الأصل وأن بينهما عموماً وخصوصاً، فالعادل من العدل الذي هو ضد الظلم. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. واسم الفاعل منه عادل على وزن فاعل. والعدل من العدالة التي هي ضد الفسق. كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

والأول مبحثه في الحقوق والأحكام، وقد يكون الحاكم عادلاً وهو كافر. وعليه المثل من قول عمر ﷺ لعامله على مصر: نحن أحق بالعدل من كسرى. وقوله ﷺ في حق النجاشي: «**فإن فيها ملكاً عادلاً**» وكان ذلك قبل أن يسلم فوصفه ﷺ بأنه ملك عادل. وقال: «**لا يظلم أحد بجواره**».

وعلى هذا فوصف الإمام بالعدل في هذا الحديث أخص لأن العادل قد يكون مع الكفر سياسة للملك. أما العدل فلا يكون إلا مع الإسلام. فكل عدل عادل وليس كل عادل عدل.

○ معنى العدل في علم الأخلاق:

قال ابن مسكويه في كتاب الأخلاق ما ملخصه: إن العدالة هي مجتمع الأخلاق الفاضلة من صدق الحديث وكرم النفس والشجاعة والعلم والأدب وفعل المأمور وترك المحظور... إلخ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خصائص الإمام العادل، أي العدل في نفسه، العادل في حكمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

جاء هذا الوصف لهم بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [الحج: ٤٠ ـ ٤١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وهؤلاء هم الأمناء المؤدون للأمانة. سواء أمانة في الحكم أو أمانة الخلق في الحق كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨]. فهم عدول في أنفسهم عادلون في أحكامهم.

○ المراد بالإمام العادل:

والمراد بالإمام العادل في هذا الحديث، قال ابن حجر: هو صاحب الولاية العظمى. ويلتحق به كل من ولي شيئاً من أمور المسلمين فعدل فيه. ويفسر قوله هذا ويؤيده: ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنه عند مسلم مرفوعاً: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»**.

وأحسن ما يفسر به معنى الإمام العادل في هذا الحديث، والذي جمع الأمرين العدالة في نفسه، والعدل في حكمه. هو الذي يتبع أمر الله فيضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط. ولا تأخذه في الله لومة لائم. كما رسم منهجه الصدّيق رضي الله عنه: والله إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه.

وقال ابن عبد البر: ويدخل تحت قوله عليه السلام: **«إمام عادل»** بالمعنى دون اللفظ كل من لزمه الحكم بين اثنين. واستدل بحديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**.

بهذا يتبين لنا أن هناك فرقاً بين العدل والعادل وبالتالي بين إمام عدل وإمام عادل.

○ معنى العدالة لغة:

وحقيقة معنى العدالة التي بمعنى الإنصاف يوضحها فقه اللغة، إذ أن أسماء المعنويات كلها مأخوذة من أسماء المحسوسات كما قالوا في الأذان والإذن والاستئذان والمأذون والآذن: إن كلها يرجع إلى اسم حاسة (الأذن).

فكذلك قالوا في العدل والعدالة والمعادلة والعادل كلها مأخوذة من اسم (العِدلة) بكسر العين التي هي إحدى شقي حمل البعير والعدالة هي تعادل شقي حمل البعير وتوازنهما. فإذا اختل توازنهما وتفاوت ثقلهما مال الحمل إلى جهة الثقل.

ومنه الميل والحيف: ضد العدل والإنصاف.

وعليه فالعادل هو الذي عدل في حكمه وسوّى بين طرفي القضية. كصاحب البعير في تسويته بين شقي حمله. فهو وصف عام لكل من عادل بين كل متساويين وهو الذي يضع الأمور في مواضعها أيًّا كان موضوعها وأيًّا كان طرفاها.

والإمام العادل هو أحد الأفراد الذين قاموا بالعدل في أحكامهم وتصرفاتهم.

ولكن وإن كان الإمام العادل هو أحد الأفراد الذين يقومون بالعدل في أحكامهم إلا أنه خُص بالنص هو بالذات لأهميته، وخطر منصبه، وعموم صلاحياته، وسعة نطاق إمكانياته للآتي:

أولاً: لأن عدله يشمل كل الرعية ولا يختص بشخص ولا أسرة ولا قبيلة. ولعموم وشمول عدله سواء في الحكم والعطاء والحفاظ والعناية بالأمة كلها، ومراعاة مصالح العامة والخاصة.

ثانياً: بعدله سيرد المظالم، ويمنع وقوع الظلم، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ويكون الناس عنده سواء كما قال الصدّيق ﷺ: إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له... إلى آخره.

وكما جاء في المثل الأعلى منه ﷺ في قضية المرأة المخزومية التي سرقت وشفع فيها أسامة بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ وابن حبه فقال ﷺ: «**أتشفع في**

حد من حدود الله؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».
جرد ﷺ من نفسه شخصاً آخر، ولم يقل: فاطمة ابنتي، حتى لا تظهر مخايل العاطفة في أحكام الله.

وفي غزوة بدر لما قام ﷺ بين الصفوف يعدلها بقضيب في يده قال سواد بن غزية: أوجعتني يا رسول الله فقال: **«وماذا تريد؟»** قال: أقدني من نفسك. فما كان منه ﷺ إلا أن كشف عن بطنه وناوله القضيب وقال اقتد لنفسك فأهوى على بطنه ﷺ يقبلها، فقال له: **«ما حملك على هذا؟»** قال: نحن في هذا الموقف بين موت وحياة، فأحببت أن يكون آخر عهد من الدنيا ملامسة جسدك الشريف.

يهمنا هذا العمل الذي هو في منتهى العدالة بين رئيس ومرؤوس إن صح التعبير. وعلي رضي الله عنه مع خصمه اليهودي عند القاضي شريح في الدرع.

ثالثاً: عدل الإمام لن يكون إلا ابتغاء وجه الله تعالى طلباً لثوابه، وخوفاً من عقابه.

لأنه لا سلطة ولا سلطان لأحد عليه إلا لله سبحانه. فهو لا يحابي أحداً يرجوه، ولا يداري أحداً يخشاه. فهو يأخذ ويعطي لله وفي الله.

رابعاً: سيقوم بعدله بتنفيذ أحكام الله في خلق الله، ويُحَكِّم كتاب الله كما شرع الله. وهذا هو مناط عدالة الإمام.

ومجمع القول في ذلك أن يقال: عدالة الإمام هي تنفيذ عدالة السماء في الأرض وذلك بتطبيق كتاب الله على عباد الله. وفي الحديث: **«صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: العلماء، والأمراء»**. فهو يشهد لهذا المعنى وإن كان سنده ضعيفاً.

وقد جاء عن الإمام أحمد رحمه الله بيان هذا المعنى بقوله: لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان، لأن بصلاحه صلاح الأمة.

○ النصوص في وجوب العدالة:

ولأهمية عدالة السلطان جاءت النصوص عامة وخاصة:

فمن العامة قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

ويلاحظ اقتران الأمر بأداء الأمانة إلى أهلها مع الحكم بين الناس بالعدل إشعاراً بأن العدالة في الحكم أمانة يجب أداؤها. والتذييل للآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ إشعار بأن الله سبحانه هو الرقيب على الحكام، سميعاً لأقوالهم، بصيراً بأفعالهم.

وعليه كانت الخلافة في الأرض لأداء هذه الأمانة ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦]. والحكم بين الناس بالحق هو العدل في الحكم. ولذا كان من لم يعدل في الحكم ظالماً، ومن لم يحكم بكتاب الله ظالم. كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

تنبيه:

جاء التعقيب على كل من لم يحكم بما أنزل الله بثلاث صفات على التوالي: الكافرون. الظالمون. الفاسقون. وبعض العلماء يرى أن الألفاظ الثلاثة متساوية الدلالة تجتمع في الكفر.

ولكن بتأمل سياق الآيات الثلاث نجد فرقاً، ونجد مدلول الظُّلم هنا مغايراً لمدلولي الكفر والفسق.

فالآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤].

فالحكم عليهم بالكفر هنا جاء عقب عموم إنزال التوراة هدى ونوراً، وعقب عموم ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ . . . بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾. فهي بمثابة الإيمان والتصديق والعمل بالتوراة عموماً. ومعلوم أن من لم يأخذ بأحكام التوراة عموماً يكون كافراً.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. فيكون قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي بعموم التوراة دون تفصيل في جزئيات.

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

فهنا فعلاً يتحقق معنى الظلم وهو المنافي للعدالة التي هي المساواة والإنصاف، إن الغرض هنا المقاصّة كما هو المنصوص عليه ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ والقصاص من آلة القص وهو المقص أنه إذا قص القماش أو الورقة فإن جانبي المقصوص يكونان متساويين ومتعادلين إن استقام المقص أو انحرف فإنه يكون بالسوية في طرفي المقصوص اعتدالاً وانحناء.

وهكذا القصاص في الجروح يلزم التساوي. وبالتالي القصاص في الاعتداء: النفس بالنفس لتساوي نفوس البشر، والعين بالعين لتساوي أعضاء البشر أيضاً. وهكذا جميع الأعضاء لا يساوي العضو إلا عضو مثله، وإلا كان الظلم.

فلو أن إنساناً قتل إنساناً، فقُطع القاتل وسُملت عينه، فإنه يبقى حياً فلا يتساوى مع من مات. ولو أن إنساناً قطع يد إنسان ففقئت عين القاطع، لكان ظلماً، لعدم المعادلة بينهما، وهكذا.

وعليه فإن مجيء قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بعد الأمر بالمساواة في العقوبة والقصاص في الجروح يدل بالمطابقة على معنى العدالة المطلوبة في التشريع. وبالتالي تختلف الدلالة هنا عن الدلالة في الآية قبلها.

وهكذا الحال في الآية الثالثة: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]. وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي كما أنزل إليهم الإنجيل. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا

أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. فالقضية هنا قضية شرعة كاملة ومنهاجاً تاماً.

بخلاف ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾ أي فيما شرع لهم، فهي جزئية من عموم الشرعة، وجزء من عموم المنهاج، ولا تتحقق العدالة في تلك الجزئية إلا بالعدالة والمساواة والمقاصة ومن لم يحكم بذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. والله تعالى أعلم.

○ الآثار المترتبة على عدل الإمام:

لا يستطيع قلم أن يصور مدى الآثار المترتبة على عدل السلطان، ولا يستطيع أن يعبر عن ذلك. ويكفي في هذا القول بأنه القائم بأمر الله، والمؤدي حق الاستخلاف في أرض الله.

أما آثار رحمة الله المترتبة على ذلك فكثيرة نشير إلى أهمها من نصوص السنة المطهرة.

١ - فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وَحَدٌّ يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحاً»**. ذكره المنذري بإسناد حسن.

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا هريرة عَدْلُ ساعة، أفضل من عبادة ستين سنة: قيام ليلها وصيام نهارها؛ ويا أبا هريرة جَوْرُ ساعة في حكم، أشد وأعظم عند الله** عز وجل **من معاصي ستين سنة»**.

٣ - وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده فإن عدل كان له الأجر، وكان - يعني على الرعية - الشكر. وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر. وإذا جارت الولاة قحطت السماء. وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي. وإذ ظهر الزنى ظهر الفقر والمسكنة. وإذا خفرت الذمة أديل الكفار»** أو كلمة نحوها. رواه ابن ماجه.

وبالتأمل في هذا الحديث، نجد كل تلك الويلات: من قحط السماء، ومنع الزكاة، وظهور الزنا، وخفر الذمم. من نتائج ظلم السلطان. لأنه لو كان

عادلاً ما مُنِعَتْ زكاة ولأخَذها عنوة، ولا ظهر الزنا ولأقام الحدود، وطهر المجتمع. ولما خفر أحد بذمة وإلا لأخذ على أيديهم، وهكذا.

○ أجر الإمام العادل عند الله:

من أهم ما جاء في أجر السلطان العادل هذا الحديث الذي نحن بصدده، حيث صُدِّر به الإمام العادل، ينعم بظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»**. رواه مسلم والنسائي.

وحديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»**. ذكرها كلها المنذري.

تلك العدالة في نظر الإسلام ولو مع غير المسلمين. كما في قصة ابن رواحة لما ذهب ليخرص على أهل خيبر، فجمع اليهود له مالاً يرشونه به ليخفف عليهم. فقال لهم: يا إخوة القردة والخنازير، والله لقد جئتكم من أحب الناس إليّ ولأنتم أبغض الناس عليّ، والله لا يحملني ذلك على أن أحيف. وأقسم وقال: إما أن تأخذوا وتلتزموا لي وإما أن تكفوا أيديكم وأوفي إليكم.

فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض. أي بالعدالة وعدم الحَيْفِ. وقصة علي مع اليهودي في درعه عند القاضي شريح.

وجاء النص الصريح في ذلك في قوله تعالى في أول سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ . . .﴾ [المائدة: ١ ـ ٢].

والآية في نفس السياق من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة: ٨].

والأمر العام في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥].

هذا مجمل معنى العدل، وأثر إقامة الحكم بالعدل في الأمة. وما أحوج العالم كله إليها في كل زمان ومكان.

أما معنى العدالة التي هي صفة الإنسان: العدل في ذاته المعني في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، فهي نتيجة تَعَادل القوى الغريزية في الإنسان، وبيانها كالآتي:

١ ـ القوة الفكرية: والتي بها التمييز والنظر في حقائق الأمور.

٢ ـ قوة التملك: والتي يكون منها الغضب والنجدة والإقدام والرغبة في التسلط والترفع ونيل المكرمات.

٣ ـ القوة التي تكون عنها الشهوة وطلب الغذاء والملاذ وأنواع اللذات الحسية، وهذه القوى الثلاث متباينة فإذا قوي بعضها على بعض فإنه يضر بالآخر وينحرف سلوك الشخص.

وقواها يكون بحسب المزاج، أو العادة، أو التأديب والتهذيب.

تفصيل ذلك:

أولاً: القوة الأولى: وهي الناطقة. وتسمى المَلَكَةُ وآلتها (الدماغ).

ثانياً: القوة الثانية: وهي البهيمية وآلتها (الكبد).

ثالثاً: القوة الثالثة: وهي السبعية وآلتها (القلب).

وعن هذه القوى الثلاث تنشأ الفضائل أو توجد الرذائل حسب قوتها أو ضعفها بعضها على بعض وتفصيل ذلك كالآتي:

أ ـ فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها. وكان

ميلها إلى المعارف الصحيحة دون الخيالات، حدثت عندها فضيلة العلم وتبعتها الحكمة.

ب ـ ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأبية عليها فيما تقسطه لها، ولا منهمكة في اتباع هواها، حدثت عنها فضيلة العفة، وتبعتها فضيلة السخاء.

ج ـ ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها فلا تهيج في غير حينها ولا تحمى أكثر مما ينبغي لها حدثت عنها فضيلة الحلم وتبعتها فضيلة الشجاعة.

ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بعضها إلى بعض فضيلة هي كمالها وتمامها وهي فضيلة (العدالة).

○ أجناس الفضائل:

ولذلك أجمع العلماء على أن أجناس الفضائل أربع هي:

١ ـ الحكمة، ٢ ـ العفة، ٣ ـ السخاء، ٤ ـ العدالة.

○ آثار تلك الفضائل على الإنسان:

أ ـ أما الحكمة: فبها تعرف الموجودات والمعقولات وأيُّها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل، أي كما قيل: بها يعرف كيف يوضع الشيء في موضعه.

ب ـ وأما العفة: فهي فضيلة الحس الشهواني، وبها يكون صرف شهواته حسب الرأي الصحيح، ولا يكون متعبداً لشهواته بل يكون حراً. قلت: ويشهد لهذا من السنة المطهرة قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، والحديث: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار...**» إلخ.

ج ـ وأما الشجاعة: فهي فضيلة النفس الغضبية، وبها لا يخاف من الأمور المفزعة إذا كان فعلها جميلاً، والصبر عليها محموداً.

د ـ وأما العدالة: فهي فضيلة للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل

الثلاث وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض. أي عدم تغلب واحدة على غيرها.

وعندئذ يكون الإنسان دائماً يختار الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله. أي وللغير.

من هنا نعلم مدلول رواية: إمام عدل، أي من العدالة والصفة الثابتة للنفس، ونعلم أنها إذا تحققت في إنسان ستسوقه إلى إقامة العدل حتماً، ويكون عدله سجية وأمانة، لا رغبة ولا رهبة من أحد، وذلك لإفاضة العدالة عليه. وهذا في المدلول كما قيل في صفتي الرحمن الرحيم: من أن الرحمة صفة ذات والرحيم صفة فعل يتعدى أثرها إلى الخلق، فكذلك العدالة صفة نفس، والعدل صفة فعل.

فمن الأول: يقال: رجل عدل، ومن الثاني: يقال: رجل عادل.

○ بيان ما يتفرع عن تلك الصفات:

أولاً: ما يتفرع عن الحكمة:

يتفرع عنها الذكاء، والذُّكر بضم الذال، يعنون الفطنة وعدم النسيان، التعقل وسرعة الفهم وقوته وصفاء الذهن، وسهولة التعلم.

ثانياً: ما يتفرع عن العفة:

يتفرع عنها: الحياء، والدعة، والصبر، والسخاء، والحرية، والقناعة، والدماثة، والانتظام، وحسن الهدى، والمسالمة، والوقار، والورع.

ثالثاً: عن الشجاعة:

يتفرع عنها: كرم النفس، النجدة، عظم الهمة، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة، احتمال الكد، (والصبر هنا على المكاره. وفي العفة عن الشهوات).

رابعاً: عن العدالة:

يتفرع عنها: الصداقة، والألفة، وصلة الرحم، والمكافأة، وحسن الشركة، وحسن القضاء، والتودد، والعبادة، وترك الحقد، ومكافأة الشر بالخير،

واستعمال اللطف، وركوب المروءة في جميع الأحوال، وترك المعاداة، وترك النقل عن غير العدول، وترك الركون إلى قول السفلة، وترك الشره في الكسب الحلال، وترك ركوب الدناءة في الكسب لأجل العيال، والرجوع إلى الله وإلى عهده وميثاقه عند كل قول يتلفظ به، أو لحظٍ يلحظه، أو خَطْرة في أعدائه وأصدقائه. وبهذه الخلال المتفرعة عن تلك الفضائل وخاصة العدالة؛ نعلم مدى مؤهلات الإمام العدل. وكلها خلال لو اجتمعت أو حتى أكثرها في إنسان لكان جديراً بالإمامة وأحق الناس بها. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**إمام عدل**» سواء كان على معنى المبالغة في العدل ومن النعت بالمصدر. أو على معنى الصفة الذاتية والكمال الخلقي بفروعها وما يتفرع عنها.

وقد ذكر ابن مسكويه في كتاب فلسفة الأخلاق فروعاً لكل فرع من ذلك، تركناه خشية الإطالة واكتفاء بمحل الغرض من البحث.

○ العدالة عند الفقهاء:

والعدالة عند الفقهاء على مراتب يذكرونها في باب الشهادات:

١ ـ مبرز في العدالة. ٢ ـ عدل. ٣ ـ مستور الحال. ٤ ـ مجهول لا يعلم عنه.

مما تقدم يظهر لنا منهج الإسلام في اختيار الأئمة، ومبدأ اختيارهم لضمان إقامة العدل في سلطاتهم مع رعيتهم، وقد ضربوا للعالم المثل العليا في عدلهم وعدالتهم.

○ نماذج من عدالة الأئمة في الإسلام وعدلهم:

إذا أردنا أن نورد نماذج من ذلك، فإنا قد نكتفي بالإحالة على سجلات التاريخ المليئة بذلك، والحافلة بأروع الأمثلة. ولكن كما قيل: في البعض تنبيه على الكل.

عدله ﷺ:

إن إمام الأئمة وأعدل الخلق على الإطلاق والقدوة الحسنة، والأسوة المثلى لهو ﷺ ويكفي أنه سيد الخلق، وعلى خلق عظيم، وقد عصمه الله تعالى.

وقد نوهنا عن قضيته مع المخزومية. وقوله ﷺ: **«لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»**. وقضيته ﷺ نفسه مع سواد بن غزية في غزوة بدر حين كشف ﷺ عن بطنه وقال له: **«اقتد لنفسك»**. فما كان من الصحابي الجليل إلا أن قبّل بطنه ﷺ. فقال له: **«ما حملك على هذا؟»** فقال: يا رسول الله، إن هذا الموقف له ما بعده، فأحببت أن يكون آخر عهدي بك يا رسول الله هو مس جسدك.

وقضيته مع ابن عباس وأبي بكر، هذا غلام وذاك شيخ له منزلته وصحبته، فكان ابن عباس عن يمينه وأبو بكر عن يساره فأتي ﷺ بقدح فشرب ومن حق العطاء لمن على اليمين فلم يقدم أبا بكر مع طول صحبته وعلو منزلته وعظيم مِنَنِه على ابن عباس مع حداثة سنه، ولكن قال لابن عباس: **«الحق لك، ولكن هل تأذن لأبي بكر فيشرب قبلك؟»** فيقول ابن عباس: والله لا أوثر على سؤرك أحداً يا رسول الله. فيناوله فيشرب قبل أبي بكر. ولقد أمر ﷺ بالعدل مع عامة الناس وخاصتهم حتى الوالد في ولده فقال: **«اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم في العطاء»** وأمر الزوج بالعدل بين الزوجات بل أمر الإنسان نفسه أن يعدل بين نفسه فإذا انقطعت شراك إحدى نعليه خلع الأخرى. وقال: **«لينعلهما معاً أو ليحفهما معاً»**.

وهكذا كان خلفاؤه الراشدون على منهجه وسننه وجعلهم قدوة وأئمة لنا فقال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»**.

وها هو ذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعلنها مبدأ للحكم:

إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه: فجعل الحق هو القوة التي يفزع إليها الضعيف، ويفزع منه القوي أما ورعه في الحلال، وبعده عن الحرام، أو ما فيه شبهة وكمال صفات العدالة فحدِّث ولا حرج، ولن تحصى. ويكفي أنه بشر بالجنة وهو بين أظهرهم.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لقد استفاضت الأخبار عن عدالة عمر وعدله، حتى سجلها غير المسلمين

من مفاخر المسلمين. وكما قال له الشاب الذي دخل عليه يعوده في مرضه الذي مات منه وقال له: أبشر يا عمر؛ والله لقد حكمت بالسوية وعدلت في الرعية.

ولما رآه علي ﵁ وهو يهنِئ إبل الصدقة فقال: والله لقد شققت على من يأتي بعدك يا عمر. لشدة عنايته بالأمة، كما كان يَعِسُّ بالليل ليتفقد أحوال المسلمين. وقد نقل عنه قوله: والله لو أن شاة كسرت رجلها على نهر دجلة لظن عمر أنه المسؤول عنها: لمَ لم يمهد لها الطريق؟

وفي بيته ومع زوجته:

حين أتاه رجل ليشتكي زوجته عنده، فسمع صوت امرأة عمر من داخل البيت تخاصم عمر ويصغي إليها ولا يعاقبها، فيرجع الرجل قبل أن يصل إلى عمر فيراه عمر فيطلبه، ويسأله حاجته، فيخبره بأمره وأنه رضي عن زوجته لما رأى من زوجة عمر مع عمر. فيقول له: وما لي لا أصبر عليها وهي أم أولادي وغاسلة ثيابي وطاهية طعامي.

وقد حدث أن بعض الناس حاول أن يهدي إليه، فلم يقبل منه، لما يعرفه من ذاك الرجل، فاحتال الرجل وقدم الهدية إلى أهل بيت عمر وهي قطيفة، فلما رآها عمر في بيته سأل عنها من أين أتتهم فأخبروه. فقال: عجز عن طريقي فجاءني عن طريق أهلي، لا والله، وكانوا قد عملوها طراحة وحشوها صوفاً فأخذها عمر ليردها إليه فلحقته الجارية، تقول: الحشو الذي فيها لنا أعطنا حقنا.

ومع ولده:

كان ولداه عبد الله وعبيد الله بالشام فأرادا العودة إلى المدينة، وكانا في الجيش وكان أبو موسى عاملاً على الشام، فأراد أن ينفع وَلَدَيْ عمر، ويضمن مال المسلمين. فقال لهما: عندي مال بيت المسلمين أقرضكماه، فتشتريان به تجارة من الشام وتبيعانها بالمدينة، فتربحا وتؤديا رأس المال لعمر، ففعلا وربحا.

فلما قدما على عمر برأس المال قال لهما: أكل الجيش فعل معهم هكذا؟

قالا: لا. فقال: ابنا أمير المؤمنين وخصَّكما بذلك، لا، أديا الربح ورأس المال. فسكت عبد الله وتكلم عبيد الله فقال: أليس إذا هلك المال كنا ضامنين له؟ قال: بلى. فقال: إذاً يكون ربحه لنا. فلم يقبل منه عمر ذلك، وقال: إنما ربحتما بمال المسلمين.

فقال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين اعتبره مضاربة واقتسم الربح معهما لبيت مال المسلمين، فرضي بذلك.

فهذه عدالة وعدل. عدالة: لم يقبل لولده ربحاً من مال المسلمين.

وعدل: لم يقبل أن يخص عامله أبناءه دون بقية أفراد الجيش محاباة لأبيهم وهناك مثل رائع في شخصه هو ومع نفسه:

اختصم معه أُبي بن كعب في نخيل ادعاه على عمر ونفاه عمر، وقال: اختر من شئت نحتكم إليه. فقال أُبي: نحتكم إلى زيد بن ثابت. فذهب معه إلى بيت زيد وقال له: أتيناك محتكمين إليك.

فقال زيد وعلى البداهة: مرحباً هاهنا يا أمير المؤمنين وأشار إلى صدر المجلس فصاح به عمر: جرت من أول أمرك. فقال له زيد: وفيم جرتُ؟ قال له: تناديني بأمير المؤمنين! ونحن جئنا إليك في محاكمة وتشير إلى صدر المجلس. يجب أن أجلس حيث يجلس خصمي. فأجلسهما معاً وسأل أُبياً عن بيّنته فلم يجد عنده بينة وقال: أطلب تحليف عمر، اليمين. فقال زيد: أوَ تعفي أمير المؤمنين من اليمين؟ فصاح به عمر مرة ثانية: جرت يا زيد. فقال: وفيم الجور؟ فقال: أكل الخصوم تشفع لهم في ترك اليمين؟ فقال له: أتحلف؟ فقال عمر: وما لي لا أحلف ما دمت صادقاً! فأحلفه اليمين، فقضى لعمر لعجز أُبي عن البينة ولحلف عمر، أي عجز المدعي وحلف المدعى عليه فلما خرجا من مجلس المحاكمة، قال عمر لأبيّ: النخل مني هدية لك. فقيل لعمر: ولماذا لم يكن ذلك قبل حلف اليمين؟ قال: لكراهية أن يتخذها الناس سنة.

ومرة أخرى مع خادمه في السفر:

وفي مسيره إلى الشام لتسلّم بيت المقدس. فاقتسم الطريق مع خادمه في الركوب على راحلتهما. فكان عمر يمشي مرحلة، ويركب الخادم. ثم يركب

عمر والخادم يمشي. حتى اقتربا من الشام والقوم في استقباله فكانت النوبة في الركوب للخادم، فعرض على عمر أن يركب ليقدم على القوم راكباً فأبى إلا أن يوفيه حقه فيقدمان على القوم والخادم راكب وعمر يمشي.

هذا نموذج من عدله ﷺ كعنوان عاجل. أما عدالته فهي أعظم من أن توصف.

أولاً: عفته عن بيت مال المسلمين:

ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء قال: وأخرج ابن سعد عن الأحنف بن قيس قال: كنا جلوساً بباب عمر بن الخطاب فمرت جارية فقالوا: سُرية أمير المؤمنين عمر ـ بضم السين من التسري ـ. فقال: ما هي لأمير المؤمنين بسرية ولا تحل له، إنها من مال الله. فقلنا: فماذا يحل له من مال الله تعالى؟ قال: إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين حلة للشتاء وحلة للصيف، وما أحج به وأعتمر، وقوتي وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم. ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين.

وتقدمت قصته مع ولديه عبد الله وعبيد الله في رجوعهما من الشام أما عدالته وورعه وفضائل نفسه حكمة وعفة وعدالة. فقد كان لِحِدَسِه قوة المشاهدة ولِحِسِّهِ قوة المدركات. وكم وافق الوحي رأيه، ونزل القرآن بقوله.

ولقد كانت له حاسة لا لإدراك المحسوس والذوق المطعوم بل للتمييز بين الحلال والحرام كما حدث أن أرسل خادمه يحتلب له من إبله، فوجد الراعي قد أبعد بها ووجد إبل الصدقة في طريقه، فاحتلب منها وجاءه به فلما شرب استنكر الطعم واستشكل فسأل الخادم فأخبره، فوضع إصبعه في فمه واستقاء ما شرب.

إنها حاسية غريبة تدرك الحلال من الحرام، بل إنه لم يتعمد شرب لبن إبل الصدقة، فقد شربه وهو لا يعلمه. ثم إن له حقاً في تلك الإبل إنه كان يقوم عليها بنفسه يهنُؤ جربها وينقي قرادها. فهو على أقل تقدير كالراعي لها. ومع ذلك لم يستسغ شرب لبنها، ولما شربه بدون قصد ولا علم منه استقاءه ولم يبقه يتغذى به جسمه.

فكان ﷺ عدلاً مبرز العدالة قبل أن يكون عادلاً فائقاً في عدله. وقد شهد

له خصمه بأسمى وأغلى منازل العدالة حين جيء بالهرمزان وأدخل به على عمر رضي الله عنه المسجد فوجده نائماً وحده وبدون حراس عليه، مفترشاً الأرض، متوسداً رداءه، فقال وقد أدهشه ما يشاهد: حكمت، فعدلت، فأمنت، فنمت.

في الوقت الذي ترتجف فيه قلوب حكام العالم خوفاً على أنفسهم وهم محاطون بالعديد من الحراس ليل نهار.

○ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه:

يكفي في عدالته ما قاله ﷺ عندما دخل عليه عثمان، فجمع ﷺ عليه ثيابه وكان قبلُ عنده أبو بكر وعمر. فقالوا له: أتستحي منه يا رسول الله؟ فقال: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**».

وهو الذي اشترى الجنة من رسول الله ﷺ مرتين: مرة عند تجهيز جيش العسرة حين قال ﷺ: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**» فجهزه عثمان. ومرة حين اشترى بئر رومة. لما قال ﷺ: «**من يشتري بئر رومة وله الجنة؟**».

وهو الذي ضرب ﷺ بيده الشريفة عن يده في بيعة الرضوان لما ذهب يفاوض أهل مكة على دخوله ﷺ ليطوف فامتنعوا، وأشيع بأن عثمان قد قتل فبايع النبي ﷺ أصحابه على الموت في سبيل الله وضرب بيده الشريفة وقال: «**وهذه يدي عن عثمان**».

وهو ذو النورين لتزوجه بابنتي رسول الله ﷺ حتى قيل: ما تزوج أحد ابنتي نبي غيره. وذكر السيوطي أن النبي ﷺ قال له: «**لو أن لي أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة**».

ولما ماتت بنت رسول الله ﷺ تحت عثمان قال: «**زوجوا عثمان لو كان لي ثالثة لزوجته، وما زوجته إلا بوحي من الله**».

○ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

أما عدالة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فهي كأصحابه رضي الله عنهم أجمعين فقد استجمع العلم والحلم والعفة والمروءة والعدالة مما لا يحتاج إلى إيراد.

أما عدله فقد اشتهر رضي الله عنه بالعدل في القضاء والفطنة فيه إلى الحد الذي أصبح موضع المثل: «قضية ولا أبا حسن لها».

وقضاؤه في قضية (الأسدُ في الزُّبْيَةِ باليمن) مما تبسم له ﷺ وقال: «**القضاء ما قضى به عليّ**».

أما عدالته وعدله مع نفسه وغيره: فقد ذكر وكيع في أخبار القضاة ما وقع له مع يهودي عند القاضي شريح في خلافة علي رضي الله عنه وشريح قاض له على الكوفة. وذلك أن علياً رضي الله عنه افتقد درعه ثم وجدها مع يهودي فأنكر اليهودي وطلب التحاكم إلى القاضي فذهب به علي إلى قاضي البلدة شريح فتقدم علي بدعواه وأنكرها اليهودي. وقال: درعي وفي يدي.

فسأل القاضي علياً البينة على دعواه فقدم الحسن بن علي وقَنْبَر غلامه فقال القاضي: أما غلامك فلا بأس وأما الحسن فلا. فقال علي: ويحك أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**». قال: بلى واللهِ أعلمُ ذلك. ولكنه ولدك لا يشهد لك. فصرف النظر عن دعواه، وقال لليهودي: قم وخذ الدرع. فلما خرجا من عند القاضي قال اليهودي: أهكذا العدل في دينكم؟ والله إن الدرع لك، سقط عن راحلتك، فأخذته، ولكن أردت أن أرى ماذا سيفعل معي قاضيك فخذ الدرع فهو لك ودرعك. وشهد شهادة الإسلام. فكبر علي وقال لليهودي: هو لك ومعه مائتا درهم.

فعلي رضي الله عنه وهو الإمام والقاضي من عماله، ومع ذلك لم يفرض عليه رأياً ولم يهضم لليهودي حقاً، ونزل على حكم القاضي طبق القاعدة الشرعية: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر وهذه العدالة حملت اليهودي على أن يسلم طواعية.

وهناك نماذج في قضاة المسلمين وأئمتهم بعد الخلفاء الراشدين؛ كعمر بن عبد العزيز ومن جاء بعده، وفي كتاب وكيع في أخبار القضاة صور عديدة.

ومن عدالة بعض الخلفاء العباسيين: أنه لما مات سلمة بن سعيد وكان عليه ديون للناس، ولأمير المؤمنين المنصور ديون عليه، فكتب إلى عامله أن استوف لي حقي أولاً ثم فرق ما بقي على الغرماء. فلم يلتفت إلى كتابه وضرب له بسهم مع عموم الغرماء فكتب إليه المنصور مُلئت الأرض بك عدلاً.

○ عوامل تواجد العدل من الإمام:

يرجع وجود العدل عند الإمام في الغالب إلى عدالته في نفسه، ومخافته لله، ثم إلى وعي الأمة التي تنبه الولاة إلى مواطن العدل وتحذرهم من مواطن الظلم وعواقبه.

قيل: إن رجلاً عاقلاً غصب بعض الولاة له أرضاً وضيعة، فأتى إلى المنصور فقال: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أأذكر حاجتي أم أضرب لك مثلاً قبلها؟ فقال: بل اضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظناً منه أن لا ناصر له غيرها. فإذا ترعرع واشتد، كان فراره لأبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى من سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله لعلمه أنه أقوى من السلطان. وقد نزلت بي نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله. فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله في الموسم، فإني متوجه إلى بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك. وكتب إلى واليه برد الضيعة.

ومما يساعد على توفر العدل من السلطان نصح الرعية إليه كما في الحديث: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**». وكذلك قيام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. إلخ.

○ ما يقوله العلماء في شروط الإمام:

وموجز ذلك ما ذكره والدنا الشيخ محمد الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأضواء على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. بعد الكلام على نصب الخلافة، وضرورة نصبه لاجتماع الكلمة عليه، وتنفيذ أحكام الله تعالى. جاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الشروط في الإمام الأعظم وهي:

أولاً: أن يكون قرشياً. لحديث: «**الأئمة من قريش**». مع إيراد نصوص أخرى مثل وجوب السمع والطاعة وإن تأمر عبد حبشي... إلخ. وفيه بحث طويل فليرجع إليه.

ثانياً: كونه ذكراً. لحديث: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**».

ثالثاً: كونه حراً. وأجابوا عن: «**ولو عبداً حبشياً**» أنه على سبيل المبالغة في وجوب السمع والطاعة أو قد يكون سبق عليه رق ثم تحرر.

ولعل المراد في حديث: «**ولو استعمل عليكم عبد حبشي**» ليس في الإمامة العظمى لأن لفظ (استعمل) قد يكون في العامل. أي العامل الذي يعمل للسلطان كحكام الأقاليم مثلاً. وهذا إذا ارتضاه السلطان وولاه لديانته وأمانته وكفاءته فلا مانع. أو أن المراد بالعبد فيما لو كان غير قرشي وتغلب على الحكم بالقوة إلى غير ذلك من الأوجه.

الرابع: من الشروط أن يكون بالغاً لأن الصبي لا يقدر على أعباء الخلافة.

الخامس: أن يكون عاقلاً. وهذا بلا نزاع.

السادس: أن يكون عدلاً. فلا تجوز إمامة الفاسق واستدل عليه بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ويدخل في شرط العدالة كونه مسلماً. لأن العدل لا يكون غير مسلم. وهذا محل الشاهد في وصف الإمام بالعدل.

السابع: أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً. أي في علمه واجتهاده، يمكنه الاستغناء عن الاستفتاء في الحوادث.

الثامن: أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب، وتدبير الجيوش، وسد الثغور، وحماية بيضة المسلمين، وردع الأمة، والانتقام من الظالم، والأخذ للمظلوم.

التاسع: كونه سليم الأعضاء، ليتمكن من أداء مهمته. واستدلوا له من قوله تعالى في طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

العاشر: أن لا تلحقه رقة في إقامة الحدود... إلخ.

ولو تأملنا تلك الشروط لوجدناها تلتقي مع الفضائل الثلاث وما يتفرع عنها، والتي بمجموعها يكون الشخص عدلاً كما قدمنا تفصيل ذلك في بيان معنى العدالة في كلام علماء الأخلاق.

وهناك جوانب في أحكام الإمامة تتعلق بسلوكه وبقائه وعزله. . . إلخ. وقد طال بنا الحديث عن الصنف الأول من السبعة وهو الإمام العدل. لأنه هو المنطلق لإيجاد تلك الأصناف الباقية، تنشأ في ظل عدله، وتتأثر بعدالته. كما نوهنا عن ذلك سابقاً لما سيقيمه من تحكيم كتاب الله، وتمكين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد المظالم، وردع الظالم، والسهر على مصالح الرعية من جميع جوانبها. وبالله تعالى التوفيق.

○ أثر هذا الصنف في المجتمع:

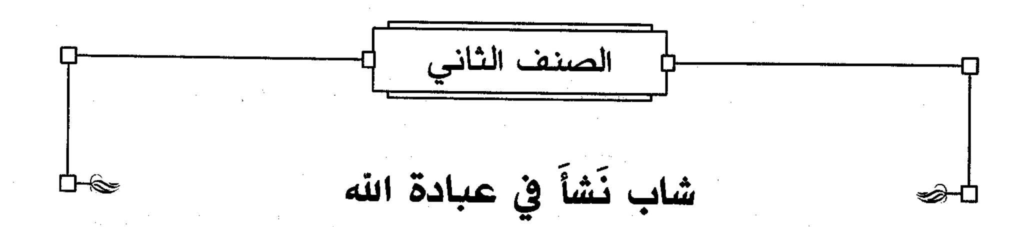
لا شك أن تأثيره وأثره بالغان للغاية لأنه كما يقال: رأس الأمر وعموده. وقد بينه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على رأسهم الإمام العدل، محل الاستخلاف في الأرض، والتمكينِ له، والدين الذي ارتضى لهم هو الإسلام لقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فينعمون بالأمن بجميع معانيه: من عدو أو قحط أو بلاء أو أي سوء يصيب الأمم.

وكذلك في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

فالإمام العدل يعمل على نصرة الله، أي نصرة أوامره، وتشريعه، وتحكيم كتابه وينصره الله على كل من يعاديه، فهو ناصر لدين الله، منصور من عند الله.

وينصر دين الله بما قال الله: ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وألزموا الناس بها وعاقبوا على تركها ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وتعاطفوا على المساكين وشكروا نعمة الله ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وبهذا بدون شك تكون رعيتهم خير رعية على الأرض لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا كله متحقق في هذا الإمام العدل وفي رعيته معه.



شاب نَشأَ في عبادة الله

○ معنى الشاب لغة:

أصل الشباب نماء الشيء وقوته في حرارة تعتريه. من ذلك شببت النار، وكذلك شببت الحرب، إذا أوقدتها.

ويقال: شب الغلام شبيباً وشباباً، ويقال: شب الفرس شِباباً ـ بكسر الشين ـ إذا نشط ورفع يديه جميعاً.

فالشاب هنا من تجاوز مرحلة الغلمان، ونما جسمه وقوي مع حرارة وحيوية، فهو بمعنى الفتى، من الفتوة وهي القوة.

وعليه: فلفظ شاب في الحديث يشمل بالمعنى شابة كذلك. «**ونشأ في عبادة الله**». فقد قال: «**نَشأ**» ولم يقل: أُنشئ أو نُشِّئ بضم النون، مما يفيد معنى النشأة ابتداءً وعلى الفطرة، ولم ينشئه غيره.

فيه تنبيه لأول وهلة إلى أثر البيئة التي ينشأ فيها الشاب، لأنه قال: نشأ في، ولم يقل: نشأ على، فكأن عبادة الله كانت له كالحقل ينبت فيه أو كالبيت تربى فيه، وهو ما يشير إليه الحديث «**كل مولود يولد على الفطرة...**» الحديث.

كما أن فيه توجيهاً لمجانبة رفقاء السوء خوفاً من التأثر بهم. وحثاً لولي أمر كل شاب على بيئة الشاب ونشأته فيها كما قيل:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يَقتدي

○ معنى العبادة لغة:

والعبادة من العبودية التي هي التذلل والانقياد، فيقال: طريق معبد، أي: مذلل وممهد، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [تبارك: ١٥].

أي ممهدة مطاوعة لأعمالكم، وقال الشاعر يصف سير ناقته على الطريق السوي:

وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

والوظيف: ساقها. والمعبد: الممهد. والمور: الطريق.

والعبادة في اصطلاح الشرع: اسم جامع لكل طاعة ولكل ما يحبه الله، وبها يتحقق معنى العبودية من الإنسان إلى خالقه، وليست قاصرة على صلاة أو صيام أو زكاة أو حج فحسب. ويشهد لعموم معناها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الحج: ٧٧]، إذ عطف العبادة على الركوع والسجود. وأجمعُ تعريف للعبادة هو: طاعة الله في ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، أي أن ترك المحرمات عبادة ما دام قد تركها لله.

والحديث: «**من همّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة**». فتشمل بذلك جميع مناط التكليف من معتقد صحيح، وتفكير سليم، ونطق صادق الحديث مع الخلق، أو ذكر لله تعالى، وعمل بالجوارح، كما شملها قوله تعالى الجامع لعموم هذا المعنى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

○ ارتباط هذا الصنف بما قبله:

لم يكن إيراد هذه الأصناف السبعة في هذا الحديث مجرد عدد وإحصاء، بل بينها جميعها ارتباط معنوي وثيق تجتمع في عامل هام وهو العامل المشترك بينها ألا وهو مخافة الله تعالى فيما بين العبد وربه.

ثم إن نسقها على هذا الترتيب بَدْءاً له تأثير كذلك بليغ ومعنى بديع، وبإمعان النظر نجد تأثير كل صنف فيما يليه كتأثير السبب في النتيجة، ويأتي الصنف الذي بعده كإتيان النتيجة عقب السبب، أي أن ترتيبها كذلك مقصود. وذلك للآتي:

أولاً: بدأ بالصنف الأول وهو الإمام العادل، وقد قدمنا أن وجود الإمام العادل سيمكّن من إقامة حكم الله وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسيمكّن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمل كل ما فيه مصلحة الرعية.

وبالتالي ستكون رعية هذا الإمام أمثل ما تكون من استقامة وصلاح وسلوك

حسن. ومن ضمن هذا كله في ظل عدالته وعدله سينشأ الشباب في عبادة الله بعيداً عن المعاصي مصوناً عن المفاسد، فظهرت قوة الرابطة بين عدالة الإمام ونشأة الشباب في عبادة الله.

ثم إن التعقيب على عدالة الإمام بنشأة الشباب دون الأصناف الأخرى مع أن لعدالة الإمام تأثيراً أيضاً فيها ليشعر بطرفي القضية من القمة إلى القاعدة إذ أن الشباب هو عدة المستقبل، وهو قوة الشعوب وعماد الأمم، فتأتي أهميته في المجتمع في الدرجة الثانية بعد الإمام مباشرة، ومن هنا كانت عناية الإسلام بالشباب عنايةً فائقة من أول مراحل وجوده إلى نهاية تكامله، بل ومن قبل مجيئه، أي من ساعة التفكير في تحصيل أسباب وجوده ليؤهله لتحمل أعباء مسؤوليته على أحسن وجه سواء الدنيوية أو الدينية في حد ذاته أو نحواً منه بل والعالم الإسلامي كله.

○ عناية الإسلام بشباب الأمة:

أولاً: تبدأ عناية الإسلام بالشباب من قبل وجوده في الحياة وذلك باختيار أمه أولاً كما في أثر عائشة ﵂: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس». يؤيده الحديث الصحيح حين جاء رجل وقد ولدت له زوجته ولداً أسود مغايراً لون أبويه، فسأله ﷺ: «**هل لك من إبل؟**» فقال: بلى، فقال له ﷺ: «**هل فيها جمل أورق؟**» فقال: إن فيها لورقاً. فقال له: «**ومن أين أتت؟**» قال الرجل لعله نزعه عرق - أي في آباء فحل إبله -. وهنا قال له ﷺ: «**وهذا الولد كذلك، لعله نزعه عرق**». أي إلى أحد أقاربه سواء من جهة الأم أو الأب فإن العرق دساس.

وكان مبدأ اختيار الأم على أساس ديني لأن المرأة الدَّيِّنَة ستأتي بكل خير، وتتجنب كل سوء، وذلك في الحديث: «**تنكح المرأة لأربع: لجمالها، ولمالها، ولحسبها، ولدينها، فعليك بذات الدين تربت يمينك**».

ملحوظة:

يلاحظ أن الحديث هنا بدأ بالجمال وأخَّر الدين في النهاية، مع أن للتقديم أثره في التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:

١٥٨]. فبدأ ﷺ السعي بالصفا تقديماً لما قَدَّم الله. فكيف يتأتى هذا مع تفضيل ذات الدين؟

والجواب والله تعالى أعلم: هو أن الحديث يحكي ما عليه الناس، ومقياس الاختيار عندهم وهو أنهم يقدمون ذات الجمال، ويؤخرون ذات الدين.

ثم هو يصحح هذا المقياس وهذا المفهوم عند الناس فيقول: عليك أو فاظفر، أي نقب عليها بظفرك كمن غاب عليه شيء في الأرض ويعز عليه فينقب عليه بظفره وإن كان شاقاً عليه مخافة أن ينقب بآلة فيفسد تلك الحاجة، أو إشارة إلى دقة هذه الطلبة وندرتها وخفاء مكانها بحيث تحتاج إلى تفتيش دقيق بالظفر.

وقال تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]. أي بجمالها أو حسبها... إلخ.

وفي المقابل: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وحذر الإسلام من المرأة سيئة السلوك والنشأة ولو كانت حسنة المنظر كما في الحديث: «**إياكم وخضراء الدمن**». قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «**المرأة الحسناء في المنبت السوء**».

ثانياً: بعد حسن اختيار الأم أرشد إلى تحصين الولد من الشيطان من أول لحظات تواجده عند المباشرة، كما أرشد الحديث أن يقول الزوج عند ذلك: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا**».

ثالثاً: فإذا حملت به أمه راعى مصلحته وهو حمل، ولو كان في ذلك تعطيل بعض حق الله في العبادة كتأجيل الصيام إذا شق عليها بسببه حتى لا يتأذى من حرارة الجوف من شدة الجوع والعطش. وربما منع الأب من بعض حقوقه من أمه إذا كان ذلك يجهدها.

رابعاً: عند الولادة بأنه شرع أن أول ما يطرق سمعه ذكر الله، فيؤذن له في أذنه اليمنى ويقام له في أذنه اليسرى، فيسمع الأذان والإقامة قبل أن يسمع أي شيء، وفي ذلك حفظ له من الشيطان أن يغريه لما جاء في الحديث: «**إن الشيطان إذا ثوّب بالأذان أدبر**».

خامساً: عند رضاعه: عني به في حضانته لاستكمال رضاعه حولين كاملين.

وألزم الأم بإرضاعه إن لم توجد من ترضعه. وعند استرضاعه لزم تخير المرضعة الصالحة والسليمة بُنْيةً والمستقيمة خلقاً وكره الفقهاء استرضاع الحمقاء. وكان العرب يتخيرون المراضع فصاحة واستقامة. وقد عد النبي ﷺ استرضاعه في بني (سعد) من دواعي كمال بلاغته وفصاحته.

وقد همّ رسول الله ﷺ أن ينهى عن الغيلة حفاظاً على صلاحية اللبن للرضيع مع ما في هذا النهي من إسقاط حق الأب إذ كان يمتنع عن وطء أم الطفل خشية أن تحمل فيتأثر لبنها فيؤثر على الطفل. ففيه إشعار بتقديم حق الطفل على حق أبويه الخاص. ولكنه ﷺ عدل عن ذلك لما رأى الفرس يغيلون ولا تتأثر أطفالهم بخلاف ما كانت تعتقد العرب، كما قال شاعرهم:

فوارس لم يغالوا في رضاع فتنبو في أكفهم السيوف

وهو أنهم كانوا يرون أن الطفل إذا رضع من أمه وهي حامل ضعف لبنه فضعفت قوة الطفل ولانت عظامه حتى إذا كبر وقاتل نبا السيف في كفه.

سادساً: تسميته. من عناية الإسلام بالشباب تخير الاسم له عند ولادته والعقيقة عنه في اليوم السابع من ولادته فإن لم يكن ففي السابع الثاني، وعمل العقيقة هذه هو بمثابة تسجيل في عداد مواليد الأسرة والإشهاد عليه. وجاء عنه ﷺ الحث عليها، وعن الولد شاتان والبنت بشاة.

أما حسن التسمية فقد يكون من باب الفأل الحسن، وقد غير النبي ﷺ أسماء عدة أشخاص إلى أحسن منها وقال: «**خير الأسماء ما عبد أو حمد**».

سابعاً: الحث على إطعامه الحلال وتجنيبه الحرام لما للحلال والحرام من تأثير في سلوكه وطباعه. ولقد كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مع النبي ﷺ في الطريق فوجد تمرة فالتقطها ووضعها في فمه فلم يتركه ﷺ يأكلها مخافة أن تكون من تمر الصدقة وهي لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. مع أنه ليس مقطوعاً بأنها من الصدقة.

وكذلك الحال على كل إنسان حيث بيّن ﷺ أن كل لقمة يأكلها فإنه ينبت منها دم ولحم وعظم وكل ما غذي بحرام فالنار أولى به.

كما نص تعالى على تحري الطيبات في المأكل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

ثامناً: إذا بلغ سناً يدرك فيها معنى الكلام تولاه بالإرشاد في المأكل والنطق. كالغلام الذي أكل مع رسول الله ﷺ فأخذت يده تطيش في القصعة. فقال له ﷺ: **«يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»**.

تاسعاً: وفي مرحلة التمييز والشعور بموجبات الأوامر والالتزامات جاءه نداء الواجب التدريبي: **«مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»**.

وفي هذا إعداد منهج تربوي متكامل: بدأ بحق الله في أداء الصلاة، ويتبعها كل عمل صالح، وذلك من سن السابعة، وهي عند علماء التربية أول سن يتحمل فيها الغلام أمراً أو نهياً. وتدرجَ معه من مجرد أمر إرشاد وتوجيه وحث وترغيب لمدة ثلاث سنوات. فإذا بلغ العاشرة، فإن كان قد استجاب فيها والحمد لله، وإلا تغير الأسلوب إلى زجر بالضرب، ولكن عليها فقط ليؤديها. وهكذا يستمر إلى أن يبلغ الخامسة عشر، وهنا يجري عليه قلم التكليف ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] ولعل من هذا المنهج يكون أقوم ما يكون للشاب في شبابه حيث أخذ بمنهج تدريجي من السابعة إلى الخامسة عشر، فلا يأتي لسن التكليف وجريان القلم عليه إلا وهو مسلم: قولاً وفعلاً يرتاد المساجد، ويتألف مع المسلمين.

○ واجب شبابنا علينا ومنزلة الشباب في مجتمعنا:

من القضايا الأولية لدى العقول: أن واجب كل شيء بحسب أهميته، وكلما عظمت أهمية أمر ارتفعت نسبة العناية به، وعظم الواجب له. ومنزلة الشباب في المجتمعات كما نوهنا عنها في الدرجة الأولى بعد الإمام العدل.

وبالنظر في أحداث التاريخ وفي نصوص القرآن الكريم عن الأمم الماضية، نجد الصور الآتية:

أ ـ في مقدمتها صورة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]. والفتية تعادل الشاب إذا كانوا شباباً لا شيوخاً، وقفوا أمام

طغيان حكامهم، وفروا من أن يفتنوهم في دينهم، وآووا إلى الكهف على ما فيه من وحشة وانقطاع، ولكن جلد الشباب وعزيمته، ورجعوا إلى الله تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] فكان لهم ما أرادوا. وكان في أمرهم عظة وعبرة.

ب ـ وهذا صاحب موسى عليه السلام في رحلته التعليمية، وتحمل مشاق السفر. كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ الكهف: ٦٢].

فهذا موسى القوي الأمين من أولي العزم من الرسل، يلقى النصب من سفره، وهذا فتاه معه، ولو لم يكن شاباً لما واصل هذا السفر مع هذا النصب، ومن هنا كان اختيار موسى لرفقته هذا الفتى دون الشيوخ الكهول.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان أخص أصحاب رسول الله ﷺ في أول دعوته، وهو شاب قبل البلوغ، ورافقه في جل مواقفه، ونام عنه في فراشه ليلة هجرته. وكان ابناه الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة.

والنماذج في شباب هذه الأمة تفوق الحصر. ففي غزوة (أُحُد) تعرض المقاتلة على رسول الله ﷺ فيجيز الكبار ويمنع الصغار ومنهم (رافع بن خديج) و(سمرة بن جندب) فيبكي سمرة ويقول: منعني رسول الله ﷺ وأجاز رافعاً وإني والله أصرعه.

وفي غزوة بدر كان موقف ابني عفراء، غلامين حديثين وبينهما عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه فقال: لقد أخذت في نفسي وأنا بين هذين الغلامين الناشئين وما راعني إلا أن أخذ الذي عن يميني بجانبي واستمالني إليه وسألني سراً : أتعلم أبا جهل يا عم؟ فقلت: نعم وما حاجتك فيه وأنت غلام شاب؟ فقال: لقد عاهدت الله أن لا أراه ويفارق سوادي سواده إلا أن أقتله أو أموت دونه. ولما فرغتُ منه فإذا الذي عن يساري يأخذني إليه ويسألني مثل سؤاله وقال لي مثل مقالته، فلما رأيته أشرت إليهما عنه، فاطمأننت على نفسي أكثر من ذي قبل.

وكان عمر رضي الله عنه يستشير الشباب ويقدح فتوة عقولهم. وغير ذلك من صور أهمية الشباب، ونشأته لخدمة أمته، مما جعل واجب الشباب على الأمة عظيماً.

وفي مقدمة هذا الواجب هو التعليم لأنه السلاح لكل النجاح. وقد جعل النبي ﷺ فكاك الأسرى في بدر أن يعلم أحدهم عشرة أطفال من أبناء الأنصار بالمدينة القراءة والكتابة في وقت كان المسلمون أحوج ما يكونون للغذاء والعتاد والسلاح، ولكنه ﷺ وجد التعليم أهم وأنفع من هذا كله. فأهم واجب شبابنا اليوم علينا تعليمه، وتربيته تربية إسلامية سليمة، وتعليماً نافعاً كريماً، ولا يقف مجال التعليم عند مادة دون أخرى ولا فن دون آخر. فكل ما فيه خدمة لنفسه ولوطنه ولأهله ومجتمعه فهو مطلوب على جميع المحاور كما يقولون، من زراعة وصناعة وطب وهندسة، وما يساير نهضة الحياة من غرس النخلة إلى استخدام الذرة، وتسخير جميع القوى براً وبحراً وما يحقق قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. مع الحفاظ على حق الله وما به السعادة في الآخرة.

أ- دور وزارات التربية والتعليم:

لقد كانت تلك الوزارات تسمى وزارات المعارف. أي شحن الأذهان معارف وعلوم. أما الآن وقد تغير الاسم بما ينطبق مع ما يراد منها: تربيةً وتعليماً. والتربية هي الجانب المسلكي في حياة الطالب والمنهج العملي التطبيقي للدروس النظرية. فإذا كانت المعرفة والعلم مثلاً بالصلاة إدراك تصورها وأوقاتها وهيئاتها فإن التربية هي إقام الصلاة وأداؤها على أكمل وجه تطبيقاً للعلم بالعمل. وكذلك الصدق في القول، والوفاء بالعهد، والالتزام بالوعد، وأداء الأمانة كما يدخل طالب القسم العلمي معمل المدرسة ليطبق بعض النظريات الكيميائية في أنابيب المختبر.

ومما لا شك فيه أن دور المدرسة هو الدور الأكبر في تنشئة شبابنا وهو أعظم من دور البيت في نظري لأمور:

١ ـ نظرة الطفل إلى المدرسة نظرة الإكبار والإعجاب، بطاقمها وهيكلها وتطوراتها، نظرة جدية لا عاطفية، تتسم بالعقل لا بالعاطفة كعواطف البيت. فيشعر بطور جديد في حياته، فيأخذ عن أساتذته ما يلقونه إليه قضايا مسلمة.

٢ ـ قد يكون بيت الطفل خالياً من شخص متعلم فيكون المدرس في المدرسة أول من يلقنه علماً.

٣ ـ إن فترة تلقيه في المدرسة أطول بكثير منها في البيت لأنه يقضي جل نهاره في فصول الدراسة ومع أساتذتها. بينما باقي نهاره بين البيت واللعب خارج البيت، فلم تبق فرصة كافية لأبويه في توجيهه لو كان لديهما توجيه ما.

وبالمقارنة بين وسائل التربية ووسائلها حديثاً، نجد مدى دور المدارس وما انضاف إليها من عوامل التربية والتوجيه اليوم.

أ ـ ففي السابق كان المنزل أولاً: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه**» أو كما قال ﷺ.

ب ـ ثم المسجد وكانت فيه حلق القراءة، ثم الكتاتيب، وكان لوجود المدارس في المساجد جمع المنهجين التعليمي والتربوي. من أداء الصلوات، والحفاظ على حسن السمت والوقار إجلالاً للمسجد، بضميمة خطب ونحوها. ثم تطورت المساجد إلى معاهد؛ ككبريات مساجد عواصم البلاد الإسلامية: كالجامع الأزهر، وجامع أحمد بن طولون، وجامع الزيتونة، لم تزل معاهد علم بفروع علمية متعددة.

وبعد ذلك العهد جاءت المدارس النظامية، بمناهج ليس هذا مجال التحدث عنها، ولكن لا يفوتنا أن معظمها في البلاد التي وطئ أرضها المستعمر كان بوضع رجال من المستعمرين، ويكفي هذا التنبيه. ومما هو جدير بالعلم أن في العالم حركات ليست تعليمية فحسب بل حركات منهجية، أي لإصلاح المناهج التعليمية في جميع المراحل، ومما هو معلوم أن كل زمن له ما يلائمه من مواد وفنون تستحدث ويتطور معها منهج التعليم، والمشرفون على تلك الوزارات أشد حرصاً على هذا الإصلاح بما يحقق مصالح البلاد والمواطنين في الإطار العام لتعاليم الدين الحنيف.

ب ـ دور الإعلام:

ومن مظاهر هذا الزمن ما استحدث من وسائل الإعلام مقروءة ومسموعة ومنظورة، شغلت حيزاً كبيراً من ذهن الشباب وغير الشباب، ولها بدون شك ولا نزاع تأثير عملي على الصغير والكبير، والفرد والمجتمع، يخضع هذا التأثير لنوعية البرامج، والتوجيه الضمني الذي توحيه وتوجه إليه تلك البرامج.

ج - ضرورة التعاون بين الأجهزة المختلفة:

وبما أن جهاز وزارة التربية والتعليم يلتقي مع أجهزة الإعلام في التوجيه والتثقيف، فإني أرى ضرورة الاشتراك بين الجهازين في إعداد وتنسيق برامج الإعلام، خاصة ذات التأثير القوي وهي المرئية منها والتي غزت وبقوة جميع الناس في داخل البيوت وخارجها حتى لا تتعارض برامج تلك مع مناهج هذه.

ومما أراه لتقوية هذين الجهازين أن توضع حصة دينية تربوية في كل مدرسة لجميع السنوات وكافة الفصول مرة في الأسبوع أو في كل أسبوعين مرة يكون منهجها تطبيقاً عملياً لصلاة فريضة أو نافلة وشرح آية أو حديث، يكون الموضوع اجتماعياً يربط النشء بكتاب الله وسنة رسوله، ولا بأس من وجود مجال للنقاش الهادف لتدريب الطالب على كيفية الاستيعاب والفهم.

وكذلك الحال في الشاشة تعقد ندوة شهرية من الشباب وأولياء أمورهم، ورجال التربية والموجهين الاجتماعيين، وبعض طلبة العلم لعرض بعض ما يلمسه المختصون من قضايا الشباب التي تواجههم.

وبالتالي سيجد الشباب شخصيته في المدرسة بمشاركته في هذا المنهج التوجيهي يبدي رأيه، ويُسمع قوله، ويُستحسن منه ما يكون حسناً ويعدل له ما يحتاج تعديلاً.

وسيجد نفسه في المجتمع كذلك حينما يرى نفسه مع ولي أمره، وولي أمر الآخرين، يعنون بحل مشاكله وعلى مستوى إعلامي واسع.

د - دور المجتمع:

وللمجتمع دور هام لا يقل أهمية عما تقدم، لا في التأثير العلمي، بل فيما يحيط الشباب من وسائل إغراء، وأشكال جديدة لأطوار الحياة تستلزم عادات وتقاليد قد تُغير في سلوك الشباب، مما تسمع عن البعض منها في اجتماعاتهم ولقاءاتهم بل وفي أشكال حياتهم من ملبس ومأكل: فمنها ما يدفع الشاب إلى سبيل توفير المال لمجاراة أفراد ذلك المجتمع. ومنها ما يحمله على التخلي عن بعض آدابه الإسلامية وأخلاقه التي نشأ عليها.

وهنا يأتي دور أجهزة الإعلام في تصحيح الأوضاع برفع مستوى الوعي

والثقافة في أفراد المجتمع. وكذلك دور هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأداء واجبهم بحكمة وموعظة حسنة ويشاركهم في ذلك أفراد المجتمع عملاً بقوله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره...**» الحديث.

فإذا نحن فعلنا كل ذلك، نكون قد أدينا واجب الشباب علينا. ويكون شبابنا أهلاً لأن يتحمل مسؤوليته ويرد علينا أكثر مما أخذ منا بقيامه بدوره مع شباب الغد إن شاء الله، وبالله التوفيق.

○ إدراك العالم أهمية دور الشباب:

لقد أدرك المسؤولون اليوم في كل دولة أهمية دور الشباب في حياة الأمم، فأخذوا يولونه العناية لتوجيهه الوجهة التي تلائم منهج بلده، بل وأنشئت وزارات لرعاية الشباب ومشاكله.

ومن جانب آخر فإن أعداء الإسلام من مستشرقين وغيرهم أفرغوا جهدهم مع الشباب خاصة، بل من طور الطفولة بالتربية المنهجية التي تضعه على خط المسير الذي يُريدونه لتلك الأمم وكذلك اقتضابهم ومحاولة اصطباغهم بالصبغة التي يسعون إليها علماً منهم بأن هذا الشباب هو الذي سيتولى مهام قيادات بلاده فيكون أطوع هو إليهم ومن هنا عظم خطر الشباب وعظمت عناية الإسلام به.



الصنف الثالث

رجلٌ قلبه معلّق بالمساجد

١ ـ رواياته المتعددة كما تقدم كالآتي:

١ ـ **«ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه»**: الموطأ.

٢ ـ **«ورجل قلبه معلق في المسجد»**: بالإفراد، البخاري.

٣ ـ **«ورجل قلبه معلق في المساجد»**: بالجمع، البخاري ومسلم.

٤ ـ **«ورجل معلق بالمسجد»**: بدون ذكر القلب، مسلم.

٥ ـ **«ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه»**: الترمذي.

٦ ـ **«ورجل قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياها»**: الترمذي.

٧ ـ **«ورجل كان قلبه معلقاً في المسجد»**: للنسائي.

فهذه ألفاظ وعبارات: بزيادة أو حذف، وإفراد المسجد أو جمعه، وتعدية التعلق بالباء أو في، وبيان سبب التعلق (من شدة حبه إياها). وبيان حاله بعد مغادرتها (إذا خرج منها حتى يعود إليها). وإسناد التعلق إلى القلب تارة وإلى الرجل تارة أخرى. كلها تكون معنى أساسياً وهو شدة ارتباط الرجل بالمسجد على أنه اسم جنس لبيوت الله أينما كانت وكيفما كانت. والتنصيص هنا على الرجل، قد يفهم اختصاصه بذلك ولا سيما وأن ارتياد المساجد له أكثر من المرأة، وأن المرأة أفضل لها في بيتها فيكون من مفهوم الصفة، فيدل بمنطوقه على خصوص الرجل وبمفهومه على عدم شمول المرأة.

وقد جاءت امرأة فسألت النبي ﷺ فقالت: إني أحب الصلاة معك. قال لها: **«قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، ولكن صلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك معي، وصلاتك في قعر بيتك خير من صلاتك في مسجد قومك»**.

وجاء قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا

بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

فقد نص على الرجال دون النساء. وبالنظر إلى أول الآية يشير إلى اختصاص الرجال لأنهم المختصون بالتجارة والبيع. وبالنظر إلى آخر الآية نجد شموله للجميع لأن مخافة ذلك اليوم شامل للجميع من الجنسين. ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢].

وقد نبه والدنا الشيخ الأمين رحمه الله تعالى في أضواء البيان على أن المفسرين يعتبرونه مفهوم لقب، لا دلالة. وردَّ هذا القول، وأكد أنه مفهوم صفة فلا يشمل النساء.

والذي نقوله هنا وفي هذا الحديث، هو ما قاله العلماء في مدلول (إمام) المتقدم، حيث أنه بمنصوصه ينطبق على الأئمة والولاة، ويدل بمعناه على كل من ولي أمرَ أي عمل، ودخل ضمنه الرجل والمرأة في أولاده وفي بيتها.

فهنا نقول: إن التعلق بالمسجد لا لهيكله ومكانه، ولكن لأداء الصلوات، وذكر الله، وانتظار أول وقت كل صلاة، وأدائها في الجماعة.

ولو اعتبرنا لفظ (بالمسجد) على الإفراد، ومدلوله اللغوي موضع السجود، وأن للمرأة أن تتخذ من منزلها مكاناً لصلاتها ويسمى مسجد البيت، تحافظ على نظافته، أو تعد فراشاً خاصاً لصلاتها وحيث تيسر لها صلَّت. أي عنايتها بالصلاة وعلى أول وقتها كما يشير إليه بعض ألفاظ الحديث في بعض رواياته: **«ورجل يراعي الشمس لمواقيت الصلاة»**. فهذا العمل قطعاً تشارك المرأة فيه الرجل. أما اتخاذها مكاناً وفراشاً للصلاة فقد جاءت السنة بذلك.

من هذا حديث أم أنس: أتاها النبي ﷺ فصنعت له طعاماً ثم قال: **«أين تريدون أن أصلي لكم؟»** فقمت إلى حصير قد درس من طول المكث فنضحته بالماء فصلى لنا رسول الله ﷺ، وبينت كيف كانت صفوفهم خلف رسول الله ﷺ، فكانوا يتحرون الصلاة في ذلك المكان. وهكذا.

وبهذا يصدق الحديث على المرأة أيضاً التي تراقب الشمس لأداء الصلوات في أول وقتها، وإذا فارقت مكان صلاتها من بيتها لأعمالها في منزلها كان قلبها معلقاً بمسجدها لأداء صلاتها عندما يحين أداؤها حالاً.

وقلبه معلق بالمساجد:

على الألفاظ المتقدمة في إفراد المسجد وجمعه، وإسناد التعلق للقلب أو للرجل نفسه، فالكل واحد. ومعلق: إما من العُلقة بضم العين، وهو التعلق محبة ورغبة.

وذلك لما يجده من أنس وإيناس بذكر الله وطمأنينة قلب، وارتياح وحيوية. كما جاء في بعض الروايات: «**من شدة حبها**» فيكون مثله في ذلك مثل الحوت في الماء، بخلاف المنافق الذي يعتبر المسجد بالنسبة إليه كالسجن حتى يخرج منه. أو أن «معلق» من التعليق، كتعليق القنديل في المسجد. وكان قلبه كجزء من أجزاء المسجد متعلقاً فيه.

فهو حين يخرج من المسجد كأنه يخرج ببدنه أما قلبه فيبقى في المسجد معلقاً به حتى يعود إليه كتعليق السرج أو المصاحف أو نحو ذلك.

وعليه فهو على معنى: أنه إذا أدى الصلاة وانصرف لعمله، كان لأداء واجب عليه يحتم وضعه في الحياة، أما ارتياحه وطمأنينته فحيث المكان الذي فيه قلبه معلق. ومن معاني التعلق: بمعنى المحبة، ما قاله الشاعر:

علقتها عرضاً وعلقت غيري   وعلق أخرى ذلك الرجل

وقد جاء في فضل الصلاة على أول وقتها الحديث: أي العمل أفضل يا رسول الله؟ فقال: «**إيمان بالله**». فقيل: ثم أي؟ قال: «**الصلاة على أول وقتها**».

٢ ـ ارتباط هذا الصنف بالذي قبله:

قدمنا بيان مدى ارتباط القسم الثاني من أصناف هذا الحديث بالذي قبله وظهر لنا مدى تأثير الإمام العدل في الشاب الذي نشأ في عبادة الله.

وهنا يظهر أيضاً مدى ارتباط هذا الصنف الثالث الذي هو التعلق بالمساجد بالصنف الذي قبله، والذي هو شاب نشأ في عبادة الله.

وذلك أن نشأة الشاب في عبادة الله أولى ما سيكون لها هو المسجد، وبمداومته ارتياده وتردده عليه ستورث قطعاً تعلقه به، زيادة في حرصه على أداء الصلوات في الجماعة، وهي عماد الأمر وعمود الدين.

٣ ـ أثر هذا الصنف على المجتمع:

إن تعلق العبد بمواطن العبادة سواء كان رجلاً أو امرأة لهو أثر من آثار طاعته لله والتزامه بأوامره. فيكون هذا العبد من خيرة عباد الله، ولا سيما المتعلق بالمسجد، كما قال ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالخير**».

كما أن هذا العامل يعتبر ضماناً للبقاء على هذا الدين، وحفاظاً على أهله. لأن آخر ما يترك الناس من أمر دينهم الصلاة. ولأنه ﷺ كان إذا أراد أن يُغِيرَ على قوم صبَّحهم، فإذا سمع الأذان كف عنهم.

ومن أهم الآثار تطهير المجتمع من مظاهر الفحشاء والمنكر بعامل أثر الصلاة في المصلين. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كما تجعل عند أفراد المجتمع دوام الاستعانة بعبادة الله على قضاء حوائجهم كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

وكذلك يعود على المجتمع بالترابط والتعاون عن طريق اللقاءات المتكررة في الصلوات بالمساجد. فيجعل من المجتمع أمة مترابطة كالبنيان المرصوص.

وستغرس في النفوس أحاسيس المساواة في نظر الإسلام بين جميع أبناء المسلمين حينما يقف تارة بجانب غني وتارة بجانب فقير، ومرة بجانب شيخ كبير، وأخرى بجانب شاب صغير، والكل بين يدي الله سواء.

والذي قلبه معلق بالمسجد يكون لسانه دائم الذكر لله، جوارحه منقادة لأمر الله. فيكسبه ركن الإحسان: يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فيعلم أن الله يراه.

وبالتالي فإن تعلق قلبه بالمسجد سيبعده وينفره عن موارد مواطن اللهو واللعب، ومثار الفتن والمعاصي، فلن يكون في وقته متسع لمجالات مضادة: من قول أو فعل حتى ولا تفكير، لأن معنوية المسجد تملأ عليه حسه وشعوره.

٤ ـ رسالة المسجد:

لعل هذا الإيراد يبرز لنا بوضوح رسالة المسجد إذ كان من آثاره إيجاد هذا الصنف من الأمة ويتأثرون في المسجد إلى هذا الحد. وعليه فنورد لمحة عن أهمية رسالة المسجد وبإيجاز، فنقول:

لم يشهد العالم كله رسالة مرفق من مرافق الأمم كما شهد من رسالة المسجد في الأمة الإسلامية. لأنه ليس مجرد مكان للسجود كمعبد للصلاة والذكر والعبادة فحسب. بل هو معبد، ومعهد للعلوم، والدراسات، دراسةً وتدرباً وإرشاداً وتوجيهاً.

ففي رحابه تعقد حلق الدروس، ومن على منبره تلقى الخطب والمواعظ، والإرشادات في مهام الأمة الإسلامية بما يصلح دينهم ودنياهم. وبه تعقد اجتماعات ذوي الرأي للتشاور فيما ينوبهم. وكان في سابق أمره مقر قيادة الجيوش الإسلامية. ومجلس قضائها، ودار فتواها، ومأوى غربائها، ومنزل ضيوفها، ومستقبل وفودها، وبيت مالها، ومصح جرحى خواص قادة جنودها. بل ومنتدى أدبائها وشعرائها إذا كان لنصرة دين الله وتشجيع جند الله. وقد نصب كرسي لحسَّان فيه يهجو المشركين. وقام فيه شعراء وخطباء وفد بني تميم ورد عليهم خطباء وشعراء رسول الله ﷺ، فكانت المساجد في صدر الأمة هي بحق دور الأمة بالمعنى العام الذي تشمل جميع مرافقها.

وبالتالي فإن من تعلق قلبه بالمسجد وكان من المواظبين على الصلوات فيها لن يحرم مشهد خير من تلك المشاهد، سواء من درس علم، أو سماع فتوى، أو لقاء وفد، أو إكرام ضيف، أو حضور مشورة في خير... إلخ.

٥ ـ عناية الإسلام بالمساجد:

لقد عني الإسلام بالمساجد من أكثر من ناحية: سواء في بنائه ومكانه وموقعه، أو نظافته وتكريمه. وسواء في نوع بنائه أو تعدد مرافقه. فقد كان المسجد أول حركة عمرانية ومنبع عرفان، ومعقل أمان على وجه الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]. إن بناء إبراهيم عليه السلام

لم يكن إلا رفعاً للقواعد التي سبق وضعها بدليل أنه ﷺ أول ما جاء بهاجر وإسماعيل معها طفل رضيع. قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وذلك قطعاً قبل بنائه للبيت لأن بناءه كان بمشاركة إسماعيل كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أي بعد أن كبر إسماعيل وأصبح في استطاعته مشاركة أبيه في البناء فكان عمل إبراهيم وإسماعيل عمل تجديد لا تأسيس، بدليل قوله: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ ولم يقل: المكان الذي سيبني فيه البيت، وقوله: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ ولم يقل: يضعها. فكان المسجد أول حركة عمرانية، ومنطلق هداية، ومعقل أمن، وكذلك هو اليوم بحمد الله.

وعليه فقد جعل عمر رضي الله عنه المسجد قصبة المدينة، ينطلق من ساحته عمرانها حينما أراد تأسيس الكوفة، فأمر عامله أن يختار رجلاً رامياً من جنده فيقف في وسط المكان الذي وقع الاختيار عليه ثم يرمي إلى الجهات الأربع فيختط المسجد في موقفه. ويسمح بالبناء وراء مواقع النبل ويجعل حول المسجد ميادين من جهاته الأربع.

والنبي ﷺ أول ما وصل قباء وقبل أن يستقر به المقام بدأ أول ما بدأ ببناء المسجد، ولما وصل المدينة واستقر مؤقتاً في دار أبي أيوب رضي الله عنه شرع في بناء المسجد وقبل أن يبني حجرات زوجاته.

ولقد كان لهذين المسجدين الأسبقين فضيلة لم تكن لغيرهما من بعدهما: فكان الأول موضوع الآية الكريمة: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وجعل ﷺ لمن تطهر في بيته، وأتى إليه وصلى فيه ركعتين، كان له بهما كأجر عمرة.

أما المسجد النبوي فجعلت فيه الصلاة بألف صلاة. وصلاة أربعين صلاة متوالية براءة من النار ومن النفاق. ويكفي أنه ﷺ شارك في بنائهما مشاركة فعلية بحمل أحجاره ونقل مؤن بنائه.

وهكذا تتابعت عناية الخلفاء والأمراء وولاة الأمور ببناء المساجد وتسابقوا في العناية بمرافقه وخاصة للدراسة الدارسين والمدرسين.

تنبيه:

مما تجدر الإشارة إليه في هذا الموطن من الحديث ما يسمى عند الأصوليين: بدلالة الإيماء والتنبيه؛ وهو أن قوله ﷺ: «**ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منها حتى يعود إليها**» وهو أنه لا يُلْزم أحداً المكث في المسجد وملازمته وترك مزاولة الأعمال الأخرى، بل فيه الإشعار بأن هذا الرجل مع تعلقه بالمسجد فهو يسعى في مناكب الأرض ويعمل فيستفيد ويفيد، فهو رجل دنيا ودين، فإذا نودي للصلاة سارع إليها وإذا قضيت الصلاة انتشر في الأرض. كما نص تعالى على ذلك في سورة الجمعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١٠].

وهذا المنهج هو الذي يصلح لعمارة الأرض وصلاحها، مع تحصيل سعادة الآخرة ونعيمها. وقد ذكر ﷺ عن عيسى عليه السلام: أنه دخل محرابه يوماً فوجد شاباً يتعبد، فخرج ثم عاد فوجد الشاب على حاله عدة مرات، فقال له: من أين تأكل؟ قال: من كد أخي. فقال له عيسى عليه السلام: قم فالحق بأخيك فأخوك أعبد منك.

وبالتأمل في هذا المنهج نجد سر توازن الحياة، وسر بقاء هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان. وبالمقارنة بينه وبين منهجي أهل الكتاب من اليهود والنصارى نجد الآتي:

أ ـ أما اليهود فقد غلبت عليهم ماديتهم فخسروا آخرتهم بإيثار دنياهم. كما جاء عنهم لما حُرِّم عليهم بعض الشحوم حملوها فباعوها وأكلوا ثمنها ولما حُرِّم عليهم صيد السمك يوم السبت وجاءتهم حيتانهم شُرَّعاً ألقوا شباكهم يوم الجمعة فعلق بها الحوت يوم السبت فأخرجوها يوم الأحد، وقالوا: لم نصطد يوم السبت. وهكذا تقاعسوا عن الجهاد وقتال من بالأرض المقدسة التي كتب الله لهم، مع وعد الله إياهم بالغلبة عليهم، وقالوا مقالتهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فكانوا ماديين غلَّبوا جانب المادة وأهملوا جانب الروح.

ب ـ والنصارى على العكس منهم ابتدعوا الرهبانية وعكفوا في الأديرة، فضيعوا دينهم، وأفسدوا دنياهم. فكانوا روحانيين، فأفسدوا الدنيا والدين.

أما الإسلام فجاء بهذا التوازن بين مطالب الدنيا ومتطلبات الدين. فأعطوا المادة حقها وأوفوا للدين حقه، فكان منهم التوازن بين عنصري الإنسان.

وكما قيل: الإنسان من مادة وروح، فللمادة حاجتها من مطعم ومسكن ولوازم الحياة، وللروح متطلباتها من عبادة وذكر لله.

فإذا ما توازن الجانبان اعتدلت كفتا الميزان، واستطاع العالم مواصلة السير إلى الغاية التي جاء إلى الوجود من أجلها.

وإذا غلبت جهة على جهة فسدت وأفسدت الجهة الأخرى. فزيادة جهة المادة بالإسراف والترف والإفراط وهذا مفسد للدنيا لعزلها عن الدين. وزيادة التعبد على ما شرع الله، رَهْبَنَة تفسد الدين وتضييع الدنيا، لعزله عن الدنيا.

فكان الإسلام في ذلك وسطاً بين طرفي إفراط وتفريط، كما قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

وجاء الحكم من الله لهذه الأمة بقوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. لأنها لاءمت بين الدنيا والدين معاً، فجعلت الدين يُسيِّر الدنيا، والدنيا تخدم الدين. وكان الإسلام بهذا صالحاً لكل زمان ومكان.

وفي النهاية يمكن أن نقول: إن عامل الضمان في هذا كله يكمن في هذه الجملة **«وقلبه معلق بالمساجد إذا خرج حتى يعود إليها»**. وبالله تعالى التوفيق.

٦ ـ حقوق المساجد علينا:

بقدر ما يعطي المسجد من عطاء جم، وخير وفير، بقدر ما له علينا من حقوق وواجبات.

وذلك من عدة جهات ليكون أهلاً لتعلق القلوب به، وهي خارجة عنه حتى تعود إليه.

الجهة الأولى: حسن اختيار موقعه من البلدة قبل بنائه.

١ ـ بناؤه: حث ﷺ على بناء المساجد وجعل لكل من بنى لله مسجداً مثله في الجنة.

٢ ـ مساهمة الولاة والمسؤولين في بنائه، كما ساهم ﷺ في بناء مسجدي قباء والمدينة.

٣ ـ التبسط في طابع بنائه حتى لا يخرجه عن طابع السماحة والبساطة والفطرة. كما نهينا أن «نحمر أو نصفر». والوعيد **«لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد»**.

٤ ـ العناية بنظافته وتطييبه: لتكريمه ﷺ للمرأة التي كانت تقم المسجد. ولحديث: **«عرضت عليّ أعمال أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد»**.

وقد رأى النبي ﷺ أثر نخامة في جدار القبلة فحتها بردائه ونهى ذلك الإمام أن يصلي لهم ثانية. وكان للمسجد مُجَمِّر يأتي بالطيب في المجمرة يطيبه.

٥ ـ النهي عن مخالطتها بروائح كريهة لحديث: **«من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مساجدنا»**.

٦ ـ العناية بحسن المنظر والنظافة فيها كالحث على الاغتسال للجمعة والأخذ من الطيب.

والجهة الثانية: إعماره وذلك على النحو الآتي:

١ ـ ترتيب المؤذنين والأئمة والخطباء والخدم له، ليكون مهيأً لاستقبال المصلين مع ترتيب الوقت وحفظ الصلاة وحسن التوجيه.

٢ ـ تنظيم الدروس للوافدين حسب مكانة المسجد وعدد المصلين.

٣ ـ توفير وسائل الراحة حسب الزمان والمكان من وسائل حديثة للتهوية أو التدفئة.

٤ ـ توفير الأجهزة الصوتية مع عدم المغالاة فيها أو التشويش.

٥ ـ حسن اختيار العاملين فيها ليكونوا على مستوى مسؤولية ما نتطلبه من المسجد.

٦ ـ إقامة المرافق بجانبه، مما تخدم الصلاة فيه: من توفير مياه للطهارة ولوازمها، ومكتبات، وخاصة لكتب التفسير مع مصاحف للتلاوة.

٧ ـ صالة عامة تكون لأهل القرية أو الضاحية يقيمون فيها اجتماعاتهم في كل مناسبة يحتاجون فيها إلى مكان فسيح تكون مزودة بما يلزم في ذلك، فإذا وفرنا ذلك لمساجدنا كانت بالنسبة للأفراد مهوى الأفئدة، ومرتع النفوس الطيبة، وروضة الأرواح الفاضلة. تفيض عليهم بالطمأنينة والارتياح، يتزودون منها العلم والأدب والتوجيه، وتكون للمجتمع كافة. بمثابة بيوت الأمة استكملت مرافقهم والإرفاق بهم.



الصنف الرابع

ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه

قوله ﷺ: **«ورجلان»** ظاهره اختصاص الرجال، وكذلك بالعدد المذكور. ولكن لا مانع من إرادة النساء إذا صح منهن ذلك، أو الرجل والمرأة من ذوي المحارم، أو غير المحارم إذا وجد بينهما هذا الحب في الله، لحسن دينه وفضله وصلاحه، لا لغرض من الأغراض. وكذلك بين الزوجين الصالحين، وكذلك لا مفهوم للعدد لأن جماعة الرجال إذا تعاهدوا على ذلك والتزموا به وأحب كل واحد مجموعهم فيما بينهم.

ولكن حيث جاء النص على الرجال لا بد أن يكون للرجل فضل اختصاص، لأن تحاب المرأتين قد يكون ألجأهما ضعف كل منهما للأخرى.

كما أن تحاب الرجل مع المرأة ولو من ذوي الرحم فقد يكون لاستغلال الرجل ضعف المرأة وإحساس المرأة بحاجتها إلى من تأوي إليه، وتكون تحت قوامته، ونحو ذلك ما يشوب هذا الحب في الله.

فبقي وصف الرجلين، لأن الغالب بحسب تساويهما واكتفاء كل منهما، يجعل لجنسهما مزيد اختصاص.

وقد يستشهد للعموم بقوله ﷺ: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يحبه إلا للهِ ...»** الحديث.

فلفظة (مَن) للعموم تشمل الرجل والمرأة ولا تقتصر على جنس دون جنس فَعُلِم أن قوله ﷺ: **«ورجلان»** خرج مخرج الغالب.

وقوله: **«تحابا في الله»** فهو على وزن تفاعلا، أصله تحاببا فأدغمت الباء في الباء وهو يدل على المشاركة وتبادل كل منهما صاحبه الحب في الله تعالى.

وهو أخص من قوله ﷺ في الحديث السابق: **«وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»**. لأن هذا حب من جانب واحد. وقد لا يكون المحبوب عالماً بمحبة الآخر له، أما هنا في هذا القسم فكل منهما محب ومحبوب، وقد جاء عن صاحب فتح الباري قوله: معناه أحب كل منهما الآخر حقيقة، وقال كل منهما للآخر: إني أحبك في الله، فصدرا على ذلك. والحب هو أقوى الروابط الإنسانية، سواء كانت محبة دنيوية أو دينية، فإذا ارتبط شخصان برباطة الحب لا تستطيع قوة أن تفرق بينهما، ولا تقطع علاقتهما فيما بينهما. ودافعة إلى أقصى مراتب السمع والطاعة إرضاءً لمحبوبه. وقد صور الشاعر هذا بقوله:

قالت وقد سألت عن حال عاشقها   بالله صفه ولم تنقص ولم تزد

فقلت لو كان رهن الموت من ظمأ   وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

فهذه نهاية الطاعة لم يأت بها إلا منتهى هذا الحب بين هذين الطرفين.

١ ـ داعي المحبة الفطري:

ودواعي الحب الفطرية كما قال القاضي عياض أربعة:

جلب النفع، أو دفع الضرّ، أو جمال الخِلْقَة، أو جمال الخُلُق.

فكل من جلب لك نفعاً أياً كان هو، فإن الطبيعة الإنسانية تضطر إلى محبته؛ كطبيب لا تعرفه ـ ولو كان غير مسلم ـ عالج لك مريضاً، أو إنساناً لم تخالطه أهدى لك هدية، أو غير ذلك.

وكل من دفع عنك مضرة: كمن أنقذك من مهلكة، أو دفع عنك ظلماً، أو رد عنك عدواً فإنك تجد في نفسك محبته.

وكل جميل في خلقته بشراً أو حجراً أو شجراً أو طيراً كالأحجار الكريمة، والزهور الجميلة، والطاووس في جماله، فإن النفس تميل بفطرتها إلى محبته، ودوام النظر إليه، وقد قالوا: ثلاثة يُذهبن عن القلب الحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن. وكذلك الصوت الجميل كصوت البلبل ونحوه. وكما قال بشار وهو أعمى:

يا قومِي أذني لبعض الحي عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحياناً

وقول الآخر:

وحديثها السِّحْرُ الحلالُ لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرِّزِ
إن طالَ لم يُمْلَلْ وإن هي أوجزتْ ودَّ المحدَّثُ لو لم توجِزِ

أما جمال الخلق وحسن الأدب ومكارم الأخلاق ولو من شخص لا تعرفه، ولم يسبق أن رأيته فإنه يغرس في نفسك ضرورة محبته، رجلاً كان أو امرأة، صغيراً كان أو كبيراً، غنياً أو فقيراً، دميماً في خلقته أو جميلاً.

تلك هي دواعي المحبة الفطرية، وهي كلها تنبعث من منطلق واحد وهو تحقيق رغبة ما، حساً أو معنى، قولاً أو فعلاً. فإذا انقضت تلك الرغبة انتهت تلك المحبة.

أما المحبة في الله فليست لها دوافع مادية، وإنما دافعها العامل المشترك بينهما وهو محبة كل منهما لله أولاً، ثم محبة صاحبه لحبه لله ثانياً، ومحبة الله دائمة بدوام الله ما لم يطرأ عليها ما يغيرها، ولا يكون إلا في معصية الله.

فالحب في الله أثر من آثار حب الله، وأثر من آثار الإيمان بالله، كما تقدم في الحديث: «**ثَلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**».

ولهذا فإن الحب لله دائم لا ينقطع كما قيل: ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل. فكم من اثنين ارتبطا بنفع مادي كشركة في تجارة فلما انقضت انقطع ترابطهما، بخلاف الحب في الله وهي المحبة الدينية.

أما المحبة الدينية: فقد ضرب صدر هذه الأمة أروع الأمثلة: ابتداءً من محبتهم لرسول الله ﷺ، ومحبة بعضهم لبعض، كما أبرز القرآن الكريم موقف الأنصار ممن هاجر إليهم من حب ووفاء، بل وإيثار على أنفسهم. ولما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين أنفسهم وبين المهاجرين والأنصار، كانت أخوة أقوى من أخوة النسب، حتى كانوا يتوارثون بها، ويؤثر أحدهما أخاه في الله على أهله وعشيرته.

محبة الله أولاً: وإذا كان التحاب في الله لا في شيء آخر فإنه لا يكون إلا بعد أن يحب كل منهما الله تعالى. أي أن حب الله أولاً ثم حب العبد لمحبته لله، فمحبته لله هي الأولى، ومنها محبة العبد لا يحبه إلا لله، وهذا إنما هو لمحبته لله.

وفي محبة الله يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

فمحبة الله هي الأولى ولذا قدمها هنا في الذكر: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وهذا الحب محض فضل من الله على عباده: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨]. فالفضل من الله أولاً بأن وفقهم لمحبته، فبفضله أحبوه.

وكذلك محبة الإنسان لأخيه في ذات الله، لا شيء سواه إنما هو أيضاً محض فضل من الله، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣] فهذا من أعظم نِعم الله على المؤمنين، وقد امتن بها عليهم، وذكرهم إياها في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبهذا يتبين الجواب عن السؤال الوارد عند الأصوليين عن التكليف بما لا يطاق، ونقاشهم حوله.

وحقيقة المسألة أن الأصل في التشريع لا يتوجه إلا لما هو في قدرة المكلف وما كان خارجاً عن طاقته لا يتوجه التكليف إليه على أساس قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فإذا ورد نص بتكليف ما ليس في قدرة المكلّف كان منصباً إما على مقدماته أو على نتائجه. وبيان ذلك كالآتي:

أ ـ جاء في الحديث: «**لا تغضب**» فهو نهي عن الغضب.

والغضب غريزة لا يمكن إبطالها ولا التخلي عنها، فكيف ينهى عنها؟ فقالوا: النهي منصب على نتائج الغضب وهو الانتقام، أو الظلم، أو أي تصرف آخر نتيجة للغضب، فعليه أن يكظم غيظه بقدر استطاعته، وعليه أن يكف عن عمل أي شيء يدفعه إليه غضبه.

ب ـ والحب والبغض أمور لا قدرة للعبد في تحصيلها ولا دفعها لأنها

أعمال القلوب والقلوب بيد الله، والتآلف بينها بنعمة من الله كما تقدم من قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾، وبقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] ولكن الله تعالى جبل القلوب على محبة من يُحْسنُ إليها، والرسول ﷺ بيّن المقدمات والأسباب التي تُبنى المحبة عليها، وتنشأ عنها، ألا وهي كل ما فيه مصلحة للآخرين كما تقدم في جلب النفع، ودفع الضرّ، وحديث: **«تهادوا تحابوا»**، وحديث: إفشاء السلام. ونحو ذلك مما ينتج المحبة بين الطرفين.

فاثنان تحابا في الله. أي بذل كل منهما موجبات الحب للآخر، لا لشيء إلا لوجه الله.

ومن هذا أيضاً، انطباع نفس المؤمن على محبة من يستقيم على أمر الله، وعليه: فإن الحث في هذا الحديث على هذا الجانب الذي في مقدور الإنسان أن يفعله.

٢ ـ آثار هذا القسم في الأمة:

أما آثار الحب في الله فأعظم من أن تُصور في كلمات، أو يعبر عنها في عبارات. ولكن للذكر لا للحصر نورد الآتي:

أ ـ محبة الله لهذين المتحابين كما في حديث: **«خرج رجل لزيارة أخ له في الله في قرية أخرى، فبعث الله ملكاً على صورة رجل لقيه على أبواب تلك القرية، فسأله إلى أين؟ فقال: لزيارة أخ لي هنا في الله. فقال: ما بينكما قرابة رحم ولا شراكة مال؟ قال: لا. إنما هو الحب في الله فقط. فقال له: أبشر فقد أحبك الذي أحببته فيه»**.

ب ـ هذا الوصف الذي وصف الله به أصحاب محمد ﷺ معه في التوراة والإنجيل مثلاً لبني إسرائيل، في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا التلاحم

والتراحم إنما هو من آثار هذا الحب في الله، فهم مشتركون في ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وهم مجتهدون في ابتغاء رضوان الله وفضله. وهذا التآزر والالتفاف والترابط والالتحام من آثار هذا الحب في الله لا لشيء آخر.

٣ ـ عناية المصطفى ﷺ بهذا النوع من الترابط بين المسلمين:

ولما كان هذا العمل ـ وهو المحبة في الله ـ له هذا الأثر، كانت عناية المصطفى ﷺ به قوية، وحرصه عليه عظيم، ومبادرته إليه لأول وهلة:

فمنذ قدم المدينة وقد اجتمع إليه أجناس الناس مهاجرون وأنصار، وعرب وعجم فما من عمل قدمه على عقد المؤاخاة بين المسلمين: بين المهاجرين أنفسهم، وبينهم وبين الأنصار، وبين بلال الحبشي، ..... فكانوا بها أقوى من أخوة النسب، بها يتوارثون، وفيها يتفادون.

أما الإيثار: فكما سجل لهم القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وروى ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية: أن رجلاً أهدى رأس شاة لأهل بيت، فقالوا له: اذهب بها إلى أهل بيت فلان لعلهم أحوج إليها منا، فذهب بها إليهم فقالوا له: اذهب بها إلى بيت أهل فلان لعلهم أحوج إليها منا، وهكذا كل بيت يرسله إلى غيره حتى طاف بها على سبعة بيوت وانتهى إلى البيت الأول.

وفي وقعة القادسية: حينما انطلق رجل بقدح من الماء يبحث عن ابن عم له لعله يجده في الجرحى فيسقيه، فلما عثر عليه وهو في الرمق الأخير سأله: هل تريد الماء؟ فأومأ إليه: أي نعم. فلما أهوى بالقدح إليه سمع أنيناً لرجل بجواره فقال له: اذهب به إليه لعله أحوج إليه مني. فذهب إليه ليسقيه فما وصله إلا وقد فاضت روحه، فرجع إلى الثاني فوجده كذلك فرجع إلى ابن عمه فوجده قد مات.

مات الثلاثة والماء في القدح على كفه، كل كان يؤثر غيره على نفسه، وفي تلك الحالة الحرجة. فما كان لقوة ولا لرابطة أن تفعل هذا إلا المحبة في الله تعالى، وإيثار ما عند الله على ما عند الخلق.

وهذا عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول صحابي جليل، أبوه رئيس المنافقين، في عودتهم من **بني المصطلق**، ومقالة ابن أُبي: ما نحن وأنتم - يعني المهاجرين - إلا كمثل القائل: سمن كلبك يأكلك. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. يدعي العزة لجماعته ولنفسه. وبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فغضب وسار بالقوم في وقت لم يكن يسير في مثله، وهو وقت القيلولة ليشغل الناس بالمسير.

فلما وصلوا أبواب المدينة وقف الابن الصالح المؤمن المحب لله ولرسوله وللمؤمنين، وقف بالطريق حتى أتى أبوه فأمسك بزمام ناقته واستل سيفه وأقسم بالله على أبيه لا يدخلنها إلا بإذن من رسول الله ﷺ، حتى يعلم أنه هو الأذل، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. فما دخلها حتى وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه أن قد أذنّا له.

وفي غزوة أُحُد: جاء أحد أبناء أبي بكر الصدّيق مع جيش المشركين قبل أن يسلم وخرج في المبارزين وقال: من يبارز؟ فكان أول من نهض ليقوم إليه هو أبوه، أبو بكر رضي الله عنه حتى أمسك به رسول الله ﷺ وقال له: أبقِ لنا نفسك يا أبا بكر.

إنها قوة التآخي في الله ذابت أمامها روابط النسب والحسب والعصبية. تلك المحبة هي التي جعلتهم كالبنيان المرصوص لا ينفذ منه سهم لعدوهم.

وجعلتهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

٤ - بقاء هذا الحب في الله:

وهذا الحب في الله كما أظلهم الله تعالى بنعمه ورحماته في تعاطفهم وتراحمهم به، فكذلك يصاحبهم يوم العرض على الله، يوم الفزع الأكبر، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت. يوم تدنو الشمس من الرؤوس، ويلجم الناس بالعرق، يكون أصحاب هذا الحب في الله في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

ثم وبعد الفصل بين الناس يصحبهم إلى فسيح جنات النعيم، على سرر متقابلين. كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

وهناك تذوب وتتلاشى كل محبة أو خِلة، وينقطع كل نسب وقرابة إلا المتحابين في الله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]. والمتحابون في الله من أوائل المتقين. وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ومثل ذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦]. وقوله تعالى فيما هو أبعد من ذلك: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٥] فكل تلك الروابط تذوب وتضمحل إلا الأخوة في الله سبحانه.

وقوله ﷺ: «**اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»: وأما على هذا الحب في الله، فكما كان هو عامل اجتماعهم، كان عامل دوامهم عليه، لا ينقلهم عنه عامل آخر، ولو تجددت روابط أخرى: كمصاهرة أو متاجرة أو أي رابطة أخرى، فيظل الحب في الله هو الأساس. «**وافترقا عليه**»: أي ولو فارق بعضهم بعضاً بسفر أو حتى يموت، كان افتراقهم عن بقاء الحب في الله.

والاجتماع هنا اجتماع مبدأ وليس باجتماع الجسم، فهما متحابان في الله ولو افترقا إلى الأبد، ما دام كل منهما يبادل أخاه هذا الحب. كما جاء عن الصدّيق رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]. قال: آمنوا بالله، وداموا على ذلك حتى ماتوا.

وقد يقال في «**افترقا عليه**»: أي أنه إذا أحدث أحدهما ما لا يُرضي الله، فارقه الآخر، فإذا عاد إلى الله وإلى ما يرضي الله عاد إليه، فيكون حب الله هو العلة، يدور معها ترابطهم وجوداً وعدماً، والله تعالى أعلم.

٥ ـ عوامل تقوية هذا الحب في الله وبقائه:

تقدم أن الحب عمل القلب، وليس في طاقة المكلف إيجاده، وإنما يتوجه التكليف إلى أسبابه وموجباته والحفاظ عليه بعد وجوده.

وكما عنيت السنة المطهرة على إيجاد المؤاخاة في الله والحب في الله فقد

عنيت أيضاً بما يقوِّيها، ويديم بقاءها، ويحافظ عليها، وذلك من جهتين:

أولاً: جهة درء المفاسد:

بالنهي ومنع كل ما ينافيها حتى إذا ما تهيأ القلب لها، جاء بعوامل تنميتها والإبقاء عليها.

وذلك في منهج متكامل في سورة الحجرات بعد الأمر بالإصلاح بين المتخاصمين في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ لعدم بقائهما على النزاع والقتال ولو كان ذلك بالقوة ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾.

ثم إجراء الصلح بالعدل والقسط ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وذلك لأخوة الإيمان وهو محل الشاهد ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ بهذا الصلح الذي أساسه العدل والقسط.

ثم نهى عن إثارة النزاع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي المعتدون.

وهذه عوامل ظاهرة في السخرة والتنقص بالقول أو بالفعل، أو الغمز واللمز. ثم نفذ إلى الأعماق فنهى عن بعض الظنون السيّئة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ الآيات [الحجرات: ٩ ـ ١٢].

وهنا مراحل ثلاثة تدفع بعضها إلى بعض:

أ ـ سوء الظن وهو عمل نفسي لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

ب ـ ثم تتبع ذلك بالتجسس ليحقق ما ظنه، وفيه تتبع بخفاء لا يعلم به غريمه.

جـ ـ فإذا ظفر بشيء مما ظن به من السوء أشاعه في غيبة صاحبه. والقضاء على ذلك كله من أول وهلة، هو عدم سوء الظن بأخيه المسلم.

ثم ردهم إلى أصل خلقتهم وأنه ليس فيه ما يستوجب سخرية أحد بأحد

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ ثم وضع لهم ميزان الحقيقة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وبعد القضاء على تلك العوامل وردهم إلى أصل وجودهم وتساويهم فيه كما قال علي رضي الله عنه مصوراً هذا التساوي حقيقة في قوله:

النـاسُ مـنْ جـهـةِ الـتـمـثـيـلِ أكـفـاءُ ... أبـوهُـمُ آدمٌ والأمُّ حـواءُ

فـإن يَـكُ مـنْ شـيءٍ يـفـاخـرون بـه ... فـإنـمـا هـو الـطـيـن والـمـاء

ومعلوم أنه ليس في هذا ما يفاخر به وإنما المفاخرة حقاً فيما يكتسبه العبد من تقوى الله تعالى.

وبعد هذا تأتي الوجهة الثانية:

ثانياً: جلب المنافع:

من ذلك:

أ ـ إفشاء السلام كما جاء في الحديث: «**والله لن تدخلوا الجنة حتى تحابوا، ألا أدلكم على عمل لو فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**».

ب ـ تبادل الهدايا ولو قليلاً: كما جاء في الحديث: «**تهادوا تحابوا**».

جـ ـ وأعظم من هذا كله ويجمع الجهتين مقابلة الإساءة بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

وختاماً لهذا نسوق هذا الحديث كما أورده صاحب مجمع الزوائد تحت هذا العنوان: باب المتحابين في الله عز وجل، عن أبي مالك الأشعري أنه جمع قومه.. فذكر الحديث إلى أن قال: ثم إن رسول الله ﷺ لما قضى من صلاته أقبل علينا بوجهه فقال: «**يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله**»، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ناسٌ من المؤمنين؟ ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم، انْعَتْهُم لنا، حلِّهم لنا ـ يعني صفهم لنا، شكلهم لنا ـ فَسُرَّ وجه رسول الله ﷺ بسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «**هم ناس من أفناء**

الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». رواه أحمد والطبراني بنحوه.

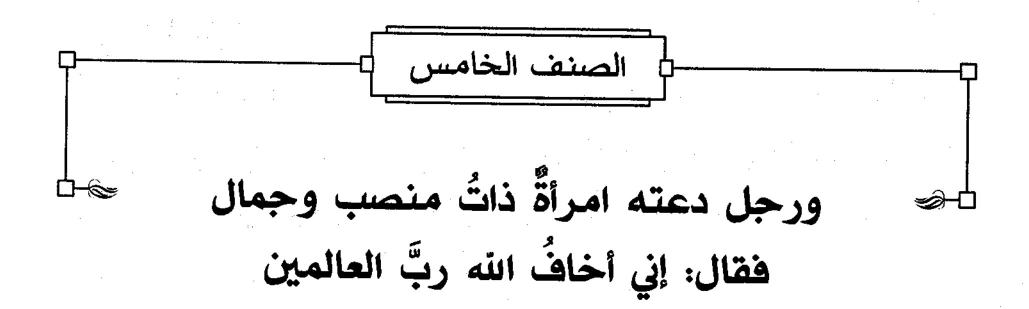
ومما يلحق بالمتحابين في الله ما جاء في حديث أبي مسلم الخولاني في دخوله مسجد حمص ولقائه بمعاذ بن جبل وإخباره إياه فقال: قلت له: والله إني لأحبك لغير دنيا أصيبها منك، ولا قرابة بيني وبينك، قال: فلأي شيء؟ قلت: لله تعالى، قال: فنثر حبوتي ثم قال: فأبشر إن كنت صادقاً فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المتحابون في الله تبارك وتعالى في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء**». ثم خرجت فألقى عبادة بن الصامت فحدثته بالذي حدثني معاذ، فقال عبادة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**حقت محبتي للمتحابين فيَّ** - يعني نفسه - **وحقَّت محبتي للمتناصحينَ فيَّ، وحقت محبتي على المتزاورين فيَّ، وحقت محبتي على المتباذلين فيَّ، على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون**». وقد ساق صاحب مجمع الزوائد شيئاً كثيراً من ذلك في (١٠/ ٢٧٦) فارجع إليه.

٦ ـ ارتباط هذا القسم بما قبله وتأثره به:

لقد ظهر ارتباط كل صنف بالذي قبله، كارتباط الشاب الناشئ في عبادة الله بعدالة الإمام، وارتباط التعلق بالمساجد بالشباب الناشئ في طاعة الله.

فكذلك هنا يرتبط هذا الصنف وهو المتحابون في الله بالذي قبله، وهو التعلق بالمساجد، لأن في ارتياد المساجد لقاءات عديدة ومُصَافَّة في الجماعة ومجالسة بعد الصلاة وفي انتظار الصلاة.

وبالتالي فتكون المؤانسة والمعرفة، ومن المعرفة المحبة ومن ثم تكون المؤاخاة وفي هذه الحالة تكون المحبة خالصة لله، لا شيء سواه، إذ المساجد إنما بُنيت لذكر الله وما والاه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧]. وعليها وفيها يتحابون. وبالله التوفيق.



الصنف الخامس

ورجل دعته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال: إني أخافُ الله ربَّ العالمين

في رواية البخاري: **«ورجل طلبته امرأة»**. وذكر ابن حجر رواية: **«دعته»** عن يحيى القطان وأنها رواية مسلم. وهو للمصنف، أي للبخاري في الحدود.

فيكون اللفظ دائراً بين: **«دعته»** و**«طلبته»** وكلاهما صحيح. ودعته: تكون بمعنى راودته على نفسها. وطلبته لتزوجها.

١ ـ معنى ذات منصب وجمال:

وذات منصب: من معاني المنصب: العلم في الفلاة ينصب، أي يقام.

وذات منصب: أي رفيعة الشأن ليس من سِطَةِ الناس.

وفي رواية: **«ذات حسب وجمال»**، وهذه تفسر الرواية الأولى ذات منصب.

وأصل الحسب مأخوذ من الحساب والعدد، لأن الحسيب يُعَدِّد ويحسبُ مفاخر يعتد بها من أمجاد آبائه، ومفاخر أجداده، سواء كانت مالية، أو معنوية فتشمل كل ما يشرف به.

أما الجمال: فإن جمال كل شيء بحسبه، وجمال كل امرأة نسبي، سواء بالنسبة إليه أو إلى من يراها، ولكن القدر المشترك هو جمال الخلقة وحسن الصورة. سواء انضاف إلى ذلك حسن الخلق، وعذوبة الحديث، ورقة الطبع، ولين الجانب، وحسن المؤانسة، مما يزيدها جمالاً. فقد جاء التنويه عن جمال المرأة في حديث تنكح المرأة لأربع: **«لجمالها»**. ولا شك أن الجمال في كل جنس له مقاييسه وسماته.

وإن أجمل جمال المرأة ما كان في إطار الفطرة الجبلّة بدون استجلاب ولا تصنيع كما قيل:

حسن الحضارةِ مجلوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفي البداوة حسنٌ غَيْرُ مَجْلوبِ

فمن النساء من إذا نظرت إليها نفذت صورتها إلى السويداء بدون مدفع لها، ولا تستطيع تعليل موجب هذا النفوذ إلا أنها جميلة حسناء.

كالطاووس إذا نظرته لا تملك أن تصرف النظر عنه، ولا تدري أهو لِجمال ألوانه الزاهية المجتمعة، أم لموضع نقشها في جناحيه، أم لزهوه بنفسه حين يرى انعكاس الشمس على ريشه. إنه الجمال وكفى.

وجاء عن محمد بن داود الظاهري قوله:

وما الحُبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنهُ شيءٌ به الروحُ تَكْلَفُ

ولكن الجميلة الحسيبة هي الغاية عندهم، كما جاء عن الحجاج أنه كتب إلى الحكم بن أيوب: أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة: جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مؤاتية لبعلها. فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها. فكتب إليه: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثديها، فتدفئ الضجيع وتروي الرضيع.

وروي عن عبد الملك بن مروان أنه قال لرجل من غطفان: صف لي أحسن النساء: قال: خذها يا أمير المؤمنين، ملساء القدمين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفاء الخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العرنين، شنباء الثغر، محلوكة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال: تجدها في خالص العرب، وفي خالص الفرس. وكما قيل:

هيفاءُ فيها إذا استقبلْتَها صَلَفٌ عبطَاءُ غامضةُ الكعبينِ مِعْطارُ

خودٌ من الخَفِراتِ البيضِ لم يرها بساحةِ الدارِ لا بعلٌ ولا جارُ

فذات الحسب والجمال هي محط أنظار عظماء الرجال. أما تفاصيل جمال المرأة فكما وصفها الغطفاني وأرشد إلى مواطن وجودها.

وقد تختص بعض الأجناس بنوع من جمال المرأة في جانب من جوانبها كما قال الشاعر:

عراقية الأطرافِ نجديةُ الحشا حجازيةُ العينينِ مَيَّاسَةُ القدِّ

فإذا اجتمع لامرأة كل أو بعض هذه الصفات ثم هي تعرضت لرجل ودعته لنفسها، أي عرضت نفسها عرضاً، وكفَته مؤنة تذليلها وترغيبها وإغرائها به، مما قد يتعذر عليه حتى الوصول إليها ورؤيتها أو التحدث معها، لعلو منصبها، ومفاخر حسبها، واعتدادها بجمالها، وصَلَفها في نفسها. فإذا هو يراها بين يديه، تقدم نفسها إليه، وتطلبه هي، وتدعوه إلى نفسها، ولم يكن عليه هو إلا أن يستجيب لطلبها.

علماً بأن ذلك لن يكون منها إلا في خلوة تامة وبُعْدٍ أكيد عن الرقباء من أهل أو خدم وحشم لمثلها. أي توفرت الدواعي في جمالها وحسبها، وانتفت الموانع من رقباء وحراس، فلم يبق إلا وازع الإيمان وخوف الله تعالى.

إنه العامل الوحيد الذي يقف أمام عوامل الإغراء هذه. وهي عوامل تقف معها القوى الفطرية: النفس، والهوى، والميل الطبيعي، والرغبة الجنسية. تنهار أمامها قوة الأبطال، وتُضل فيها كل وسائل الاحتيال، ولا يصمد أمامها إلا نوادر الرجال. أولئك الذين يربط الله على قلوبهم، ويبصرهم عواقب أمورهم، ويعصمهم من زلة الشيطان. وما ذلك إلا بالعامل الوحيد، الذي هو مخافة الله تعالى، فيعلنها في ثبات وينطق بها من الأعماق: إني أخاف الله رب العالمين.

هذا الخوف الذي يورث أماناً فتهون أمامه كل المخاوف، وتذوب في ظله كل الملذات، ويكون السلطان للعقل والروح والإيمان، وليس للعاطفة والجسد والغرائز. هناك يتسامى ويتخطى حواجز الطبائع، والمستوى الأدنى، ويتعالى إلى منازل السؤدد، حيث المرتقى الأعلى.

أما قول من قال: إن معنى دعته: أي لزواجها، فإن فيه بعداً، لأن سياق الحديث في الإشارة بالعفة.

ولأن ذات المنصب والحسب والجمال قلما تدعو الرجال لزواجها، بل هم الذين يسعون إليها سعياً. واحتمال مخافة الله من التقصير في حقها غير واردة لأن مخافة الله لازمة في حق كل زوجة.

وفي قوله ﷺ: **«ورجل دعته امرأة»**. تنصيص على أحد الجانبين وهو الرجل. فلا يمنع إرادة الجانب الآخر أيضاً: وامرأة دعاها رجل ذو منصب وسلطة مع جمال الخلقة أيضاً. لأن الدافع مشترك، والمقصد متحد، والغريزة عندهما معاً.

وذلك بدليل قصة النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانسد عليهم بالصخرة التي وقعت على فم الغار، ولم يستطيعوا تحريكها حتى ظنوا الهلاك، ثم عمدوا إلى التوسل إلى الله بأرجى عمل عمله كل واحد منهم.

فقام أحدهم فتوسل ببرٍّ والديه، وقيامه طيلة الليل والحليب في يده ينتظر قيامهما ليسقيهما، ولم يرد إيقاظهما من نومهما فيسيء إليهما، وأولاده عند قدميه جياع، فلم يعطهم شيئاً قبل والديه حتى طلع الفجر.

وقام الثاني فتوسل بحفظ حق أجير كان عنده، وترك أجر يومه استقلالاً له وهو قدح من شعير فنمَّاه له حتى صار وادياً من النعم، فلما أعوز العامل رجل يطلب ما كان استقله، فأعطاه تلك النعم كلها. فكانت الصخرة تتزحزح قليلاً قليلاً.

ثم قام الثالث فتوسل بعفته عن ابنة عمه فقال: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها أشد ما يحب الرجل المرأة، فطلبتها فامتنعت علي، ثم إنها أخذتها السنون فجاءت تطلب مني مائتي دينار، فطلبتها على نفسها فامتنعت، ثم أجابت مضطرة، فلما قعدت منها مقعد الرجل من المرأة، غطت وجهها وقالت: يا هذا اتق الله ولا تفضنَّ الخاتم إلا بحقه. فقمت عنها وتركت لها المال، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون في الأرض.

إنه موقف ليجلُّ عن الوصف، وعمل يفوق التصوير. لا يتأتى إلا ممن عصمه الله في هذا الموقف، عمل حينما توجه إلى الصخرة أزاحها، عمل أقوى من قوى النفر الثلاثة مجتمعين، حيث عجزوا عن دفعها عنهم. ولكن هذا العمل الجليل لما صدر عن هذا الإنسان تحت سلطة مخافة الله، أزاح الصخرة، ولو توجه إلى جبل لأزاحه عن مكانه.

إن هذا العمل لهو فعلاً أشق على صاحبه من حمل الصخرة العظيمة، لو

كان يطيقها، لأنها قوة منبعثة من شعوره وإحساسه وإيمانه. وليست من عضلاته وأعضائه.

وقد صور لنا الحديث النبوي نوعاً من القوة، ولكنها قوة على الإنسان في نفسه بدون مدافعة خارجية، وذلك في قوله ﷺ: «**ليس القويّ بالصُّرعَةِ**» أي الذي يصرع غيره ويتغلب عليه، «**إنما القوي من يملك نفسه عند الغضب**».

علماً بأن الغضب إثارة في داخله منبعث من نفسه، فهو أقدر على تملكه ممن يقوى أمام عوامل من خارج نفسه، عوامل من شخص آخر امتلك كل عوامل الغلبة للحس والشعور، فيملأ عليه بصره فلا يرى أجمل منه، ويملأ عليه قلبه فلا يدع فراغاً لغيره، ويتملك عليه حسه وتفكيره، فلا يتركه يفكر في غير الحصول عليه، والاستجابة له، فهو كأسير أمره بيد من أسره، بل وأشد، لأن الأسر تغلب على الجسم دون الروح والعقل.

فإذا اجتمع الإغراء بكل عوامله، والتمكين بكل لوازمه، والاستسلام النهائي، ومشاركة الفعل حتى يجلس منها مجلس الرجل من المرأة، ثم هي تستحيي من الله فتذكره، وتنبه ضميره، ولم تفقد حسها وصوابها، ولم يغب عنها خوف الله، ولم تصمَّ سمعها عن نداء العفة والكرامة، وإن خالطه نداء الفاقة والحاجة.

وهو أيضاً لم يغلق قلبه عن سماع ندائها، ولم يغمض عينه عن وشاح حيائها، فما إن ذكرت له التقوى، وذكرته حق الخاتم في حفظه، والحفاظ عليه إلا بما أحله الله، حتى نهض من مقامه، وانتزع نفسه من مكانه كانتزاع الروح من الجسد، فما هو إلا التسامي والكمال الإنساني، استُل منه نازع الهوى، وسمحت به نفسه بما أعطاها من مال، كان قد ضنَّ به. لقد تحولت نفسه في مسلكها، وانصرف قلبه في اتجاهه، وكانت الغلبة في النهاية لمخافة الله رب العالمين.

إنها لم تعمد إلى قوة تدفعه، ولا قدرة تدافعه، إنها كلمات من قلب مؤمن: يا هذا.. اتق الله، ولا تفضنَّ الخاتم إلا بحقه!

كلمات صادقة، وعبارات حية مشعة، نفذت إلى أعماق قلبه، وهزت مشاعر حسه، فأذابت لواعج حبه، وغطت نوازع نفسه، فذهب عنه كل ما كان يدفعه إليها فاستجمع قواه وقام عنها.

لا شك أن هذا الموقف يؤكد شمول هذا الحديث للجنسين معاً، وأن موضوعه العفة، وإن موقفها هنا لا يقل عظمةً واقتداراً عن موقفه، وكلاهما أعظم من صاحبه، فحري بهما أن يكونا رفيقين في ظل الرحمٰن يوم لا ظل إلا ظله.

وفي قصة نبي الله يوسف عليه السلام تمام التصوير لهذا الموضوع من جانب منطوق الحديث: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال**»، فليس فوق منصب الملكة منصب، كذلك الظن بجمالها وهي في سلطانها وفي مأمن على نفسها، وأملك بزمام موقفها، تتهيأ له وتلجئه إليها، وتقسره عليها، حتى تشق قميصه وهو هارب عنها، وقد عبر القرآن الكريم عن عوامل النفس الخفية فأبرز همَّ النفس من كل منهما: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، والهم منها كان عزماً أكيداً، والهم منه خواطر النفس ونداء الغريزة حسب التكوين البشري، وهذا يدل على عظمة عفته، لأنه لو لم يكن لديه الدافع الغريزي لما كان له فضل تعفف ولا كرامة تمنع، ولكن مع وجود التكوين الطبيعي حصلت المدافعة أي حصل الهم الغريزي، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، بل قال بعض المفسرين: إنه عليه السلام لم يعبأ بها لِمَا رأى من برهان ربه، ولولا أنه رأى برهان ربه لهمّ، والله أعلم، إلا أن هذا الوجه يجعل نوع اختصاص له عليه السلام ببرهان ربه وهذا لا شك من عصمة الأنبياء، أم الوجه الأول فهو أعم، وموضع التأسي به، فكان مناراً لكل شاب، وصورة لكل رجل عفيف، ومقياساً لمن عصمه الله.

وتلك مريم عليها السلام، لما جاءها جبريل عليه السلام فتمثل لها بشراً سوياً: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨]، وبشراً سوياً تعطي أجمل صورة للرجل.

تلك مواقف متقابلة، وموازين متعادلة، ولكن لماذا نص الحديث على رجل؟

٢ ـ التنصيص على الرجل دون المرأة:

إذا كان مما تقدم وجدنا روائع العفة من المرأة كما رأيناها من الرجل،

فلماذا اقتصر الحديث على ذكر الرجل دون المرأة؟ بينما جاء في القرآن الكريم المزاوجة بينهما في مقام التعفف وحفظ الفرج وغض البصر كما قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وفي التوجيه والإرشاد كذلك: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١] فكلاهما في هذا المعنى سواء في نصوص القرآن، مع أن الحديث أوسع مجالاً في التعبير في غالب الأحيان والسنة مفسرة وموضحة للقرآن، ومع ذلك لم ينص هذا الحديث إلا على الرجل.

لقد تطلبت في مواطن عديدة بغية الوقوف على سر ذلك وحكمته فلم أعثر على ما تطمئن النفس إليه، إلا أخيراً ومن حديث النفر الثلاثة الذي أوردنا مضمونه اتضح لي وجه المغايرة في هذا المقام، واختصاص الرجل بالذكر دون المرأة، وذلك للآتي:

أولاً: من جانب الرجل: فإنه لا يعف حقيقة عن المرأة إلا لوجه الله، لأن دعوة المرأة إياه لا تكون إلا في خلوة عن الناس، وحالة تمكين قوية ومأمن تام، فليس عنده من يحاذر أو يخشى.

ثم هو لا يخشى عواقب تترتب عليه هو أو على أهله، لأن فعله ينتهي بفعلته، بخلاف المرأة فإن فعلتها قد لا تنتهي عند نهاية الفعل، فقد يمتد أثرها إلى ما بعد، وقد تنجرُّ على أهلها على ما سيأتي.

ثانياً: من جهة المرأة: قد تَعِفُّ هي أيضاً لوجه الله، ولكن قد يوجد ما يشوب حقيقة كون الامتناع مخافة الله، لأن الفتاة في تلك القصة قالت للرجل: اتق الله ولا تفضن الخاتم إلا بحقه، فهي قد أظهرت حقيقة تخصها وهي وجود الخاتم، ألا وهو خاتم البكارة كالختم على الكتاب والطرد لحفظه من امتداد اليد إليه، وهذا الخاتم هو أعز ما تحرز الفتاة، ومن واجبها الحفاظ عليه، ففيه الحفاظ على كيانها وذاتها، ومريم عليها السلام عظم عليها أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ولم تك بغياً.

وقد تكون غير بكر ويكون الخاتم قد فض بحقه. ولكنها ليست ذات زوج فتخشى الحمل، ولو لم تخش حملاً بأن كانت تحت زوج ولا يرتاب في

حملها، أو تكون حاملاً بالفعل فإن خوفها من انكشاف أمرها أشد من مخافة الرجل، لما يترتب عليها هي من سقوطها في المجتمع، ومفارقة زوجها، أو ما هو أكبر من ذلك. مما لا يلحق الرجل منه ما يلحقها هي.

ومن هذا المنطلق كان لتخصيص الرجل بالذكر موجبه لأنه إن قال: إني أخاف الله رب العالمين، كانت مقالته تلك صادقة، مع إمكان وجود مثل ذلك أيضاً من المرأة، فمن وُجد منها ذلك على هذا الوصف، كانت بلا شك مشاركة للرجل في هذا الفعل، وكانت رفيقة له في ظل الرحمٰن.

وذلك أخذاً مما قرره الأصوليون: من قاعدة الإلحاق بنفي الفارق. كما قالوا في حديث: «**من أعتق شقصاً له في عبده عتق عليه**». إنه تلحق به الأمة، فمن أعتق شقصاً له في أمة عتقت عليه، فألحقت بالعبد بنفي فارق الذكورة والأنوثة، والاعتبار بالرق فيهما معاً، فكذلك الحال هنا تلحق المرأة بالرجل: وامرأة دعاها ذو حسب ومنصب... إلخ. وهذه القاعدة وإن نازع فيها ابن حزم بدعوى أن للعبد مزيد اختصاص بأنه إن عتق ولي الإمامة وجاهد كبقية الأحرار، بخلاف الأمة. فإنه لا يستطيع النزاع في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فيقال أيضاً: ولا أبا أحد من نسائكم، وتلحق النساء قطعاً في قضية سياق الآية الذي هو نفي التبني. والله تعالى أعلم.

٣ ـ كيف نوجه الشباب إلى التعفف:

إن قضية التعفف في شباب المجتمعات هي قضية كيانها وقوام بنائها، لأنها في ظل العفة يظل رباط الأسرة قوياً، وبناؤها متيناً وبالتالي بناء المجتمع. وفي ضياع العفة تقويض لروابط الأسر وبالتالي تقويض بناء المجتمع لأنها هي قاعدة بنائه. ومجتمع بدون أسر مجتمع فردي لا يلوي فيه أحد على أحد.

وقد حرصت المجتمعات المثالية على صيانة العفة فيها صيانة لكرامتها، وحفاظاً على مجتمعاتها، حتى صارت العفة سجية عند حرائر النساء وعقيلات البيوت. وقد جاء عن ليلى الأخيلية حينما كان يجلس إليها صديقها للسمر في الحديث على أكمل ما يكون من تعفف حتى التفوه بالكلمة، فقالت:

وذي حاجة قلنا له لا تُبحْ بها ... فليسَ إليها ما حَيِيْتُ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَهُ ... وأنْتَ لأخرى صاحبٌ وخليلُ

وكذلك قول الآخر يصف ما كان عليه مجلسه مع صديقته:

وكنت إذا ما جئتُ ليلى تَبَرْقَعَتْ ... ولقد رَابَني منها الغداةَ سُفُورُها

وجاء عن هند رضي الله عنها في بيعة النساء عند النهي عن الزنا فقالت متعجبة: أَوَتزني الحرة يا رسول الله؟!

ومن هذا القبيل ما حكته بثينة عن صاحبها جميل الذي اشتهر بجميل بثينة: دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: ما أرى فيك الذي كان يقول جميل. فقالت له: كان ينظر إلي بعينين ليستا عندك. فقال لها: فكيف رأيته في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذي تسجدُ الجباهُ لَهُ ... ما لي بما تحتَ ذَيْلها خَبر
ولا بِفِيها ولا هممتُ بها ... ما كانَ إلّا الحديثُ والنظر

ومثل هذا قول القائل:

فقالتْ بحقِّ اللّهِ إلا أتَيْتَنَا ... إذا كان لونُ اللَّيْلِ شِبْهَ الطيالسِ
فجئتُ وما في القوم يقظانُ غيرها ... وقد نام عنها كلُّ واش وحارسِ
فبتنا بليل طيب نستلذه ... جميعاً ولم أقلب لها كفَّ لامسِ

فهذا العفاف إباء وشيمة وطهر لما بينهما.

وقد يكون حفظاً لحقوق الزوجية، وحفاظاً لعهد الصاحب والصاحبة. كما جاء عن ليلى الأخيلية حين آنست ريبة من جليسها، فأنشدت كما قدمنا:

وذي حاجةٍ قلن لهُ لا تُبِحْ بِها ... فليسَ إليهَا ما حَييت سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليلُ

قال ابن القيم في روضة المحبين: هو توبة، قَدِم من سفرٍ فصافحته فغمز يدها فظنت أنه يخنع لبعض الأمر.

وقد يكون ذلك مخافة من الله وحياء كما جاء عن إبراهيم بن محمد المهدي:

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياءُ وخوفُ اللّهِ والحَذَرُ

وكم خلوت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهةُ والتأنيسُ والنظرُ
أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم ... وليس في حرام منهم وَطَرُ
كذاك الحب لا إتيان معصية ... لا خيرَ في لذةٍ من بعدها سَقَرُ

ومن العفة حياءً وكرماً ما أنشده المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة ... إلّا نَهاني الحياءُ والكرمُ
فلا إلى فاحشة مَدَدْتُ يدي ... ولا مَشَتْ بي لزلةٍ قَدَمُ

ولكننا نرى مع هذا التعفف النبيل، والحياء وكرم النفس، صوراً من التعرض لما لا تؤمن عواقبه من مجالسة ومؤانسة وغير ذلك. وأحسن من هذا كله: ما جاء من تعفف مع تحفظ وحياء وخوفٍ من الله، وإكرام البعل جميعاً كما سمع عمر ﷺ المرأة المغيبة وهو يعسّ ليلاً بالمدينة فسمع المرأة تنشد وتقول:

ألا طالَ هذا الليلُ وازْورَّ جَانبُه ... وليسَ إلى جَنبي خليلٌ ألاعِبُهْ
فواللّه لولا اللّه تخشى عواقبه ... لَحَرَّكَ من هذا السريرِ جوانِبُهْ
مَخَافَةَ ربي والحياء يعفني ... وإكرامُ بعلي أن تُنالَ مراكبهْ

فهي عفة مع لزوم بيتها، كما قالت هند: سآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي.

فتلك صور من صور التعفف على اختلاف أشكالها ودوافعها، فإذا ما أثيرت في نفس الشباب عوامل المروءة والحياء وعلو الهمة، فقد يساعده ذلك على التغلب على نوازع الهوى ودوافع الإغراء، حتى لو وجد ميولاً وإغراءً من أي امرأة، فليتحفظ، وليتعفف وقد قيل في هذا المعنى:

غِيْدٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظباءِ مكةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ من لِين الحديثِ أوانساً ... ويَصُدُّهنَّ عن الخنا الإسلام

وأنشدا بلفظ آخر هو:

حورٌ حرائرُ ما هَمَمْنَ بريبة ... كظباء مكةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ من لِينِ الحديثِ فواسقاً ... وَيَصُدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلامُ

ومثل ذلك قول ابن ميادة:

مَـوَانـعُ لا يـعـطـيـنَ حـبـةَ خَـرْدَلٍ وَهُـنَّ دوانٍ فـي الـحـديـث أوانـسُ
وَيَكْرَهْنَ أنْ يسمعن في اللهو ريبة كما كرِهَتْ صوتَ اللجامِ الشوامسُ

ولو أن كل إنسان أعطى نفسه فرصة التفكير ولو قليلاً في عواقب ما يقدم عليه في استجابة طائشة ودعوة خاطفة، وما ستجلبه من عواقب وخيمة عاجلة وآثام آجلة لربما ساعده على التعفف كما قيل:

تَفْنَى اللذاذاتُ ممن نالَ صَفْوَتَهَا من الحرامِ ويبقى الوِزْرُ والعَارُ
تـبـقـى عـواقـب سـوء فـي مَغَبَّتِهَا لا خيْـرَ فـي لَـذَّةٍ مِـنْ بـعـدهـا نـارُ

وما أطرف ما ساقه في روضة المحبين عن عثمان بن الضحاك الخزامي قال: خرجت أريد الحج فنزلت بالأبواء فإذا امرأة جالسة على باب خيمة فأعجبني حسنُها فتمثلت بقول نُصَيْب:

بِزَيْنَبَ ألمم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب

فقالت: يا هذا.. أتعرف قائل هذا الشعر؟ قلت: نعم، نصيب، قالت: فتعرف زينبه؟ قلت: لا، قالت: فأنا زينبه، قلت: حياك الله، قال: أما إن اليوم موعده من عند أمير المؤمنين خرج إليه عام أول فوعدني هذا اليوم، لعلك لا تبرح حتى تراه، قال: فبينا أنا كذلك إذا أنا براكب، قالت: ترى ذلك الراكب؟ إني لأحسبه إياه، قال: فأقبل، فإذا هو نصيب فنزل قريباً من الخيمة، ثم أقبل فسلم حتى جلس قريباً منها، يسائلها وتسائله أن ينشدها ما أحدث، فأنشدها. فقلت في نفسي: محبان طال التنائي بينهما، لا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فقمت إلى بعيري لأشد عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معي فتسايرنا ثم التفت إليّ فقال: أقلت في نفسك: محبان التقيا بعد طول التنائي فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك، قال: ورب هذه البنية، ما جلست منها مجلساً هو أقرب من هذا.

والأخبار في عفة الأدباء وكرام النفوس حديث طويل، وفيه عدة تآليف، ولكنها كما أشرنا سابقاً لم تكن على المنهج الإسلامي الذي سنلم به إن شاء الله.

٤ ـ منهج الإسلام في توفر العفة والحفاظ عليها:

اتفق الأصوليون على أن الأديان كلها عملت على توفير العفة والحفاظ عليها ضمن الضروريات الستة التي لا بد لكل مجتمع منها والتي هي: الأديان، والأنفس، والعقول، والأعراض، والأنساب، والأموال.

فقد حرم الزنا في جميع الأمم، وقد تقدم الإشارة إلى قصة يوسف ومريم والنفر الثلاثة من بني إسرائيل بما يكفي.

وفي خصوص الإسلام وهو خاتمة الأديان فقد كانت عنايته بذلك تفوق كل الحدود، حيث أحاط العِرض بسياج منيع من جميع جوانبه، وحرم كل نافذة تطل عليه ابتداءً من نظرة بالعين، وخطرة بالقلب، وهمسة بالأذن، ورنَّة بالحلي. وألزم الحجاب صوناً له وحفاظاً عليه.

وتكاد سورة النور وجزء كبير من سورة الأحزاب، يختص بذلك.

سورة النور:

وبتأمل سورة النور نجد عند افتتاحيتها وفي آخر السورة التي قبلها، وهي سورة المؤمنون يأتي في ختامها الحديث عن قضية التوحيد والشرك، وهي أعظم قضايا الأديان والوجود كله. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧ ـ ١١٨].

ثم يأتي أول سورة النور مباشرة: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ١ ـ ٢].

ونستطيع أن نقول: إن الاقتران الموضعي بين قضية التوحيد وقضية الزنا يشعر بالربط بين القضيتين في عظم خطرهما وعظيم الجرم فيهما.

أ ـ فالأولى: في حق الله تعالى وهو أعظم حق لله على عباده.

ب ـ والثاني: في حق المجتمع كله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الاعتداء على أي عرض من أفراد المجتمع يعتبر اعتداء على

حق المجتمع كله ولو كانت لهذا الاعتداء ثمرة خاطئة فسيتحملها المجتمع كذلك. سواء كانت رذيلة تظهر، أو حملاً يولد.

وبالنظر إلى هذا الاستهلال في بداية هذه السورة الكريمة بتقديم ذكر المرأة مما يشعر بقوة جانب تأثير المرأة في هذه القضية، لبداءة الإغراء من جانبها هي. كما قالوا في بداية آية السرقة بالرجل في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. لأن جانب الرجل في السرقة أقوى وهو عليها أشد جرأة. وقد يكون خلاف ذلك، إلا أن المنهج القرآني يشير إلى الأسس والمبادئ في هاتين القضيتين.

ويجيء الحكم بالجلد ومعلوم أنه في حق البكر، أما الثيب ففي عقوبتها الرجم كما لا يخفى. وبعد إبراز هذه الجناية بهذه الصورة وتكليف المجتمع بمحاربتها أخذت السورة في تشريع المنهج المتكامل إلى الاستقصاء فجاء كالآتي:

١ ـ تقبيح هذا الصنف من الناس لقبح فعله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣].

٢ ـ حفظ الأعراض من التهم والاحتياط لها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ [النور: ٤]. فيسقطون من المجتمع بسقوط عدالتهم إلا إذا تابوا وأصلحوا.

٣ ـ إخراج الزوج من ورطة إن هو ابتُلي في زوجته وحتى لا تستهتر بحقوق الزوجية بناءً على إلزامه بأربعة شهداء، وهذا متعذر طبعاً ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ...﴾ [النور: ٦] والآيات بعدها.

٤ ـ ثم أربع عشرة آية في حديث الإفك وإبطال مقالة المنافقين فيه وتسجيل طهارة الأطهار الكرام.

٥ ـ ثم يأتي أدب دخول البيوت بعد الاستيناس والاستئذان، خشية أن يقع البصر على أحد من أهلها.

٦ ـ فإذا دخل وجب عليه غض البصر. وصارت قضية عامة في حق المؤمنين والمؤمنات: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ

أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

وهنا لفتة مرة أخرى حيث كلف الرجل بأمرين: غض البصر، وحفظ الفرج، بينما كلف المرأة بهما أيضاً وزيادة عدم إبداء زينتها، حتى ما خفي منها من حلي لا تظهر صوته بضرب رجليها بالأرض ليصوت خلخالها، وجاءت السنة بنهيها عن التعطر حتى لا تلفت الأنظار إليها لا بزينة تبديها فتراها العين، ولا بصوت الخلخال تسمعه الأذن، ولا بعطر تتعطر به خارج بيتها يشمه الأنف.

٧ ـ وأخيراً الحل العملي ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾ [النور: ٣٢].

٨ ـ فمن لم يستطع مؤنة النكاح فليستعفف حتى يجد السبيل إليه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ [النور: ٣٣]، وبينت السنة وسيلة الاستعفاف وجاء الحديث: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحصن للفرج وأغض للبصر، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**».

وبجانب غض البصر فقد حرم كل وسائل تعدي الحدود: فحرم الخلوة بالأجنبية إلا مع ذي محرم، وحرم على المرأة السفر مسيرة يوم وليلة إلا مع محرم، وحذر من دخول الحم على زوجة الأخ، بل حرم الله لين الحديث والخضوع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض.

هذا هو منهج الإسلام في مساعدة الشباب على العفة والحفاظ عليه من إغراء النوازع، وسيطرة الغرائز، فإذا قمنا بذلك نكون حفظنا المجتمع، وتوفرت لدينا الفضيلة واختفت من مجتمعنا الرذيلة، والعصمة من الله والفضل بيد الله.

وفي ختام هذا المنهج: أؤكد على موضوع من أهم ما يعنى به ولاة الأمور هنا، ألا وهو تيسير الحل العملي الوحيد الذي هو الزواج ومساعدة الشباب على ذلك، بتخفيف الكلفة والنظر إلى المصلحة العامة، والتخلي عن العادات والأغراض الشخصية التي أصبحت عقبة وعبئاً عليهم وتحقيقاً لقوله ﷺ: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**.

٥ ـ ارتباط هذا القسم بما قبله:

تقدم ربط كل قسم بالذي قبله، وبيان تأثره به تأثر النتيجة بالسبب، وكان ظاهراً في كل ما تقدم.

وكذلك الحال هنا، لأن ما قبل ذلك من الأنصاف تؤدي كلها إلى تحقيق هذا الصنف من عدالة الإمام، فلن يترك عوامل الإغراء تغزو الشباب، ولن يسمح بعادات إعاقة الزواج تتحكم في المجتمع.

ثم نشأة الشباب في عبادة الله تورث تقوى الله ومخافته.

ثم التعلق بالمساجد لأداء الصلاة، فكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثم المتحابين في الله سيتناصحان على الخير ويتعاونان على البرّ فيكون منهجهما في الحياة منهج عفة وطهارة.



الصنف السادس

ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينُه ما أنفقت شمالُه

إن الحديث عن هذا الصنف لهو أوسع مجالاً وأكثر تفريعاً، وهو يكفي لمؤلف مستقل نوجز مباحثه فيما يأتي:

١ ـ معنى الصدقة لغة وشرعاً:

والصدقة لغة: تلتقي مع مادة الصدق (صدق) في أصل المادة، وفقه اللغة يؤكد ارتباط المادة بجميع ما تفرع عنها.

وفي الحديث الطويل: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو ـ تملأ ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصبر ضياء، والصدقة برهان**».

والبرهان هو الدليل على صدق المدعي، فالصدقة برهان على صدق إيمان المتصدق بالله، وتصديقه بوعد الله على ما وعد من جزاء وعوض، وهو يتضمن الإيمان باليوم الآخر يوم البعث والجزاء.

وذلك أن الصدقة إخراج جزء من المال من يد المتصدق، والعقلاء مطبقون على أنه لا يخرج إنسان شيئاً من يده إلا بعوض: كالمبيعات ونحوها، حسب قانون المعاوضات في سنة الحياة كلها حتى بين الحيوانات وبين الإنسان، وبينها وبين آحادها.

والمتصدق يخرج المال من يده ولم يحصل على عوضه ممن أخرج ماله إليه بل ولم يحصل على عوض له عاجل من أي جهة كانت. فلماذا أخرج هذا المقدار من المال؟ وما الدافع له على إخراجه؟ إن صدق إيمانه بوعد الله ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ

سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢٦١]. فهو متعامل حقيقة مع الله. ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ويقول ﷺ: «**ما من أحد يتصدق بصدقة إلا أول ما تقع في كف الرحمٰن، فينميها له كما ينمي أحدكم فلوه حتى تكون كجبل أحد**».

فهو يتصدق من ماله، يقيم الدليل على يقينه في تعامله مع الله تعالى لا مع المساكين. ومن طريف هذا التعامل ما جاء من حوار صاحب المال مع عامل الصدقة لرسول الله ﷺ، حين أتى العامل على رجل يعد صدقة إبله، فوجد عليها فيها بنت مخاض - وهي بنت سنة واحدة، وأمها ماخض في التي بعدها - فاستصغرها صاحب الإبل وقال: لا أقدم هذه لله، فلا هي ظهر فيركب، ولا هي ضرع فيحلب، ولكن هذه ناقة كوماء فخذها لله.

فامتنع العامل أن يأخذها وقال: إنها لم تجب عليك، ولا آخذ إلا ما وجبت، ولما تلاحى معه الرجل قال له: إن النبي ﷺ منك قريب فاذهب بها إليه، فإن قبلها منك أخذتها، وكان على بعد مرحلتين كبيرتين من المدينة، فسار بها والعامل معه فجاء بها النبيَّ ﷺ بالمدينة وقال له ما وقع بينه وبين العامل على الزكاة، فقال ﷺ: «**أطَيِّبَةٌ بها نفسك؟**» قال: بلى يا رسول الله. فقال للعامل: «**خذها**» وقال لصاحبها: «**بارك الله لك في مالك**». فعمر الرجل إلى عهد معاوية رضي الله عنه وكثر ماله حتى كان يخرج في زكاته العشرات.

فهذا أعرابي أحرص ما يكون على المال، وأحب المال إليه الإبل، نراه يمتنع عن دفع بنت مخاض في الزكاة استقلالاً لها لصغرها، ويسمح بناقة كوماء. فلماذا؟ لا لشيء إلا لأنه يتعامل مع الله ﷻ. وفعلاً عوضه الله خيراً كثيراً وعاجلاً.

ملحوظة:

وبهذه المناسبة نلحظ نُظم الأموال الأخرى في الأمم غير الإسلامية التي تنظم عمل الجباة على أساس الكسب والدخل فيتهرب أصحاب رؤوس الأموال من مفتش الضرائب، ويحتالون على سجلات محلاتهم التجارية حتى يظهر بمظهر قليل الربح، ليتخلص من ارتفاع نسبة الضريبة عليه.

ففرق بين من يجتهد ليخرج في سبيل الله أكثر مما وجب عليه، وبين من

يحتال ليدفع أقل ما يجب عليه، ويتهرب من أداء الواجب. وما ذاك إلا أن الأول يشعر بأنه يتعامل مع الله الذي يعلم السر وأخفى، والذي يخلف عليه ما أنفق أضعافاً مضاعفة، وهو مطمئن النفس بأن ما يقدمه سيصل لأيدٍ محتاجة، وتسد حاجة ماسة. والآخر يعتبر أن ما يدفعه غرامة فرضت عليه، لا خلف فيها، ولا عوض. وقد يراها تذهب في غير مذهب، وتصرف في غير مصرف.

بهذا ظهر لنا ارتباط كلمة «صدقة بمادة الصدق» وبالتالي التصديق والإيمان. ولهذا كان إطلاقها صالحاً لكل من الفريضة والنافلة، لاشتراكهما معاً في مادة الصدق.

٢ ـ أقسام الصدقة من حيث تكليف الوجوب والتطوع:

أ ـ من إطلاق الصدقة على الزكاة المفروضة قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. بدليل التكليف بأخذها، لأن المكلف بأخذها: هو ولي الأمر، وهي ليست له بل ليتولى توزيعها على أهلها.

كما جاء في مصرفها من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا . . .﴾ [التوبة: ٦٠].

وقوله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن، فيما أمره به بعد الشهادتين وإقام الصلاة، وأن يعلمهم بأن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.

وهذا النوع من الصدقة المفروضة مقدر معلوم وله مقادير ثابتة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥] فجعله الله حقاً. وجعله معلوماً وجعله للسائل والمحروم. على ما سيأتي تفصيله في الأصناف الثمانية إن شاء الله.

وهذا القسم من الصدقة اتفق العلماء على أصول الأموال المتعلقة بها وهي: النقدان ذهبٌ وفضةٌ، الحبوب، الثمار، الحيوان، عروض التجارة، ويتبع **النقدين** اليوم ما يحل محلهما في التعامل والأثمان من أوراق نقدية وشيكات وسندات مالية. . . إلخ. وما كان للقنية من النقدين، بخلاف في الحلي.

أما الحبوب: فاتفقوا على كل ما كان قوتاً مدخراً مكيلاً.

وكذلك في **الثمار**: ما يجفف ويدخر كالتمر والزبيب.

وأما الحيوان: فاتفقوا على بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم. والخلاف في الخيل لأبي حنيفة رحمه الله وحده.

وعروض التجارة: اتفقوا على كل ما يعد للبيع وطلب الربح. سواء كان مديراً أو محتكراً على اصطلاحاتهم في الاحتكار الجائز والممنوع. ولا عبرة بمن خالف في عروض التجارة لأنها داخلة قطعاً في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أو يشملها مسمى ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾. وكذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. فيدخل حتى كسب العامل بعمله كالأجير والموظف.

ولإخراج الزكاة في هذه الأموال شروط مفصلة في كتب الفقه أهمها:

بلوغ النصاب، باتفاق، إلا ما جاء عن الإمام أبي حنيفة فيما يخرج من الأرض لأنه غلب جانب قوله ﷺ: «**فيما سقت السماء العشر..**» الحديث. وقال: «**ما**» من صيغ العموم واعتبر الجمهور تخصيصه مرتين بحديث: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**» فخصصه بالمزكى فقالوا: لا زكاة إلا فيما يوسق. وهو المكيل المدخر.

ولا زكاة في الموسق حتى يبلغ خمسة أوسق، والوسق ستون صاعاً، فيكون نصابه ثلاثمائة صاع. وما عدا الموسق، أو الموسق الذي لم يبلغ هذا المقدار فلا زكاة فيه، وكذلك اشترطوا حولان الحول إلا فيما يخرج من الأرض من الحبوب أو الثمار فإنه يزكى في حينه، لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وتقدر عروض التجارة بيوم زكاتها، لا يوم شرائها، وبالأحظ للفقراء من ذهب أو فضة أو العبرة بالنقد السائد في بلدها.

أنصباء تلك الأموال الزكوية:

ليعلم أولاً أن اشتراط الحول واعتبار النصاب، كلها لتحقيق معنى سام، وهو الرفق بالمالك. كما أن إخراج الزكاة: رفق بالمساكين، لأن ما لا يبلغ

نصاباً لا يحتمل الإرفاق ومساعدة الغير. وما بلغ نصاباً وكانت التبعات عليه كثيرة تستنفده قبل الحول كذلك، فإذا بلغ نصاباً واستغنى عنه حولاً كاملاً كان حقاً زائداً عن الحاجةِ واحتمل الإرفاق بالغير.

ولكل صنف من تلك الأصناف نصابه الخاص به كالآتي:

ففي الذهب عشرون مثقالاً وتعادل بالوزن الدارج وهو الجرام (٨٨) ثمانية وثمانون إذا كان ذهباً خالصاً. فإذا كان مصنوعاً أو مسبوكاً دنانير زيد عليها مقدار ما يضاف إليه من النحاس، لأن صياغة الذهب وسبكه لا تتأتى إلا بإضافة النحاس إليه ليجعله صلباً، لأن الذهب الخالص لين في معدنه، وفيه ربع العشر.

وعلى هذا فنصاب الذهب بالجنيهات المتداولة اليوم هو اثنا عشر جنيهاً من الجنيه السعودي والجنيه الإنجليزي والجنيه العثماني الصغير، لأنها كلها وزنها الحالي ثمانية جرامات لكل واحد منها، وفيه قيراطان من النحاس من أربعة وعشرين قيراطاً، أي نصف سدسه نحاس.

ونصاب الفضة: مائتا درهم وزناً صافياً من الرصاص أو النحاس ومقداره اليوم ستة وخمسون ريالاً بالريال السعودي أو ما يعادله وزناً ومادة.

ونصاب الورق المتداول اليوم: فإنه وإن لم يكن منصوصاً عليه فلأنه لم يكن موجوداً عند التشريع ولا عند تدوين الفقه من أئمة الأمة رحمهم الله.

إلا أننا نرده إلى الأصل المشروع، فكل نوع من العملة الورقية بلغت قيمته الشرائية ما يشتري به النصاب الأصلي، فهو نصاب لتلك الأوراق. ويجري هذا القول على كل ورق مالي في سائر أنواع العملات في عموم البلدان والله أعلم.

أما نصاب الحبوب والثمار: فكما تقدم خمسة أوسق، والوسق ستون صاعاً فالمجموع ثلاثمائة صاع. وقد دونت موازين الصاع في دواوين الفقه قديماً ولكن حسب الموازين التي كانت متداولة آنذاك وهو الرطل.

فالجمهور على أنه كان خمسة أرطال وثلث وذلك بمعيار وزن العدس لنعومته وتلاصقه، وعند الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ ثمانية أرطال.

أما عند أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ فهو موافق للجمهور لقصته مع

مالك رحمه الله حين أحضر له عدداً كبيراً من صيعان أهل المدينة وعايرها أبو يوسف بنفسه فوجدها خمسة أرطال وثلثاً كما قال مالك.

ولقد تقصَّى العلماء في وزن الصاع بحسب الموازين الأولى حتى وصل استقصاؤهم رحمهم الله إلى العدِّ بالحبة من الشعير، لأنهم قدروا نصاب الذهب بوزن الدرهم، وقدروا الدرهم بحبات الشعير، كما روي عن ابن حزم وغيره، فقال ابن حزم: بحثت عن وزن الدرهم غاية البحثِ من كل من وثقت بتمييزه، وقد اتفق لي على أن دينار الذهب بمكة وزنه: اثنتان وثمانون حبة وثلاثة أعشار حبة من حب الشعير المطلق. والدرهم سبعة أعشار المثقال، فوزن الدرهم سبع وخمسون وستة أعشار حبة وعشر عشر حبة.

فالرطل مائة وواحد وثمانية وعشرون درهماً بالدرهم المذكور. راجع في ذلك أضواء البيان عند آية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾.

النصاب اليوم: ولما كان الدرهم المذكور غير معمول به اليوم، وحبات الشعير قد تتفاوت في زرع عن زرع، أو بلد عن بلد، فقد جهدت كل الجهد في الحصول على صاع مما لا زال موجوداً بالمدينة يتوارثونه جيلاً عن جيل ويتعاملون به في إخراج زكاة الفطر بإجماع العامة والخاصة. حتى عثرت على صاعين أحدهما من النحاس الأحمر والآخر من الخشب، فقايستهما بالحب وجعلت على فم كل منهما ما يحتمله من زيادة فوق فم الفتحة، فزاد الصاع النحاسي على الصاع الخشبي لأن فتحته أوسع فكانت الزيادة عليها أكثر، ثم عايرتهما إلى مساواة الفتحة فقط ومسحتها بالخيط فتساويا تماماً. فاطمأننت إلى صحة معيارهما، سواء النحاسية أو الخشبية.

ثم عمدت إلى معيارهما معاً بالماء حيث أن الماء في العالم كله لا يختلف وزنه ما دام صالحاً للشرب فكان وزنها أي كل واحد منهما (٣ل و١٠٠غ). ثم عايرتهما بالعدس المجروش أي منزوع القشر، وبهذا فكل إناء أياً كان شكله مستطيلاً مستديراً مربعاً مكعباً يسع من الماء ما يزن هذا المقدار فهو يعتبر صاعاً.

وفي هذا التقدير بالماء ما يكفي عن جدول بعض الدول، الذي أخرجته لجميع أنواع الحبوب مع اختلاف أجناسها وأوزانها.

وليعلم أن العبرة إنما هي بالكيل ولو كان المكيل كثيفاً ثقيلاً كالعدس مثلاً. ولا عبرة بخفة الوزن كالشعير مثلاً. لأننا لو أخذنا مكيلة صاع من عدس ووزناها بمكيلة صاع من شعير مثلاً لكانت مكيلة العدس أثقل وزناً فلا عبرة بالثقل ولا بالخفة لأن الأصل هو الكيل. ولهذا الأصل حُرِّم بيع الجنس بجنسه من المكيلات وزناً؛ كالتمر مثلاً؛ لأن بعضه أثقل من بعض في الوزن. فلزم اعتباره بالكيل إذا بيع بجنسه.

وهذا ما أحببنا إيراده في الأنصباء لكثرة تداولها واحتاج الأمر فيه لربطها بمصطلحات الوقت الحاضر.

أما بقية الأنصباء: فجملتها ـ والحمد لله ـ لم يطرأ عليها اختلاف ولا مغايرة.

ففي الإبل: يبدأ بخمس، وفيها شاة، ثم في كل خمسٍ شاة إلى عشرين. فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنت مخاض... إلخ.

وأما البقر: ففي كل ثلاثين: تبيع، وفي كل أربعين: مسنة.

وأما الغنم: ففي كل أربعين: شاة إلى مائة وعشرين. ثم في مائة وإحدى وعشرين: شاتان... إلخ.

وهنا نظرة مقارنة بين مبادئ هذه الأنصباء في تلك الأموال المختلفة ومقدار ما يخرج منها:

وبهذه النظرة نجد وحدة كاملة ومعادلة سليمة في مساواة تلك الأنصباء كلها على اختلاف أجناسها وتفاوت مقاديرها.

فالذهب والفضة مثلاً:

أ ـ في الذهب عشرون مثقالاً، والمثقال يعني الدينار سواء.

ب ـ وفي الفضة مائتا درهم: وفي كل منها فيه ربع العشر سواء.

وقد كان صرف الدينار عشرة دراهم، فهما إذاً متعادلان عشرون ديناراً في عشرة دراهم تساوي مائتي درهم. ومائتا درهم على عشرة تساوي عشرين ديناراً.

أما الغنم: وهي الأصل في زكاة كل من الإبل والغنم وهي الشاة الواحدة

في كل من خمس من الإبل، أو أربعين شاة، فإن نسبة الخمس من الإبل تعادل الأربعين شاة تقريباً.

وذلك بناءً على أن البدنة من الإبل في الهدي عند التمتع في الحج تجزئ عن سبعة، فهي بدل عن سبع شياه، وسبعة في خمسة تعادل خمسة وثلاثين. فلو زيد في الإبل واحدة أو نقص منها واحدة لبعدت النسبة بين الجنسين.

وعليه فالشاة المأخوذة من صاحب الإبل أو من صاحب الغنم مأخوذة من نصاب متعادل عند كل منهما.

وإذا جئنا للنسبة بين الذهب والفضة وهما الأصل في الأثمان وبين الشاة في الغنم نجد الآتي:

حديث عروة البارقي: أعطاه النبي ﷺ ديناراً ليشتري به شاة، فذهب وأتاه بشاة وبالدينار، فقال له: **«ماذا فعلت؟»** فقال: اشتريت شاتين بالدينار وبعت شاة منهما بدينار. فقال له ﷺ: **«بارك الله لك في صفقة يمينك»**.

وعلى هذا فالدينار آنذاك كانت قيمته الشرائية تعادل شاتين. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً في اثنين ينتج أربعين شاة، وهو نصاب الغنم، والجزء المأخوذ وهو ربع العشر يعادل واحداً من أربعين، وهو نصف دينار في الذهب وشاة في الغنم.

فاتفق عندنا التساوي والتعادل في كل من الذهب والفضة والإبل والغنم.

وعروض التجارة فرع عن الذهب والفضة. تلك نبذة أوردناها بإيجاز وليس معنى ذلك أننا نربط نصاب مال بنصاب مال آخر لا وكلا، فكل مقدار محدد بذاته، وهي توقيفية، ولكنها نوع مقارنة.

هذا مجمل ما يتعلق بزكاة الفرض في الأموال المعينة، والمأمور بزكاتها وجوباً.

وهذا القسم تخرج صدقته قهراً إن لم يبادر بها صاحبها، كما جاء في الحديث: **«من دفعها طيبة بها نفسه قبلناها، ومن منعها أخذناها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا، لا يحل لمحمد ولا لآل محمد منها شيء»**. ومعلوم قتال الصدّيق لمانعي الزكاة.

فهذه سواء أظهرها أو أخفاها، فإن العامل يأتي ويعد بهيمة الأنعام على

موارد المياه ويأخذها على ملأ من الناس جميعاً، ومن أهل هذا الماء الذين يردون عليه. أما الأموال الخفية كالنقدين وعروض التجارة فهل يظهرها صاحبها أو يخفيها؟ فقد قيل: إن إظهارها أولى لأنها شعار من شعائر الإسلام كالصلاة والصيام والحج. وبعضهم قال: إن في إخفائها سلامة من الرياء أو نحو ذلك.

وقد جاءت الآية تشعر بأن العبرة بالعمل على براءة الذمة وامتدحت كلا المنهجين في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

فقال بعض العلماء: إبداؤها خاص بالمفروضة، وإخفاؤها للمندوبة، لأن الفرض واجب أداؤه فلا مِنّة فيه، وليقتدي به الآخرون.

ولكن الأصوليين يمنعون استعمال اللفظ المشترك في وقت واحد في أكثر من معنى فإما أن نحمل الصدقات هنا على المفروضة فقط، أو على المندوبة فقط والعلة فيهما واردة، سواء في الاقتداء كما في حديث: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها....**» وإنَّ حَمْلَها هنا على المفروضة أولى في نظري، ويكون الإبداء والإخفاء حسب الظروف وما يراه المتصدق أو الإمام عند التوزيع.

أو يحمل الإظهار على صدقة الأموال الظاهرة، والإخفاء على الأموال الخفية.

تنبيه:

وهنا يحسن التنبيه على عمل أولئك الذين يحشدون الناس أمام محلاتهم التجارية في رمضان لتوزيع زكواتهم في صورة غير لائقة.

مصرف هذا القسم:

إن فرضية هذا القسم وتنظيم مصرفه ليعد أكمل وأشمل نظام مالي عرفته المجتمعات، وقد رأينا مراعاة الرفق في تحديد النصاب واشتراط الحول.

وهنا في المصرف؛ فإنه يمثل نظام ميزانية دولة كاملاً وذلك كالآتي:

أولاً: أصل تنظيم المصرف: لم يترك لأحد من الناس يتولى وضعه وتصريفها، لأن حقيقة المال منحة من الله لعباده، والفقراء عيال الله. ومن هنا تولى الله سبحانه قسمتها في كتابه في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

وخوطب ﷺ في جمعها وتوزيعها لكونها من واجبات الأمة، وعليه كان قتال الصديق لمانعيها، وعدم السماح لأصحابها بتوزيعها هم، بل يجمعها الإمام ويتولى هو توزيعها على تلك الأصناف الثمانية المنصوصة، لما يترتب على شمولها من المصالح العامة. وذلك كالآتي:

١ ـ الصنف الأول والثاني: **الفقراء والمساكين** وسواء كان بينهما مغايرة أم لا فهما صنفان، إلا أن أحدهما يشمل الآخر. والفقير أسوأ حالاً من المسكين لأن الله سمى أصحاب السفينة مساكين في قصة الخضر مع موسى عليه السلام.

فقالوا: الفقير من لا يجد شيئاً، والمسكين ما كان كسبه أقل من نفقته. ويهمنا في هذا القسم أن صرف سهم من الزكاة إليه فيه تكافل اجتماعي بين الأغنياء والفقراء، كما قال ﷺ لمعاذ: «**تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

وهنا حكمة جليلة في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] فقالوا: تطهرهم من أدران النفوس المريضة، سواء الأغنياء: فتطهر نفوسهم من آفة الشح والبخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد والحقد على الأغنياء.

ومن ثم لم يبق لعوامل إيغال الصدور بعضها على بعض في المجتمع الإسلامي، وتتم الملاءمة والأخوة في تعاطف وتراحم.

٢ ـ **والعاملون عليها**: وهم السعاة الذين يبعثهم الإمام لجمع الزكوات من أصحاب الأموال وفي هذا الصنف جزء هام من مجال تشغيل الأيدي العاملة للمصلحة العامة وجزء عملي من ديوان الموظفين اليوم، وامتصاص لأيدٍ خالية.

وقد جاء عن بعض السلف من آل بيت رَغِبَا أن يستعملهما الرسول ﷺ مع عمال الصدقة ليصيبوا من ذلك ما يعينهم على التزوج، ولكن النبي ﷺ لم

يقبل طلبهما ذلك لأنهما من بني هاشم، ولا يجوز لهما أخذ شيء من الصدقات، حتى ولو كان في مقابل عملهما. وهذه مسألة محل بحث اليوم بعد تعطيل سهم بني هاشم من بيت مال المسلمين. والذي يهمنا أن بند العاملين عليها بند تشغيل أيدٍ خالية من العمل، تهيأ لها الفرصة لخدمة المصلحة العامة.

٤ ـ **والمؤلفة قلوبهم**: كل من كان في عطائه تقوية للمسلمين وإعزازٌ للإسلام. سواء كان هؤلاء مسلمين حدثاء عهد بالإسلام لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، أو كان من غير المسلمين ويرجى بإعطائه استمالة قلبه إلى الإسلام، أو الإتيان به وبأتباعه، أو بغية أن يكف أذاه عن المسلمين ممن يوالي حدود ولايته أو نحو ذلك.

فهو مصرف عام قد يدخل اليوم في باب من أبواب وزارات الخارجية فيما يربطها بالدول الأخرى.

٥ ـ **وفي الرقاب**: هذا الصنف من أعجب ما في التشريع الإسلامي، وأظهر دليل على سماحة الإسلام، لأن هذا الصنف نشأته من منطلق عداوة الإسلام، وحرب المسلمين، لأنه لا رق في نظر الإسلام إلا من ميدان القتال مع الكفار. فأصل هذا الصنف: كان قبل أن يقع في أيدي المسلمين حرباً عليه شاهراً السيف في وجوههم، ولكن الله أمكنهم منه فأخذوه أسيراً. ثم هو يسلم بعد ذلك ويبقى في الرق لسبق العبودية عليه. ثم يأتي الإسلام ويجعل لفكاكه من الرق سهماً من الزكاة التي هي من أموال المسلمين ولمصالح المسلمين. فالمملوك المكاتب له أن يأخذ، يسدد كتابته ويعتق نفسه.

٦ ـ **أما الغارمون**: فهم الذين تحملوا أموالاً في إصلاح ذات البين ممن وقع بينهم قتال أو خصام، بسبب ديون بينهم فيتحملها إنسان لهم ليصلح ما بينهم، أو شخص فقير لزمته ديون في طريق غير محرم؛ كتاجر أصيب في رأس ماله، أو نحوه من ذوي الأعمال المالية، فله أن يأخذ من الزكاة ليسدد ديونه. وفي هذا تعاون وإقالة ذوي العثرات وإبقاءً على المروءة والسعي بين الناس بالإصلاح فهي أيضاً مصلحة عامة.

٧ ـ **أما وفي سبيل الله**: فإن هذا من حيث المعنى عام يشمل كل ما كان

طريقه ابتغاء وجه الله، ولكنه من العام المراد به الخاص كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فإن لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأول عام أريد به شخص واحد، وهو القائل تلك المقالة، ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤] فإن المراد بالناس هو خصوص النبي ﷺ.

فكذلك هنا عموم سبيل الله أريد به خصوص الجهاد، وقتال الأعداء لإعلاء كلمة الله.

تنبيه:

بالنظر بين هذا القسم والذي قبله وهو: وفي الرقاب، نجد الإسلام قبل أن يجهز الجيوش للقتال في سبيل الله فرض سهماً لفك الأرقاء وتحريرهم، وهم الذين لا يأتون إلا عن مقاتلتهم لتلك الجيوش التي يعدها للجهاد لحماية الإسلام والمسلمين.

وباب تشوف الإسلام لتحرير الرقيق في الكفارات وغيرها باب واسع.

٨ ـ **أما ابن السبيل:** فالسبيل الطريق. وابن السبيل الغريب الذي يأتي على الطريق لا يعرف له أب ولا نسب ولا تربطنا به رابطة إلا الإنسانية، فله حق الإيواء والتبليغ إلى بلده، وهذا يعتبر جانباً كبيراً من اختصاص وزارة المواصلات، وترويج للتجارات وطلب العلم، لأن المسافر لن يخشى ضياعاً حيث وجد كفالة في الإسلام لإيصاله إلى غايته سواء في ذهابه إلى غايته أو رجوعه وعودته.

من هذا العرض لمصارف الزكاة، ترتفع الملامة عن الإمام في توزيعها، لأنها كلها في مصالح عامة. ويكف ألسنة الذين يلمزون في الصدقات إن أعطوا منها رضوا، وإن منعوا منها سخطوا. كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ويأتي بعدها: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ . . .﴾ الآية [التوبة: ٥٨ ـ ٦٠].

أما الفقير القادر على العمل فيدفعه الإسلام إلى التكسب، وإذا كان يحتاج إلى تيسير أسباب العمل ييسرها له. كما جاء شاب جلد يطلب الصدقة من رسول الله ﷺ لفقره ولكنه ﷺ نظر إليه فوجده قوياً جلداً فسأله: **«لِمَ لا تعمل؟»** فقال: ليس لي من عمل ولا شيء عندي سوى حلْس وقعب فقال: **«عليّ بهما»**. فباعهما ﷺ بدرهمين، وأمره أن يشتري حبلاً وفأساً بدرهم وأن يشتري طعاماً لأهله بدرهم، وأن يذهب ويحتطب وأذن له خمسة عشر يوماً ثم أتى وفي يده الدراهم العديدة فسُرَّ به ﷺ ولعمله. . . إلخ.

اعتذار وتوجيه:

لقد أطلنا الحديث عن أنواع الزكوات المفروضة في هذا المجال، وهي مفصلة في كتب الفقه، مما قد يحمل قائلاً بالقول بأننا أوردنا شيئاً في غير مورده، ولكن ليعلم قائل ذلك أني أردت بالكتابة على هذا الحديث التوسع في كل صنف ليكون بمثابة توجيه للدعاة والوعاظ الذين يتخذون من هذا الحديث مادة لدعوتهم، وموضوعاً لوعظهم، ليجدوا فيه وفي متناول أيديهم التوجيهات التي قد لا يجدونها في مراجع قديمة أو لا يفكرون في البحث عنها، وهي مما يوجه أنظار العامة والخاصة إلى محاسن الشريعة وبعض حِكَم التشريع الجليلة التي تزيد في وضوح التشريع ويقين المؤمنين بها.

ب ـ القسم الثاني من قسمي الصدقة: وهو المندوب منها:

فإنه لا حد له ولا تقدير فيه، فيبدأ من شق التمرة وحبة العنب إلى كل ما يملك، وهو الذي يعبر فيه المؤمن عن قوة إيمانه ويقينه، لأنه يخرجه طواعية بدون فرض ولا إلزام، وليس له مطالب من عامل أو سلطان.

وقد عمَّ القرآنَ الكريم في هذا الباب وغيره في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ـ٨].

وطبقت عائشة رضي الله عنها ذلك عملياً عندما وقفت عليها مسكينة وكان بيدها حبات عنب فأعطتها حبة فأخذتها وقلبتها بين عينيها مستقلة إياها. فقالت لها عائشة: انظري كم فيها من مثقال ذرة، وتلت عليها الآية.

ونوه ﷺ عن قليل الصدقة ومدى أثرها بقوله: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**.

تنوع هذا القسم:

وللعموم في هذا القسم تنوعت أجناسه. فلا يقتصر على المال وما يقوم بالمال، بل يشمل كل عمل صالح: من طيب الكلمة، وبشاشة الوجه، وإعانة الرجل على دابته، ومعاونته على حمل متاعه عليها.

وفي الحديث: «**كل معروف صدقة، حتى إماطة الأذى عن الطريق صدقة، والإمساك عن الشر صدقة**»[1]. وإنظار المعسر صدقة والتخفيف عنه.

بل قد تَكون العبادة لله تعالى صدقة يتصدق بها العبد على أخيه المسلم، كالذي جاء والناس قد صلوا العصر، فقال ﷺ: «**من يتصدق على هذا فيصلي معه؟**» أي من يعيد الصلاة معه جماعة؟ فتصدق عليه أبو بكر رضي الله عنه.

وكذلك التسبيح والتحميد والتهليل: كما جاء في حديث: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة...**» إلخ.

كما أن هذا النوع من الصدقة يشمل حتى الحيوان، لحديث: «**في كل ذات كبد رطبة أجر...**» إلخ.

حكم هذا النوع:

أما من جهة التكليف فهو الندب والإحسان ما لم تتعين، وذلك في نوادر الحالات وعند الحاجة، كما في حديث: «**من كان معه فضل طعام فليفض على من لا طعام له، ومن كان معه فضل ظهر فليفض على من لا ظهر له**» وكذلك في حالات الأسفار وقلة الطعام وانعدامه عند بعض الرفقاء في الطريق، أو الغزاة في الجهاد، كما فعل قائد السرية إلى سِيْفِ البحر حتى أغاثهم الله بحوت العنبر: إذ جمع أزواد القوم كلهم وكان زادهم التمر ثم أخذ يقسم عليهم كل واحد تمرة في كل يوم، وفي آخر يوم نقصت عليهم تمرة فوجدوا عليها وجداً شديداً، وكقصة جمع الأزواد في عودته ﷺ من خيبر، وغير ذلك.

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه لو مات إنسان جوعاً لألزم أهل محلته ديته،

---

(١) البخاري (٣/٣٠٨).

وكذلك لو منع إنسان فضل مائه أو طعامه عن إنسان في فلاة، فمات، لزمته ديته.

وهذا وأمثاله يجعل الصدقة المندوبة واجبة. ويصدق عليها الحديث: **«في المال حق سوى الزكاة»**.

أما أحكامها الأخرى من جهة أدائها وآدابها وعلاقة صاحبها بها: فلهذا أبواب متعددة، وسنلمُّ بها إن شاء الله لأنها هي المقصود الأول في هذا الحديث. ولكن كلها تقع في إطار واحد وهو: الإحسان. والذي هو أخص أبواب الدين كله بعد الإسلام والإيمان.

فمن أحكامها الآتي:

١ ـ **أولاً** وقبل كل شيء: **أن تكون طيبة** ومن كسب طيب للحديث: **«إن الله طيب ولا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً»**.

فطرية هذا الحكم: لما هدمت الكعبة وأرادت قريش أن تبنيها قالوا: انظروا مالاً حلالاً لا حرمة فيه، فإنكم تتعاملون بالربا، وتأخذون حلوان الكاهن، ومهر البغي، وهذا لا يليق ببيت ربنا تعالى. فجمعوا من حلي نسائهم حيث أنها مال جامد لا يتداول في الأسواق.

ورضوا أن يقصروا من إقامة جميع القواعد على قواعد إبراهيم، ويحفظوا الباقي بالحجر، لئلا يختلط بالمسجد من أن يتموا البناء بمال فيه محرم.

ولعله أول أثر من آثار هذا النوع يعود على الإنسان بتعوده الحلال في كسبه، فيعود على نفسه في بدنه وفي عمله وعلى أولاده، كما هو معلوم في الحديث: **«كل لقمة ينبت منها لحم ودم وعظم، فكل ما نبت من حرام فالنار أولى به»**. وبالتالي فإنَّ تحري الحلال يعين على الطاعة وينشط صاحبها عليها.

وفي قصة الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في زيارته للمدينة واستضافة مالك إياه وما لاحظته ابنة مالك من إكثار الشافعي من الطعام، فأفاد: بأنه منذ أن فارق بيته لا يأكل إلا كفافاً، مخافة الشبهة في الكسب. ولما جاء إلى مالك واطمأن إلى الكسب الحلال في طعامه، أكثر وشبع ليكون عوناً له على طاعة الله.

ومن البديهي أن الإنسان لا يُقَرِّب إلى الله شيئاً يبتغي مرضاته إلا إذا كان

هذا الشيء طيباً عند الله. وإلا لكان بتقديمه غير الطيب جالباً على نفسه سخط الله، والله غني عن ذلك وعن غيره.

ثانياً: أن تكون الصدقة عن ظهر غنى: لأنه لا ينبغي للإنسان أن يتصدق بما تطلع إليه نفسه ويحتاجه حتى لا يوقع الملامة في نفسه، والغنى هنا قسمان:

أ ـ غنى مادي بأن يكون مستغنياً بفضل ماله عما تصدق به هو ومن يعول ولوازم حياته. وهذا القدر لعوام الناس، وقد يشاركهم فيه الحيوانات، لأن الحيوان لا يمنع فضل طعامه إذا شبع أما في حالة الجوع فإنه يدفع كل من شاركه طعامه، حتى الحيوانات الأليفة من بهيمة الأنعام.

ب ـ غنى معنوي: وهو غنى النفس ولو كان طاوياً، وهذا النوع لخواص الناس.

كما امتدح الله تعالى الأنصار بالإيثار على النفس ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وقد فاز الصديق بقصب السبق إذ تصدق بجميع ماله، وقال لرسول الله ﷺ لما سأله عما ترك لعياله: تركت لهم الله ورسوله. وكان عمر تصدق بنصف ماله ظاناً في نفسه أن يسبق أبا بكر وما دري بما فعل أبو بكر، ولما علم قال: والله لا أماريك بعدها أبداً.

وقلنا: إن هذا لخواص الناس، بل لخواص خواصهم، وهم من كان عياله على شاكلته، يؤثرون كما يؤثر، ويصبرون كما يصبر.

أما عامة الناس فكما تقدم في القسم الأول وهو الحكم العام الذي يعتبر القاعدة في هذا الباب وما بعده متدرج في التسامي ابتداءً من النفس، ثم الأقرب فالأقرب. كما في الحديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: عندي درهم يا رسول الله. فقال ﷺ: «**أنفقه على نفسك**». فقال: عندي درهم آخر. فقال: «**أنفقه على أهلك..... إلى ذوي رحمك**». ثم قال له: «**شأنك به**».

أفضل أنواع هذا القسم: بما أن هذا القسم لا إلزام فيه ولا حد له، وإنما هو متروك لقوة صلة العبد بالله، وأرجاهم لفضل الله، فإن أفضل أنواعه ما كان أقرب إلى النفس، وأحبها إليها، فتنزل عنه لله تعالى مؤثرة ما عند الله على ما عندها. ولذا جاء الحديث جواباً عن سؤال في أفضل الصدقة:

قال ﷺ: «**أن تصدق وأنت قوي صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر**». وفي هذه الحالة تكون الصدقة أعلى منزلة، وأعظم قدراً، وأبلغ أثراً في النفس، وأقوى دلالة على صدقه مع الله.

وكما جاء أيضاً في أفضل الصدقة عند الله، قال ﷺ: «**أنفسها عند أهلها**». وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه أهدى جملاً في أنفه حلقة فضة من أكرم أنواع الإبل كان قد أعطي فيه ثمانين بعيراً. ولما سئل عن ذلك، وقيل له: كان يكفيك غيره. قال: أردت إغاظة المشركين.

وروى مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لبنيه: يا بَني لا يهدين أحدكم من البُدن شيئاً يستحي أن يهديه لكريمه، فإن الله أكرم الكرماء، وأحق من اختير له.

اعتبار هذا النوع بالكيف لا بالكم:

ويعتبر فضل هذا النوع بالكيفية والصورة التي تقع بها من سماحة النفس، ورغبة الإحسان لا بالكثرة والمظهر والتكاثر. ولذا فقد يسبق الدرهم الواحد مائة ألف درهم من حيث الفضل والأجر.

وجاء الحديث: «**درهمٌ سبق مائة ألف درهم**» فقالوا: وكيف يا رسول الله؟ فقال: «**رجل عنده درهمان فتصدق بأحدهما. وآخر عنده مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها**».

أي أن الأول تصدق بمعدل شطر ماله. ولم يبق بعده إلا درهم واحد وأما الثاني فقد تصدق بشيء من عرض ماله، أي أنه لم يتأثر به وبقي له بعد ذلك الشيء الكثير.

أثر النية الحسنة في ذلك:

وقد يدرك العبد بالنية الصالحة، ما يحصل للمتصدق بالمال الكثير. كما جاء في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث أقسم عليهن...**» إلى أن قال: «**وأحدثكم حديثاً فاحفظوه**». قال: «**إنما الدنيا لأربع نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً. فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً فهو صادق**

النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً، فهو بأخبث المنازل. وعبد لم يعطه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته فوِزرهما سواء».

فقد أدرك صاحب النية الحسنة من الفضل والمنزلة مثل ما أدركه صاحب المال الذي يعرف حق الله فيه ويصل به رحمه.

مصرف هذا القسم:

تقدم في القسم الأول الذي هو الفرض بيان مصرف الزكاة بنص القرآن الكريم في آية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ . . .﴾ الآية.

أما هنا فليس لمصرفها من حدود ولا تعيين. فيجوز صرفها في مصارف الزكاة السابق بيانها، لأنها تطوع، وحيث وضعتها صادفت محلاً.

وتزيد مصارف هذا القسم فتشمل جميع أنواع أبواب الخير التي لم تذكر في مصارف الزكاة: من صلة الرحم، والتوسعة على الأيتام والأرامل والمعوزين، وبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والقناطر، والصدقات الجارية من سقي الماء، وتوريث مصحف، وغرس نخل، وبناء مسكن لمنقطعين، وما لا يمكن حصره من هذا القبيل.

٣ ـ آثارها:

لقد ظهرت آثار صدقة الفرض في مصارف الزكاة الثمانية، وتأثيرها على الفرد والجماعة.

وكذلك الحال هنا، فإن آثار صدقة التطوع موجودة بأوسع وأعم من صدقة الفرض حسب سعة مصارفها، فيشمل أثرها الغني والفقير كالمرافق العامة في تسبيل الماء، وبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والجسور، وكتب العلم وما إلى ذلك.

كما أنها تكون متجددة الأثر في نفوس الأغنياء بالطهر والتزكية. في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وفي هذا النص

القرآني الكريم الشامل للفرض والنفل، ـ وهو في الفرض أسبق للتكليف بالأخذ ـ يشير إلى الأثر العظيم النفسي والمالي، ففي النفس تطهيرها من الجانبين:

جانب الغني المنفق عن أدران الشح، ورذيلة البخل، ووصمة القسوة، وانعدام العاطفة، واكتساب البذل والكرم، واللين والعطف على المحتاجين، والتعاطف مع المجتمع بجميع طبقاته.

وجانب الأخذ من غريزة الحقد، ونار الحسد، وما يترتب على ذلك. وتزكية المال بالنماء والزيادة.

فهي عامل مشترك تطهر النفس والمال من كل رذيلة، وتزكي النفس والمال بكل فضيلة. ومن صور زكاة المال ومضاعفته في الدنيا قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وفي الحديث: «**ما نقص مال من صدقة**».

والحديث: «**إن أحدكم إذا تصدق بصدقة فتقع أول ما تقع في كف الرحمٰن فينميها له كما ينمي أحدكم فلوه حتى تكون كجبل أُحُد**».

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وفي الآخرة ما جاء في الحديث: «**المرء في ظل صدقته يوم القيامة**» وحديث: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**».

وغير ذلك من النصوص الدالة على مدى آثار الصدقة على الفرد المنفق والآخذ. وهناك آثار عامة على المجتمع ككل: من ذلك ما قدمنا من تعاطف الأغنياء مع الفقراء وحرص الفقراء على نماء أموال الأغنياء لما بين الفريقين من ارتباط عن طريق تلك الصدقة.

وكذلك الخير الأعم كما في قصة صاحب المزرعة الذي ورد في الحديث: «**بينما رجل يمشي في فلاة من الأرض إذ سمع صوتاً في السحاب يقول: اذهبي فاسقي مزرعة فلان، فمشى في ظل السحابة حتى أتت على أرض حرة فأمطرت فتجمع الماء وجرى في شرجة حتى انصب على مزرعة وجد فيها رجلاً يحول**

الماء فيها فسلم عليه باسمه. فقال له: ومن أعلمك باسمي وأنت لست من أهل هذه الأرض؟ فأخبره بما سمع وسأله ما يصنع فيها؟ فقال: أقسم حصادها ثلاثة أقسام: قسماً لي ولأولادي، وقسماً أعيده في زرعها، وقسماً أتصدق به. فقال: بهذا سقاك الله».

ولو نظرنا إلى عكس هذه القضية نجد أصحاب الجنة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٩].

فالأول استمطر السماء بتصدقه، والآخرون أهلكوا بستانهم بشحهم، فظلموا أنفسهم.

وتقدمت قصة صاحب الإبل الذي وجبت صدقته في بنت مخاض فأبى إلا أن يعطي ناقة كوماء، ودعا له رسول الله ﷺ بالبركة في ماله فكان يعطي العديد من الإبل في زكاته.

فآثار الصدقة على الفرد: في نفسه وفي ماله وفي دنياه وآخرته.

وآثارها على المجتمع: بالترابط والتعاون والتآلف وحب الخير المتبادل بين الجميع، فيصبح المجتمع المسلم كما وصفه الله: كالبنيان المرصوص، وكما وصفه رسول الله ﷺ: **«كالجسد الواحد»**.

وليس ذلك عن مجرد إحساس إنساني كما قد يوجد في بعض المجتمعات المتحضرة فتفتح بيوتاً للعجزة، وتضع صناديق للتضامن، فهذا إحساس عام وإنسانية متجاوبة.

ولكن تصدق المسلم كفرد على بقية الأفراد إنما هو مع القدر المشترك مع الآخرين في عموم الإحساس الإنساني، فهو ارتباط بين العبد وربه سبحانه، والدافع الأول إنما هو العنصر الرابع في هذا الحديث الذي نحن بصدده وهو الحب في الله، فالمتصدق أحب الله تعالى، وأحب من يحب الله، وأنفق من ماله فيما يحبه الله.

٤ ـ آداب هذا النوع:

مما هو معلوم في عمومات التشريع: أن الإسلام كله رسالة آداب ومكارم أخلاق، كما بيّن ﷺ في قوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

ولما امتدح الله رسوله الكريم امتدحه بالوصف الجامع لأصول الفضائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ولو نظرنا إلى قضية ذات طرفين من عموم الكتاب والسنة، لوجدنا مدى انحصار التشريع الإسلامي كله في هذه الفضيلة «حسن الخلق» القضية الأولى من كتاب الله تعالى في قوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

فانظر رحمك الله إلى تلك الخصال كلها من معتقدات بأركان الإيمان كلها، وأعمال أركان الإسلام، واجتماعيات في الوفاء بالعهد، وكمالات في الصبر على الضراء وحين البأس والشدة، بمثابة الدليل على صدقهم مع الله، والشهادة لهم بأنهم (هم) ـ لا سواهم ـ المتقون.

وكل خصالهم تلك قد عنون لها بالبر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ . . .﴾ إلى آخر الآية. والطرف الثاني من السنّة وهو قوله ﷺ: «**البر حسن الخلق**».

فلكأن حسن الخلق الذي هو محمول قضية البر هنا، هو بعينه في موضع محمول القضية القرآنية، ولكن البر: أي أن حسن الخلق في معناه يعادل من الإيمان بالله وما ذكر معه مجموعاً في آية واحدة. من هذا المنطلق نقول: إن لكل عبادة آدابها الخاصة بها والتي تتلاءم مع مشروعيتها وتأديتها الغرض منها، ولو تأملتها لوجدتها في كل عبادة كالجزء المتمم لها.

خذ أولاً النطق بالشهادتين: من ألزم لوازمها الإخلاص بها لله وهو متمم لتوحيد الله تعالى، لأنه لو راءى بها لتنافى مع مدلول التوحيد لوجود الشركة فيها بقدر ما يقع من رياء بها.

ثانياً الصلاة: وآدابها؛ الخشوع والخضوع لله تعالى، لأن الصلاة تذلل العبد بين يدي ربه، في ركوعه: إعظاماً لله، وفي سجوده: تواضعاً لله، وفي تلاوته وتذلل مسألته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥].

فلو لم يكن في صلاته خاشعاً خاضعاً لما كملت صلاته ولما تم فيها معنى التذلل لله رب العالمين... إلخ.

ثالثاً الصوم: وأصله الإمساك عن الطعام والشراب، وترك تناول الحلال: من مطعم ومشرب ونساء، فكان من آدابه: صوم اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة، بل والعين عن النظر المحرم، والأذن عن التسمع الممنوع... إلخ.

فلو لم توجد آدابه لكان متعارضاً في عمله، وإلا فكيف يمسك عن الطعام والشراب الحلال ويأكل لحوم الناس؟

وقد فصل ذلك رسول الله ﷺ في قصة المرأتين اللتين كانتا تصومان وتغتابان: فأحضرهما وقدم لهما قدحاً، فقاءتا فيه دماً ولحماً عبيطاً، فقال: «**تصومان عن الحلال، وتفطران على الحرام، وتغتابان الناس**» يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الآية [الحجرات: ١٢].

فكانت آداب الصيام بمثابة متمماته وكماله، كما تقدم في الصلاة والشهادتين.

وكذلك الحج الذي تجتمع فيه الخلائق من ﴿كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، ولا بد لهذا التجمع من عوامل حماية وصيانة لكي يتحقق لهم شهود المنافع المنشودة، فجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] سواء كان المراد من في الحج في مواضيعه وأنساكه، وكله صحيح ولكل أن ينسك ما يريد، أو في الحج في زمنه منذ أول شهره إلى منتهى أعماله، ليبقى الجميع على وفاق ووئام دون أن يُدْخِل الجدل عليهم النزاع والاختلاف.

فكذلك الحال في الصدقة: بل إن القرآن أكثر الإيراد فيها سواء في كيفيتها، أي كيفية أدائها، وفيما يلحقها وما يترتب عليها، فإن آداب الصدقة تدور حول محور واحد وهو كما قدمنا: مصلحة المسكين.

أي كما أن الصدقة إنما هي إرفاق بالمساكين، فكذلك آدابها متممة لهذا الإرفاق، ومكملة ومجملة له، فمنها الآتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالنص في عمومه يعطيك الخير بين إبدائها وإخفائها، ولكن مع الإخفاء قيّد إتيانها الفقراء.

وقال بعض العلماء: إبداؤها راجع للفريضة لإظهار شعائر الأسلام وليتأسى به الآخرون، وإخفاؤها راجع لصدقة التطوع، ولأن الفرض واجب فلا مِنَّة له فيه.

والذي يظهر لي والعلم عند الله تعالى: أن إبداءها جاء مطلقاً عن قيد الجهة وإخفاءها جاء مقيداً بصنف وهم الفقراء.

وعليه نقول: سواء كانت الصدقة فرضاً أو تطوعاً نظرنا إلى مصرفها فإن كان عاماً لا يختص بإنسان بعينه كالجهاد، ولبيت المال، لغارم أو منقطع، فلا مانع من إبدائها.

وإذا كانت لإنسان بعينه، وشخص بذاته، فإن إخفاءها وإيتاءها إليه خفية حتى ولو على نفسه هو، كأن يضعها في جيبه وهو لا يشعر بمن وضعها ولا متى وضعها، حفاظاً على شعوره ونفسه.

فهو الذي يتم معه قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ سواء المعطي لبعده عن الرياء أو الغرور أو محبة وانتظار الثناء من الآخذ، بل يقطع على نفسه كل طرق التعلق بغير إرادة وجه الله تعالى، وهو الذي أحق بالوصف بعد، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

ويأتي التذييل ليوقظ ضميره إيقاظاً تاماً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بأعمالكم وبما أردتم وكيف عملتم.

٢ ـ ومنها ما ينص على أن ما ينافي الإرفاق بالمسكين يتنافى مع مشروعية الصدقة تماماً، بل ويبطلها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٣ ـ ومنها امتداح الذين يُحاذرون إيذاء الفقراء بشيء من ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى

لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

٤ ـ ومنها جعل كلمة معروف بدون بذل المال خير من صدقة يتبعها أذى كما في قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وإن أهم ما يحرص عليه الإسلام مع الفقير والمسكين لهو حفظ كرامته وعزة نفسه، ألا ترى في الزكاة المفروضة والتي هي حق له في مال الغني أعفاه من كلفة المطالبة بها وجعل ذلك على رسوله الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] ومعلوم أنه لن يأخذها لنفسه ولا لأهل بيته، إنما هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية.

فإذا كان هذا في الفرض الواجب له، فما بالك بالمندوبة والتطوع.

ولهذا كان في هذا الحديث: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما أنفقت شماله**». أي يخفيها حتى على بعض جوارحه، فعلى إخوانه وأولاده من باب أولى، ثم على بقية الناس أوْلَى وأحرى.

والرواية الأخرى: «**حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه**» وقال البعض: إن في الحديث قلباً، بوضع الشمال موضع اليمين.

ونقول: ليس هناك قلب، والأمران صحيحان، ولكن الرواية الأولى أولى وهي المناسبة للمعنى المراد وهو عامل الإخفاء والإمعان فيه.

لأن اليمين هي التي من عادتها تتحرك وتتصرف وتعطي، فلو كان إنسان مظنته العطاء، وأراد الناس مراقبته لتسلطت أنظارهم إلى يمينه، فيفوت عليهم الفرصة وينفق بشماله خفية، حتى لا تعلم يمينه.

لعل من خلال تلك النصوص نخرج بنتيجة عظيمة وهي: أن هذا الصنف من الناس في هذا الحديث إنما يتعامل مع الله، ولله وحده، لأن إيمانه بالله ويقينه فيما عند الله ومحبته لوجه الله جعل منه إنساناً يتسامى عن شكليات لا طائل تحتها، سواء سماع الثناء، أو إهداء الشكر، أو العرفان بالجميل، أو غير ذلك، لأنها بمثابة الطيف يرى ولا يلمس وسرعان ما يتلاشى وقد يوهم بسراب خادع، أما مراقبته لله، وانتظاره لما عند الله، فهو الباقي المدَّخر له، وهو حقيقة رد الجميل وشكر المنعم الجليل.

خطوة أخرى: وهناك خطوة أخرى وراء إخفاء الصدقة، ووراء إنفاق المال

سراً وعلانية، وبالليل والنهار، ألا وهي إنظار المعسر، وإسعاف المقترض.
فهل يا ترى هذا الذي تسامت نفسه إلى حد الإغضاء عن البشر والتعامل مع رب العزة سبحانه يرد محتاجاً يأتي إليه ويسأله قرضاً لحاجة، أو معسراً يطلبه نظرة إلى ميسرة؟ لا وكلا، لأنه يعطي قبل أن يُسأل ويخفي صدقته على من تصدق عليه فكيف يكف يده عمن سأله وأظهر حاجته عنده؟

وبالتالي فهل نرى مثل هذا الصنف يحارب الله ورسوله في ميدان المراباة؟ لا وكلا.

ولعل بهذه المناسبة نسوق آيات الإنفاق في آخر سورة البقرة لنرى إلى أي مدى تذهب بالإنفاق والمنفقين وفي أي منزلة تضعهم وإن كان ذلك تطويل إلا أنه من تمام الغرض الذي أردناه من الكتابة على هذا الحديث.

وأجمع سياق الموضوع الإنفاق مادة ومنهجاً ما جاء في سورة البقرة ابتداء من قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [٢٦١ إلى نهاية الآية ٢٧٤]، ويليها الكلام على الربا. وسنورد تلك الآيات لبيان هذا المنهج إن شاء الله.

١ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

لا يوجد مثال أوضح وأبين من هذا المثال القرآني لجمال الصورة وعظيم المضاعفة: جمال الصورة في زرع نام حبة تنبت سبع سنابل، كل سنبلة جمال في ذاتها، كما بيّن تعالى هناك في مثل المؤمنين: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهنا نقول: يعجب الزراع ليغيظ به البخلاء الأشحاء.

وعظيم المضاعفة في هذه النسبة وهذا التدرج:

حبة ينتج عنها سنابلُ سبعٌ، منظر كريم، وعدد مضاعف، السنبلة الواحدة فيها مائة حبة، وهذا العرض التدريجي يجعلك تنتقل من وحدة الحبة إلى عدد السنابل، إلى مضاعفة العدد مائة مرة، فتصل إلى السبعمائة من تسلسل فكرك، وتصدر عليه حكمك، وهذا أقوى أثراً في النفس من أن تعطي العدد مرة واحدة: كمثل حبة أنتجت سبعمائة حبة.

ثم إن النص ليوقفك على قمة تطلع إلى سعة فضل الله في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ يعني فوق هذا العدد، والله واسع عليم لا يستكثر عليه شيء.

وبالرجوع إلى هذا النص مرة أخرى، نجد منهجاً جديداً ألا وهو حد محدود في نطاق العدد، وباب مفتوح في فسحة الأمل، وهو باب تلك المضاعفة، إلا أن التحديد بالعدد جاء عاماً على الإطلاق أما فسحة الأمل في المضاعفة فمقيد لمن يشاء، فَمَن هم هؤلاء أصحاب تلك المشيئة، والذين اختصهم الله بهذه المضاعفة؟

لعل الجواب عن ذلك في الحديث النبوي الشريف في قوله ﷺ: «**درهم سبق مائة ألف درهم**». فقالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**رجل عنده درهمان فتصدق بأحدهما، ورجل عنده مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها**».

يعني أن المقياس عند الله في حساب الصدقات بنسبتها عند أهلها: فصاحب الدرهم تصدق بنصف ما يملك ولم يبق له إلا درهم واحد في يده. وصاحب المائة ألف تصدق بجزء من عرض ماله، وبقي في يده الشيء الكثير.

ولعل الآية التي تلي آية السنابل السبع تعطي صورة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

فقد بينت آداب هذا الإنفاق، وطريقته في عدم اتباع تلك النفقة ما يعكر صفوها.

وقد نجد فيها المقابلة مع الآية قبلها حيث فيها الجزاء من جانبين:

أولاً: لهم أجرهم عند ربهم، وعادة يكون الأجر معلوماً فهو أقرب إلى اعتبار العدد المنصوص عليه في الآية السابقة.

ثانياً: ففي الخوف عنهم والحزن، وهذا ليس له حد، لا في نوع ومقدار الخوف، ولا مما يخافون، ولا في نوع ومقدار الحزن، ولا عما يحزنون، وهذا أقرب إلى اعتبار المضاعفة لأهل المشيئة المنصوص عليه في الآية قبلها.

وهذه المقابلة مع الإرشاد والتوجيه لحفظ كرامة المساكين، وسلامة نفوس المنفقين، مجموعة مكارم أخلاق، خاصة في هذا السبيل مما يجعل تلك الصدقة، أو هذا الإنفاق يحقق الغرض منه: من تعاطف وتراحم، وتعاون وإخاء.

ولهذا أعقب ذلك سبحانه بوصف كاشف لمفهوم ما قبله في بيان عواقب المن والأذى، والبديل عن ذاك: الإنفاق، فقال تعالى:

٣ ـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣].

انظر إلى هذه المقابلة بين القول والفعل، وما بينهما من بون شاسع: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ تجيب به السائل مثل قولك: الله تعالى يعطينا ويعطيك، أو قولك له: معذرة لعدم وجود ما أعطيك، هذا إذا لم يكن معك ما تعطيه. فإذا كان معك فلا تحتقرن من المعروف شيئاً وتذكر قوله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**». وافعل كفعل أم المؤمنين عائشة حين أعطت المسكين حبة عنب، فاستقلها، فقالت: انظر كم فيها من ذرة. والله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧] وقد يكون معك، ولكن تمسك عنه لظروف ما، فقل له قولاً معروفاً.

فإن هذا القول المعروف منك خير من أن تتصدق عليه، ثم تتبع صدقتك أذى تلحقه به، أياً كان نوع الأذى، سواء تجهم الوجه، أو إظهار التثاقل منه، فضلاً عن كلمة يسمعها منك ولو بقولك: أف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ يشعر بأن السائل قد يبدر منه ما يستشعر منه المسؤول بالحرج، كالإلحاح والتردد. وهنا يلزم الحلم والمغفرة، وما يدريك لعل الحاجة دفعته، أو ضعف النفس حمله. فهو دائر بين أمرين محتاج دفعته الحاجة، أو ضعيف النفس واقع تحت سيطرتها ونوازعها، وعلى كلتا الحالتين يستحق العذر والمغفرة.

وهذه المعاملة الأخلاقية الحميدة ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ﴾ مما سمى الله ﴿صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ لأنها قد تجرح قلبه، أو تؤلم شعوره، فيجتمع عليه مضض الحاجة، وإيذاء المتصدق، عافانا الله وإياكم، وأغنانا وأغناكم. ثم

بيّن تعالى أن لهذه الأعمال الخيرة معوقات قد تبطلها، ومن رحمة الله بعباده حذرهم منها لتسلم لهم أعمالهم، فقال عقب ذلك:

٤ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ فبعد أن جاء بالمقارنة بين ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ﴾ وبين ﴿صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ بيّن في مستهل هذه الآية أن المن والأذى مبطل للصدقات.

ثم جاء بالإيضاح في نهاية الآية بإقامة مثل كاشف ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ وهذا المثال يوضح عمق الإيمان، وسطحية النفاق. حيث أن الذي يمتن على المسكين بالصدقة غالباً ما يكون أمام الناس، فيكون الحامل له على التصدق هو الرياء، وهذا شأنه عدم الإيمان بالله الذي وعد المتصدقين بالعوض: الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف مضاعفة، ولم يؤمن بوعد الله وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٤٥، والحديد: ١١] إلى مثل ذلك من النصوص.

وقد بيّن هذا الموقف رسول الله ﷺ في الحديث الطويل: «**والصدقة برهان**». فقالوا: برهان على تصديقه وإيمانه بما عند الله من العوض والأجر، لأن قانون الحياة المعاوضة؛ كالبيع والإجارة، كل ثمن مقابل سلعة: وهذا يعطي المال، ولا يأخذ عما أعطاه شيئاً، بل وقد يخفيها عليه حتى لا يعرفه كما تقدم، لأنه يتعامل مع الله إيماناً بوعده.

أما من لم يؤمن بالله حقاً ولا باليوم الآخر، فلن يعطي شيئاً ينتظره غداً، لأنه لا يؤمن بهذا الغد.

ثم بيّن تعالى عمله هذا الذي يرائي به الناس ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾، أي صخرة ملساء ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مطر شديد. فأزال هذا التراب ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾، أي: ترك الصفوان خالياً من التراب. ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾، أي: أذهب الرياء ثواب صدقاتهم كإذهاب الوابل ذاك التراب عن الصفوان، وكما أن الصفوان لم يقدر أن يمسك بالتراب الذي عليه فكذلك هؤلاء لا يقدرون على الإبقاء على شيء من تلك الصدقات.

ثم يأتي بمثل في المقابل للصنف الأول: الذين ينفقون أموالهم ولا يتبعونها بمَن ولا أذى، ولكن ابتغاء وجه الله، فيقول سبحانه عقبها مباشرة:

٥ ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وهنا أيضاً أسلوب المقابلة:

أ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، في مقابل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ﴾.

ب ـ **كمثل جنة بربوة**، والجنة الحديقة أزهرت وأينعت تقع بربوة نابية رابية تستمتع بطيب الجو واعتدال الهواء مع خصوبة التربة. في مقابل حصاة صلدة صفوان بالغ من القساوة نهايتها.

جـ ـ وكون هذه حنة ثابتة في تربة خصبة تقابل هذا الموقع الذي أصله صفوان غطي بطبقة من تراب، لكنها طبقة رقيقة لا تقوى على الإنبات وحينما أصابها الوابل الذي من شأنه أن يروي التربة وتجود بالإنبات، أزال تلك الطبقة الساترة، أشبه ما يكون بعمل المنافق يظهر خلاف ما يبطن، لقد أظهرت تلك الطبقة وجه التربة المنبتة، ولكن سرعان ما انكشف هذا الوجه عن الحقيقة: صفوان صلد، بل إن تلك الجنة بربوة إن لم يصبها مطر غزير وابل وأصابها طل، أي مجرد ضباب رطب ينزل عليها فإنها لخصوبة تربتها وحسن منبتها تجود بالثمار، وحقيقة ما وقر في القلوب من رئاء الناس أو ابتغاء مرضاة الله لا يعلمه إلا الله وهو سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم يرسل القرآن الكريم صورة حية ماثلة للعيان وبنفس مواد السياق وبأسلوب التساؤل الذي ينتزع الإجابة من المخاطب بعد النظر والاقتناع.

٦ ـ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تصوير رائع لأجمل ما تكون عليه الجنات نخل باسقات، أعناب ممتدات، أنهار جاريات يتخللها في جميع أرجائها مختلف الغروسات، له فيها من كل الثمرات، لم يبق لصاحبها أماني، ولا متطلع لزيادة، لأنها قد استكملت كل صنف.

في الوقت الذي أصابه الكبر، أي أفنى عمره في إنشائها وصرف قوته في

غراسها، وله ذرية ضعفاء نسوة أو أطفال أو عجزة يضعفون عن إيجاد مثلها وأحوج ما يكونون إلى غراسها وثمارها.

وهو على تلك الحالة وفي هذا الجو وتلك البيئة ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، فكم تكون همومه؟ وإلى أي مدى تبلغ أحزانه؟ هموم لضعافه رأي العين، أحزان لماضيه الذي ضاع واحترق، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. ثم يوجه الله عباده إلى المنهج السليم والعمل الصحيح فيخاطب المؤمنين:

٧ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وليس من تعليق على هذه الآية أكثر من التنبيه على أنها توازن بين المؤمنين والمنافقين. وكل إناء بالذي فيه ينضح.

وتحقيق قوله ﷺ: **«إن الله طيب ولا يقبل إلا ما كان طيباً»**.

٨ - وفي هذه الأثناء وبعد الأمثلة الواضحة يبين أن عمل المنافقين إنما هو من الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء.

وأن عمل المؤمنين تصديق بوعد الله: يعدهم مغفرة منه وفضلاً ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

٩ - وبعد آيتين اثنتين يأتي بأحسن آداب الصدقة: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

وهذه الآية من صلب موضوع حديث السبعة هذا: **«ورجل تصدق بصدقة فأخفاها»** ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما في إخفائها من السلامة من الرياء، ومن توجيه الإيذاء للفقراء، والرقيب الله. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١٠ - ثم بيّن تعالى أن هذا المنهج الطويل والتفصيلات الواسعة إنما هو رأفة بكم وتحصيل لمصلحتكم وأن السعيد من وفّقه الله وهداه إلى الصواب فيقول تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ

مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ وهذا تحقيق أن ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنه يوفى إليكم، وفي قوله: ﴿يُوَفَّ﴾ إشعار بالزيادة بدلاً من يُرد إليكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] لا ينقص مما أنفقتم شيء ولكن يزاد لكم الحسنة بعشرة أمثالها.

١١ ـ وأخيراً يبين طرق الإنفاق، ومن أولى من الفقراء الذين تؤتى إليهم؟ فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة: ٢٧٣] انظر هذا الوصف للفقراء، والاعتذار عنهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. لكونهم مؤمنين أحصرهم الإسلام بالنسبة للكفار من حولهم.

وتأمل هذا الوصف الذي أبرز حقيقة العفة والقناعة على سيماهم من عدم التضجر وعدم الاستياء مما هم فيه وصدق الشاعر في هذا المعنى:

إن الكريمَ لَيُخْفِي عنكَ عُسْرَتَهُ ... حَتَّى تَراهُ غنياً وهو مَجْهُودُ

وقبله يقول:

بُثَّ الجميلَ ولا تمنعْكَ قِلَّتهُ ... فَكُلُّ ما سَدَّ فقراً فهو مَحْمودُ

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ يفيد أن الذكي الفطن لا تخفى عليه حالهم، فهو يدركها بشفافية حسه وذوقه.

١٢ ـ ومسك الختام لهذا السياق قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ سبحان الله! قد شمل الزمن والكيف ليلاً ونهاراً بدون توقف، بدون انقطاع، بدون تمييز زمني؛ سراً وعلانية؛ على كل حال يقتضيه المقام: إن سِرّاً فيسرَّ بها، وإن علانية فيعلنها: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]، أي على كل حال من حالاتهم: في غناهم وفقرهم، في فرحهم وحزنهم، في شدتهم ورخائهم. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي: والمخفين حالاتهم على الناس ﴿وَٱلْعَافِينَ﴾ عن الناس ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي:

أنهم كما ينفقون من أموالهم، فكذلك من حسن أخلاقهم: من كظم الغيظ عمن أغاظهم، والعفو عمن أساء إليهم وهذا قمة الإنفاق في السراء والضراء والله سبحانه يحب المحسنين وكفى بهذا جزاء وتفضلاً.

يأتي بعد سياق آيات سورة البقرة بعد ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يأتي بعدها مباشرة النهي عن أكل الربا، وهنا يكون التعليق كالآتي:

أولاً: إن الذي ينفق أمواله ابتغاء وجه الله، وتثبيتاً من نفسه. والذي ينفق بصفة دائمة ليلاً نهاراً، وعلى كل حال سراً وعلانية، وفي كل الظروف في السراء والضراء، من كانت هذه حالته لن يبخل بقرض حسن يفك به قيد مكبول وعانٍ، ويفرج به كرب مكروب، ويرد به لهفة ملهوف، ويقضي به حاجة مضطر. وإنه ليكون أبعد ما يكون عن أخذ مال ربوي بدون عوض، وبالأحرى الذي يتعامل مع الله لن يقف موقف المحارب لله، في أخذه الربا وقد نُهي عنه.

ثم هو أيضاً إذا كان ينفق سراً وعلانية، وفي السراء والضراء، فهل يقع منه غش أو تدليس أو خيانة؟ بلا شك أنه سيتنزه عن كل ذلك، وعن كل ما فيه أكل أموال الناس بالباطل، إنه مسلك كريم، وأثر جد عظيم، يؤهل صاحبه ليستظل ـ مع المذكورين ـ في ظل الله، يوم لا ظل إلا ظله.

٥ ـ كيف نوجد هذا الصنف:

السؤال المفروض حول هذا الصنف، والذي يتطلع إلى جوابه كل مصلح وداعية إلى الله هو: وكيف نوجد هذا الصنف في المجتمع الإسلامي؟

أعتقد أنه أولاً وقبل كل شيء أن العطاء والبذل، أو الإمساك والشح: نوع من السجايا، والشح أقرب إلى النفس البشرية ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ولهذا فإن البذل والعطاء مجاهدة لشح النفس ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ومعلوم أن الناس في هذا الباب ثلاثة أقسام:

١ ـ إما ممسك مقتر، وإما منفق مبذر، وإما بين بين، تارة وتارة، والفضيلة

دائماً وسط بين طرفين كالشجاعة وسط بين طرفي الجبن والتهور، والكرم وسط بين التبذير والتقتير، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧] فمن كان على هذا الحد من الاعتدال، لا يتوجه إليه أمر ولا نهي، وأمامه مجال الترقي في الخير إن لم تكن عليه تبعات الآخرين، حتى لا يضيع من يعول فيأثم فيهم: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول**».

وإذا كان تميل كفته إلى أحد الطرفين فماذا تفعل به؟ يروي لنا المبرد في أدب الكاتب موقفاً ظريفاً بين شاعر وممدوحه. إذا قال الشاعر:

إن الصنيعةَ لا تعدُّ صنيعةً حتى يرادَ بها طريقَ المصنعِ

فقال الممدوح: دع عنك قول هذا القائل، إنه يريد أن يبخّلنا، ولكن أمطر المعروف مطراً.

فالشاعر يرسم طريق اصطناع المعروف في أهله ومحله. ولكن الممدوح خاف على نفسه وصمة البخل وأنه قد يمسك معتلاً بعدم وجود محل اصطناع المعروف. وقال: أمطر المعروف. ومعلوم أن المطر إذا نزل لا يختص بالتربة الخصبة ولكن يعم، وحيث ما وقع المطر فإنه ينفع حتى القيعان فتمسك الماء، وإن لم تنبت هي فيشربه غيرها ممن يمر بها.

وكذا نحن نقول لذي النفوس الشحيحة: أمطروا المعروف، واحتسبوا الأجر، ونسوق لهم أمثلة القرآن الكريم السابق ذكرها ومن السنة النبوية ما فيه الحث على الإنفاق، والثواب العاجل والآجل، مع إيقاظ ضميره وشعوره بحقوق هؤلاء الناس الذين امتحنوا بالفاقة، وابتلوا بشيء من النقص في الأموال والثمرات، وفضل صبرهم على الفاقة والحاجة، ومحاولة إخفاء حقيقة أمرهم وراء حجاب القناعة والتعفف، مما يحرك عواطف الآخرين إليهم.

٦ ـ أمثلة ونماذج:

وإذا كانت الأمثلة والنماذج ترسم طريق العمل، فإنا نسوق عدة أمثلة ونماذج مثالية. ومثاليات عالية:

أ ـ في ظل القرآن: قصة أصحاب الجنة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٠].

ويقابلها قصة السحابة التي سمع الرجل صوتاً يقول لها: اذهبي فاسقي مزرعة فلان، فيمشي في ظلها حتى أوقفته على حرة أمطرت ماءها فتجمع الماء وانحدر في شرجة إلى أن وصل مزرعة فيها صاحبها يحول الماء فسلم عليه باسمه الذي سمعه في السحابة. فقال: ومن أدراك باسمي ولست من أهل هذه الأرض؟ فسأله عن عمله في مزرعته وأخبره بما سمع فقال له: أقسم حصادها أثلاثاً: ثلثاً لي ولعيالي، وثلثاً أتصدق به، وثلثاً أرده فيها. فقال له: بهذا سُقِيت.

فهذا سُقي بصدقته، وأولئك أُحرقت جنتهم ببخلهم، والكل جوزي جزاء وفاقاً.

ب ـ وهذا أبو طلحة قام يصلي في بستان له، فرأى طائراً أهاجه إنسان فأخذ يطير بين الشجر، ويطلب فرجة بين الأغصان يخرج منها لم يجد لكثافة تشابك الأغصان، فأعجب ببستانه وأتبع الطائر بصره، ثم انتبه لنفسه وأنه يصلي فظن أنه فُتِنَ بما له فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ضعها يا رسول الله حيث شئت في سبيل الله.

وكذلك أبو طلحة لما سمع قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بيرحاء أحب مالي إليّ ـ وكان بستاناً جميلاً شمالي المسجد النبوي ـ فقال له ﷺ: «**بخ بخ مال رابح مال رابح**» وأمره أن يضعها في أقاربه هو.

وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت صائمة ذات يوم وجاء السائل عصراً فقالت لبريرة: أعط السائل شيئاً، فقالت: ليس عندنا ما نعطيه إلا قرص شعير لك تفطرين عليه، فقالت لها: أعط السائل وعند الإفطار يرزق الله، فذهبت بريرة متثاقلة وأعطت القرص للسائل.

وجاء وقت الإفطار وقامت أم المؤمنين تصلي المغرب وبريرة مشفقة عليها لأنه إلى الآن لم يرزق الله.

ولم تفرغ أم المؤمنين من صلاتها حتى أتى آت ولما فرغت رضي الله عنها من

صلاتها وإذا بشاة بقرامها، فقالت لبريرة: ما هذا يا بريرة؟ قالت: أهداه رجل والله ما رأيته قبل اليوم يهدي إلينا شيئاً قط، فقالت لها: كلي يا بريرة هذا والله خير من قرصك.

ثم قالت: والله لا يكمل إيمان العبد حتى يكون يقينه فيما عند الله أقوى من يقينه فيما في يده.

وكما قال الشاعر:

وما يدري الفقيرُ متى غناهُ وما يدري الغنيُّ متى يُعيلُ

وما تدري وإن ذَمَّرْتَا سُقْبَاً يكون لك أو يكونُ لك الفصيلُ

وهذه صورة من خوارق العادات تقع في القرن الرابع عشر الهجري في وادي الأفلاج: رجل خرج من بيته يرتوي الماء، فلم يجد حوله ماء، ودخل ما يسمى: الدحل. والدحل شبه المغارة تحت الجبل تتجمع فيه مياه الأمطار، يردونه أوقات الجفاف، ولكن يضل فيه من لم يكن خبيراً به.

ولما أبعد قليلاً وعرف أنه ضل الطريق وعجز عن الخروج جلس مكانه مظنة أن يجيء أهله إليه، ولم يصل الماء.

ولكن طال مكثه، واشتد جوعه وعطشه، فرفع يده يسأل ربه، فإذا بإناء (غدارة) بين يديه، أهوى به إلى فيه فإذا به حليب البقر الذي يعرفه تماماً، ومكث خمسة عشر يوماً على ذلك الحال إلا اليوم الأخير فلم يجد اللبن، وفي اليوم الأخير عثروا عليه وعجبوا أن يكون باق على قيد الحياة بعد تلك المدة الطويلة. فسألوه عن ذلك ولكن لم يجبهم. وسألهم هو: ماذا فعلتم بمنيحة بني فلان؟ لأيتام جيرانه، كان قد منحهم حليب بقرة كل يوم. فقالوا: كنا نرسلها إليهم إلا الأمس. فقال: قد علمت ذلك. قالوا: وكيف علمت وما الخبر؟ فأخبرهم بمجيء (غدارة) اللبن كل يوم إلا بالأمس فقط.

وبمثل هذه القصة أخبرني ـ أمام جمع من الناس ـ الشيخ الفاضل عبد الحميد عباس، وهو رجل فاضل لا يتهم على خير. قال: مثل هذه القصة وقعت لامرأة من جماعة النخاولة كانت تسير في طريق بضواحي قباء، فانخسف تحتها (دبل) وهو مجرى الماء في قناة تحت الأرض فسقطت وسحبها الماء إلى جانبه، وأمسكت بحجر وجلست عليه، ومكثت أربعة أيام،

ومر شخص في ذلك المكان فسمع صوتاً فنزل وأخرجها، ثم سألها أهلها: كيف كنت تعيشين؟ فقالت: إن (طاسة) الحليب التي كنت أعطيها للعجائز كانت تأتيني كل يوم. وكانت هذه المرأة عندها غنم، ولها جيران نسوة عجائز، فكانت تعطيهم (طاسة) حليب من غنمها.

إننا لا نستبعد شيئاً على فضل الله، وهذا مصداق الحديث: «**تَعَرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

ولعل هذا القدر في موضوع هذا الصنف من السبعة فيه الكفاية للقارئ، يتعظ في نفسه، وللداعية يجد فيه مادة للدعوة إلى البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله.



الصنف السابع

ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه

وَصْف الرجل هنا: هل هو مفهوم صفة أم لقب؟ فإن كان صفة فلا تدخل المرأة، وإن كان لقباً فلا يمنع دخولها. ونظيره قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧]. فقال الجمهور: رجال هنا في الآية مفهوم لقب. وقال والدنا الشيخ الأمين في الأضواء: هو مفهوم صفة، ويرجحه أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد. ولكن الذي يظهر هنا: أن الذكر أعم في الزمان والمكان والوصف. خالياً: يمكن حصوله من المرأة، كما يمكن حصوله من الرجل، إلا أن ذكر الرجل لا شك أن له مزية ولعله لكون الرجل أقل دمعة من المرأة، وهي أسرع بكاء منه، فكان الوصف برجل آكد، وتكون المرأة ضمناً، كما يكون هذا القسم السابع من هذا الحديث المبارك خاتمة الأوصاف السبعة الواردة فيه، وهو بمثابة مسك الختام وغاية المنتهى في مراحله، وبمثابة الإكليل من النور يتوجه به موضوعه.

١ ـ علاقة هذا القسم بما تقدم:

وقد سبق التنبيه عند كل قسم على علاقته بما قبله، وهنا كذلك يأتي التنبيه على ما يظهر من العلاقة لهذه الخاتمة بجميع ما تقدم.

فنقول وبالله تعالى التوفيق، ومنه الهداية والسداد:

١ ـ إن العلاقة هي علاقة النتائج بالأسباب والنتائج بالمقدمات، فقد بدأ الحديث على ما اخترنا من رواياته بذكر: «الإمام العدل» وقلنا هناك: إنه بعدله سيعم الخير، وتنتشر الفضيلة، ويستقيم حال الرعية، ويصلح حال المجتمع في

جميع أوضاعه، وستعيش الأمة تحت مظلة الرحمة على منهج الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، وسيتم أمر الدعاة إلى الله، ويُمكّن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ضمان بقاء الفضائل كلها والقضاء على الرذائل، وبهذا كله سيكون مجتمع الأمة في ظل هذا الإمام مجتمعاً مثالياً.

٢ ـ ثم ثنى بالشاب الناشئ في عبادة الله، وهذه النشأة الصالحة لشباب الأمة نتيجة عملية لصلاح المجتمع وعدالة الإمام.

٣ ـ وجاء الوصف الثالث: «**رجلٌ قلبهُ معلَّقٌ بالمساجد**» وهذا بالتالي امتداد لنشأة الشباب في الطاعة وأهمها الصلاة وفي جماعة المسلمين، ومحلها في المساجد.

٤ ـ والرابع: رجلان تحابا في الله، وتحابا على وزن تفاعلا، أي أن الحب بينهما قدر مشترك كوزن تشاركا وتحادثا، وكون محبتهما في الله فهي أيضاً تكون من منطلق حضور الجماعات وتوافق المنهج والسلوك، وتعارف وتآلف الأرواح وتجانس الطباع، فالذين يرتادون المساجد وتعلقت قلوبهم بها: هم أقرب الناس بعضهم لبعض، وأصفى الناس نفوساً في ترابط بعضهم مع بعض.

٥ ـ والخامس: «**رجل دعته امرأة**» فتعفف عنها وغالب نفسه دونها فتغلب عليها وخاف الله تعالى مما دعته إليه. وهذا عين المنصوص عليه في أثر الصلاة وتأثيرها على سلوك المؤمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وإذا اجتمع للمسلم تعلق بالمساجد وتحاب في الله فإن المتحابين في الله يكونون كالإخوة نسباً وأشد من ذلك، ومعلوم أن كل أخوين أشد حفاظاً على محارم بعضهما البعض مراعاة لحق الله، ومروءة في حق أخيه، وهذا مما تأنفه طباع ذوي المروءة، وقد جاء في الحديث:

الشاب الذي أتى إلى النبي ﷺ: وقد أسلم ولكنه يستأذن الرخصة في الزنا، فتلطف به ﷺ وسأله: «**أترضى ذلك في أختك؟**» فقال مستنكفاً: لا، قال: «**أترضاه في أمك؟ في بنتك؟...**» إلخ، فامتنع وعزف عن ذلك، وهكذا تكون العفة عند الحرام نتيجة الحفاظ على الصلاة وثمرة التآخي في الله.

٦ ـ والسادس: «**رجل تصدق بصدقة فأخفاها**». وإخفاء الصدقة عن الناس إلى الحد الموجود في الحديث فضلاً عن الآخرين. عملاً لا شك فيه قوة مغالبة النفس، والتغلب على غريزة حب الظهور، والإعراض عن الخلق، والتعلق كلية بالخالق، وهذا لا تقواه إلا النفوس الأبية الكريمة، لأن الشح من لوازم النفوس العامة كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وتسوق كتب الترغيب في الصدقة وإخفائها الأثر: «**أن الله تعالى لما خلق الأرض اضطربت ومادت فخلق عليها الجبال فرست وثبتت، فقالت الملائكة: يا رب وهل خلقت خلقاً أقوى من الجبال؟ قال: الحديد، فإنه يفتت الجبال. فقالوا: وهل خلقت خلقاً أقوى من الحديد؟ قال: النار، تذيب الحديد. فقالوا: وهل خلقت خلقاً أقوى من النار؟ قال: الماء يطفئ النار، فقالوا: وهل خلقت خلقاً أقوى من الماء؟ قال: الهواء، يحمل الماء، فقالوا: وهل خلقت خلقاً أقوى من الهواء؟ قال: الرجل يتصدق بصدقة فيخفيها**».

٧ ـ ثم في خاتمة المطاف ونهاية هذا المنهج الكريم جاء سابع سبعة الوصف: «**رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

فمن لاحظ هذا التسلسل، وتبين له هذا التعليل، وجد قوة الارتباط حيث أن من نشأ في ظل الإمام العادل، ومن لازم الجماعة، ومن تعفف عن الرذيلة، لن تغفل قلوب هؤلاء أبداً عن ذكر الله. وهل أصولهم كلهم إلى ذلك إلا ذكر الله قولاً وعملاً، فعلاً كان أو تركاً، وبالتالي فإن تلك الصفات يلازمها دائماً وأبداً ذكر الله، ولا تكون إلا عن قلب أحياه الله بذكر الله، ويكون ذكر الله دأبه ليلاً نهاراً، قائماً قاعداً.

فإن نطق، نطق بذكر الله، وإن صمت، اعتبر بآيات الله، فسره وعلنه منشغل بذكر الله، ولعلنا ندرك السر في ترتيب الأوصاف الواردة في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فقد جاء الذكر فيها مسك الختام لهذه

الأوصاف كلها وقد اشتملت على أكثر الأوصاف السبعة في الحديث وزيادة، وجاء فيها وصف الذكر بالكثرة ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

٢ ـ عناية العلماء بالذكر:

لقد عني سلف الأمة بذكر الله، سواء الدعاء والتعبد، فألفوا الكتب الخاصة، وجمعوا مما ورد في السنة المطهرة والكتاب الكريم من أحاديث وآيات، وصنفت على جميع أحوال الإنسان من أعمال اليوم والليلة منها: الأذكار للإمام النووي، ومنها للإمام ابن القيم، ومنها للسيوطي، ومنها للطبري، وللسيد صديق خان، وغير ذلك مما يغني عن إيراد النماذج هنا.

ولأن ذكر الله هنا أعم من أن يكون تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً، أو دعاء واستغفاراً، فقد يكون ـ وغالباً ما يكون ـ تذكر الموقف بين يدي الله، وأحوال المعاد، والسؤال والحساب، وتذكر ما وقع فيه العبد من أخطاء والإشفاق منها، والندم عليها، فذكر الله في الحديث أعم من تلك المؤلفات.

ويهمنا هنا أن ذكر الله أعم تلك الأوصاف الواردة في الحديث، وأنه العمل الذي له تعلق بالعبادات وبالمعاملات وبالسر والعلن، وهو الغاية من خلق الخلائق ـ الإنس والجن ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] والدعاء جاء في الحديث أنه: «**مخ العبادة**» بل هو العبادة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] فعادل العبادة بالدعاء. ومعلوم الدعاء جزء من ذكر الله، فهو أعم وأشمل، ويلازم العبادات والعادات والمعاملات وبيان ذلك على سبيل الإجمال كالآتي:

○ الذكرُ في العبادات:

يعتبر عموم الذكر في العبادات من جهة أنه لم يقيد، لا بعدد، ولا بزمن ولا بحالة إلا الحالات التي لا تليق بمكانة ذكر الله، وهي قلائل. وجاءت النصوص بالحث على الإكثار منه، بينما العبادات محدودة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢] وقوله ممتدحاً عباده سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذكر وحده: عبادة السر والجهر، وعبادة النفس والفكر والقلب. قال تـعـالـى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

كما أن الذكر لم يقيد بزمن كما تقيدت العبادات الأخرى كالصلاة ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، والصيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والزكاة: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وما عداه حتى يحول عليه الحول. والحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أما الذكر فكما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] والآية الأخرى المتقدمة: (بالغدو والآصال).

كما أنه لم يقتصر على حالة معينة في صفة خاصة كما جاء في وصف أخص عباد الله إلى الله فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وعموم قوله تعالى لعامة المؤمنين: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

والذكر أعم أيضاً من عموم العبادات لأنه لا تخلو منه عبادة من طهارة وصلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد... إلخ. فهو داخل ضمن أركان الإسلام إما جزء فيها أو شرط لها، وبيان ذلك إجمالاً كالآتي:

أولاً: الشهادتان: وهما الركن الأول في الإسلام وأعظم أركانه فهما قوامهما النطق بهذا الذكر بل أفضل الذكر كما في الحديث: «**أفضل الذكر لا إلٰه إلا الله**». وفي يوم عرفة أفضل أيام السنة قال ﷺ: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي في هذا اليوم: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له...**» الحديث.

ثانياً: الصلاة بمقدماتها وتوابعها:

أ ـ مقدماتها: الطهارة: قال ﷺ: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**». وقال ﷺ: «**من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له... فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**».

ب ـ ثم الإعلان لها: وهو الأذان والإقامة، سواء من المؤذن الذي يرفع

صوته معلماً من حوله من قاصٍ ودان، أو السامع له الذي ندب له أن يقول مثل ما يقول المؤذن، بل ما سمع صوت المؤذن من شجر أو حجر أو مدر إلا شهد له. وهذه كلمات الأذان يمكن أن يقال فيها: نشيد سماوي بالتوحيد وإجلال المولى سبحانه وتكريم الرسول صلوات الله وسلامه عليه وإعلاء شأن تلك الصلاة وأنها الفلاح والسعادة. وهكذا كلمات الأذان خمس عشرة كلمة كلها ذكر وتهليل وتكبير... إلخ.

جـ ـ فإذا جئنا إلى الصلاة: فقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، أي من أجل ذكري على أحد المعنيين. أي ليتأتى له فيها ذكر الله، وهو ما فيها من تكبيرة الإحرام، ودعاء الاستفتاح، وتلاوة الفاتحة، وما تيسر من القرآن، ثم التسبيح في الركوع والسجود، ثم التحميد والدعاء بعد الرفع من الركوع وأثناء الجلسة بين السجدتين. وبعد الفراغ من الصلاة يأتي الحديث: «**تسبحون ثلاثاً وثلاثين، وتحمدون ثلاثاً وثلاثين، وتكبرون ثلاثاً وثلاثين، وتختمون المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له...**» الحديث.

وفي خصوص يوم الجمعة يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ الآية [الجمعة: ٩ ـ ١٠].

ثالثاً الزكاة: فقد جاء ما يشعر بارتباطها بالذكر والدعاء في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] يعني دعاءه ﷺ لأهل الزكاة. بالإضافة إلى لوازم ذكر الله تعالى عملياً في اختيار نوعية الزكاة باختيار الطيب الحلال والاجتهاد في إخلاص النية مع الله تعالى.

رابعاً الصيام: يتميز الصيام بأنه كله ذكر الله، وتذكر الوقوف بين يدي الله، ومراقبة الصائم تعالى كلما خلا عن الناس. كما في الحديث القدسي: «**يدع طعامه وشرابه من أجلي**» فيستيقظ ضميره، ويتجدد استحضاره لعظمة ربه سبحانه، وجاء النص ببيان الحكمة من الصوم في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وتوجد يومياً عند كل فطر دعوة مستجابة.

ومن جهة أخرى فشهر الصوم هو شهر الذكر بل وأعظم الذكر ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكان جبريل عليه السلام يشارك في هذا الذكر إذ كان يأتي رسول الله ﷺ في رمضان يدارسه القرآن. كما خص ليله بقيام خاص: «**من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه...**» الحديث. ثم يأتي مسك الختام بعيد الفطر: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] قيل: التكبير ليلة العيد ويومه.

خامساً الحج: وقد قال فيه ﷺ: «**الحج عج وثج**». والعج: رفع الصوت والإهلال والتكبير، والثج: نحر الهَدْي. ومن بدايته ذكر وتوحيد في هذا الشعار الروحي العظيم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

ثم يمضي الحاج ذاكراً الله تعالى مدة حجه حتى يفرغ من مناسكه. ففي الطواف وفي السعي ويوم عرفة وعند المشعر الحرام وفي منى مع رمي الجمار ونحر الهدي ثم يقيم بمنى أياماً معلومات ذاكراً الله تعالى إلى أن يودع البيت ويعود إلى أهله، ومع كل نسك ذكر الله، وبعد المناسك كذلك، ومسك الختام في ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ومعلوم أنه في كل منسك من مناسك الحج أو العمرة: من إهلال وطواف وسعي وحلق ووقوف ورمي ونحر، وكل خطوة في الحج لا تخلو من ذكر الله.

ولعل بهذا العرض ظهر مدى ارتباط ذكر الله بجميع أركان الإسلام وهو أيضاً ملازم لغيرها في مواطن الحلال والحرام، بل والعادات من مأكل ومشرب وملبس. ففي المأكل: «**يا غلام سم الله**». وفي حلِّيَّة بهيمة الأنعام: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] والآية الأخرى ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فأحلها ذكر الله، وحرمها عدم ذكر الله.

وهنا سر لطيف: وهو أن الأصل في تحريم بهيمة الأنعام أن تكون ميتة، وفيها علة ظاهرة وهي: مضرة الأكل. ولكن إذا ذكيت وارتفعت المضرة. ولكن لم يذكر عليها اسم الله، فلا تحل فهل من علةٍ معلومة أم لا؟

والواقع أن العلة هنا أهم من العلة في الميتة وذلك أن المطلوب من ذكر الله على بهيمة الأنعام وكل كائن حي حل أكله من الطيور والصيد هو أن الأصل في تلك الكائنات هي ملك الله تعالى، هو خالقها ورازقها، أنزل لها الماء من السماء وأنبت لها المرعى من الأرض، ورباها حين صارت صالحة لمنفعة الإنسان. فكان حق الله تعالى في هذه البهيمة أن لا يعتدي عليها بذبح وإزهاق روح والانتفاع بها إلا بإذن من خالقها سبحانه، وهو قول: «بسم الله والله أكبر» أي باسم الله أذبحها والله أكبر مني عليها وهو الذي سخرها لي فهو بمثابة الاستئذان، وبمثابة العرفان لله بالجميل والإنعام.

ولهذا يعتبر الشرع كل إزهاق للروح بدون ذكر اسم الله ميتة. كما يعتبر الشرع أيضاً كل ذكر لغير اسم الله شركاً مع الله، وبهذا يظهر عظمة السر في ذكر اسم الله عند الذبح، سواء كان المذبوح بعيراً أو طيراً صغيراً. لأن العلة هي إزهاق تلك النفس التي لا يملكها إلا خالقها.

وكذلك يتعلق ذكر الله بحالة الحرب، كما يتعلق بحالات السلم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وعند النسيان ليتذكر ما نسيه. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

وعند أخذه مضجعه ونهوضه من فراشه، بل وحال تقلبه في نومه.

وقد كان ﷺ يذكر الله على كل أحيانه.

وكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه.

وهكذا تتضح علاقة ذكر الله بجميع حالات الإنسان.

٣ ـ الذكر عبادة جميع المخلوقات:

ولم يقتصر الذكر بكونه عبادة الإنسان والملائكة وعالم الجان فقط. بل هو ـ وهو وحده ـ عبادة جميع الكائنات من أرض وسماء وشجر ومدر وجماد ونبات، وقد فصلنا ذلك في تتمة أضواء البيان على أول سورة الحشر، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾

[الإسراء: ٤٤] وهناك تفصيل القول من مجموع ما ذكره والدنا الشيخ الأمين رَحِمَهُ اللَّهُ وما أضفناه إليه مما اقتضاه المقام.

ونوجز ذلك هنا:

أولاً: الملائكة:

فهم يسبحون الله ليلاً نهاراً كما قال تعالى عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ ...﴾ [الزمر: ٧٥] وغير ذلك من الآيات.

ثانياً: السماوات:

كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وعموم قوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] ونحو ذلك.

ثالثاً: الجبال:

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ [ص: ١٨] وقد ثبت تسبيح الحصى في كف النبي ﷺ.

رابعاً: الطير:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ونظير ذلك إثبات السجود لله من جميع العوالم كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الحج: ١٨] فشمل هذا النص جميع هذه العوالم مع كثير من الناس.

أ ـ تسبيح الله تعالى نفسه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ [الروم: ١٧].

ب ـ تسبيح الرعد: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وعلى هذا كله فالإنسان حين يذكر الله تعالى ما هو إلا جزء من هذا

العالم، وخلق في هذا الكون العظيم، الذي لم يفتر عن ذكر الله، وقد قال بعض العلماء: إنه لا يهلك من هذا العالم إلا من ترك وغفل عن ذكر الله.

وعليه فكان الحث على الذكر والتحذير من أن يشغلهم عنه مال ولا بنون كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]. وما أقيمت المساجد في الأرض إلا لذكر الله؛ كما قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

٤ ـ أنواع الذكر:

معلوم أن الذكر والتذكر ضد النسيان والغفلة. وعليه فإن ذكر الله تعالى يصدق على كل ما يذكرُ العبد بربه، فيكون به ذاكراً غير غافل، سواء كان باللفظ واللسان أو كان بالفكر والتدبر.

وهنا يقول النووي: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل، والتحميد والتكبير ونحوه، بل كل عامل لله تعالى بطاعته فهو ذاكر لله تعالى، كما قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من العلماء.

وقال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: مجالس الذكر في الحلال والحرام: كيف تشتري، وتبيع، وتصلي، وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحج، وأشباه ذلك.

أقول: إن مقالة سعيد هذه كانت إجابة لقائل له: هلّا اجتهدت في العبادة كما يجتهد بنو فلان، يهجرون إلى المسجد ويكثرون الصلاة والذكر. فقال سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ مقالته مثل ما قال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ.

إلا أن للذكر المقصود والمعهود أنواعاً، متعددة مختلفة المراتب، متفاوتة التأثير:

فأعلاها القرآن الكريم، وهو الذكر الحكيم وهو الميسر من المولى سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧ ـ ٢٢ ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ١]. وقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]. أي القرآن.

ويعد كل حرف فيه ذكر مستقل، عليه عشر حسنات، كما قال ﷺ: «لا

أقول: ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» وقيل: إن قارئ القرآن مأجور سواء فهم ما يقرأ أو لم يفهم.

يليه: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

وقد جاء عنه ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحانه الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**.

وقال ﷺ: **«الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض»**.

وهذا هو ذكر الصلوات في الركوع وفي السجود أقرب ما يكون العبد إلى الله سبحانه.

يلي ذلك الاستغفار والدعاء. وكان هذا القسم في تلك المرتبة لأنه فيه حظ للعبد: ففي الدعاء طلبُ حاجته.

وفي الاستغفار خوف ما اقترف. فهو ذو جانبين:

جانب مصلحة العبد، وجانب توحيد المولى في توجه العبد إليه وحده. قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٤].

أما التسبيح، والتهليل، والتكبير، والتحميد، فكلها إعظام وإجلال للمولى سبحانه.

ومعلوم أن لكل قسم من الأقسام الثلاثة: التلاوة والتسبيح والتحميد... إلخ والدعاء واستغفار حالته ومكانته الخاصة به.

أما التلاوة: فرضها في الصلاة قائماً، ولا تجوز في الركوع ولا في السجود.

وأما التسبيح في الركوع والسجود ولا تغني عن القراءة في محلها.

وأما الدعاء ففي السجود وفي غيره في الصلاة وخارجها وأهمه عند الحاجة الملجئة والشدّة الملحَّة.

ففي غزوة بدر، أخطر غزوات الإسلام، يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، تضاعفت فيه قوة العدو عدداً وعدةً، والتقى الفريقان على غير موعد. يقول فيه ﷺ مناجياً ربه: **«اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد»**. يقوم ﷺ في العريش مجتهداً في الدعاء رافعاً يديه إلى السماء حتى سقط

رداءه، ورده عليه أبو بكر رضي الله عنه، قائلاً مشفقاً عليه ﷺ: حنانيك بعض ذلك يا رسول الله فوالله لن يضيعك الله.

٥ ـ آثار الذكر:

وللذكر آثار في حياة الإنسان ظاهراً وباطناً، في الدنيا وفي الآخرة.

١ ـ منها: في أعماق نفسه وسويداء قلبه ما يكسبه الطمأنينة والركون إلى ركن رشيد، ورب حميد، قادر على فعل ما يريد. فيشعر كأنَّ الدنيا في قبضته. وقد بيّن تعالى هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

ولعله من هذا الجانب أمروا بذكر الله عند القتال، وملاقاة الأعداء تحت ظلال السيوف، حين تتطاير الرؤوس، وتزهق النفوس، ليكون أقوى عوامل الثبات، ومستجلب النصر. كما جاء في غزوة بدر: أن الله تعالى أرسل على المؤمنين أَمَنَةً نعاساً، أذهبت عنهم الخوف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٢ ـ ومن آثاره مساعدة العبد على نفسه في تجنب المعاصي. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٣ ـ ومنها: النجاة من الهلاك كما جاء عن نبي الله يونس: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤] ومن هذا الباب قوله ﷺ: **«تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»**.

٤ ـ ومنها سعة الرزق لمن شاء الله؛ كقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

٥ ـ ومن أعظم آثار الذكر: هو استئناس الذاكر بالله تعالى كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

ومن مفهوم المخالفة: أن من يغفل عن ذكر الله، لم يشكر ربه، ويخشى عليه كفران النعمة، وقد يصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقد جاء الحديث القدسي متوجاً هذه المعاني: **«من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه»**. إلى غير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة.

أما آثار الذكر في الآخرة: فيكفي ما يلقى الذاكر من عظيم الأجر مما لا يقدر قدره إلا الله تعالى.

ففي القرآن بكل حرف عشر حسنات. وحديث البطاقة فيها لا إلٰه إلا الله فترجح بسجلات أمثال الجبال. وفي سبحان الله والحمد لله تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض.

وفي الصلاة على النبي ﷺ: من صلى عليه مرة واحدة صلى الله عليه بها عشراً.

وفي التسبيح: **«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»** إلى غير ذلك.

٦ ـ آداب الذكر:

وللذكر آداب ينبغي مراعاتها تأدباً مع الله تعالى، وتحقيقاً للغرض من ذكر الله تعالى في حصول النفع، وعظيم الأجر، ورجاء القبول.

ومن ذلك **تَفَهُّم المعنى**: للتفاعل معه حساً وشعوراً، لأن عظم الأجر في الذكر ليس لمجرد اللفظ، بل له وللمعنى الذي تضمنه. وقد أثر عن بعض السلف رضوان الله تعالى عليهم أنه كان يقوم الليل بالقرآن كله، ثم أخذ ينتقص منه معانيه، حتى صار يقوم الليل كله بفاتحة الكتاب وحدها.

فمثلاً جاء عنه ﷺ في حق التسبيح والتحميد أنه قال: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»** وجاء عنه ﷺ أيضاً أنه قال فيهما: **«الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض»** فهل هذا الأجر العظيم لمجرد أن يتحرك بهما اللسان بدون إدراك لأي معنى من معانيها، أم أنه لما تضمنتا من طرفي العقيدة في ذات الله سبحانه من ثناء وتنزيه؟ وذلك للآتي:

أ ـ إن أصل التسبيح من مادة سبح. والسباحة لطلب النجاة، فلكأن الذي

يسبح الله تعالى يَسْبح في مدلول العقيدة بما ينجيه من الهلاك في شوائب الشرك، أو أنه يبعد جناب الله تعالى وجلّ جلاله عن أي شائبة نقص، مما يربط التسبيح بمعاني السباحة في طلب النجاة والسلامة.

ب ـ والحمد لله: فإن الحمد هو الثناء على الله تعالى لكمال ذاته. لا لنفع يُسْديه ولا لضر يقيه. فهذا له الثناء وله الشكر في مقابل تلك النعم. ولهذا لم يكن الحمد المطلق إلا لله تعالى، و(أل) في الحمد للاستغراق تستغرق جميع المحامد لله وحده، لأنه وحده هو كامل الذات والصفات. فيجتمع في هذين اللفظين طرفا العقيدة من النفي والإثبات. وهما مضمون كلمة التوحيد، وجماع حق الله تعالى على العباد وتنزيه الله تعالى عن جميع النقائص وما لا يليق بجلاله سبحانه وتحميده تعالى بجميع صفات الجلال والكمال.

ومن ذلك أيضاً: وهو أهم آداب الذكر: **إخلاص النية لله تعالى**: وابتغاء وجه الله تعالى، وحباً في الله، وتلذذاً بذكره، وحضور القلب معه، واستئناساً بحلاوة مناجاته.

ومن آداب الذكر: **خفض الصوت**: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥ ـ ٢٠٦].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتابه الأذكار[1]: ينبغي للذاكر أن يكون على أكمل الصفات، فإذا كان جالساً في موضع استقبل القبلة، وجلس متذللاً متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه. ولو ذكر على غير هذا الحال لجاز ولا كراهة، لكن إن كان بغير عذر كان تاركاً للأفضل. وساق الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ . . .﴾ إلى آخرها. وساق حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: كان ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن. متفق عليه.

وعنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: إني لأقرأ حزبي وأنا متكئة على السرير.

وينبغي أن يكون الموضع الذي يجلس فيه لذكر الله خالياً نظيفاً، لأن ذلك

---

(١) الأذكار (٨).

أعظم في احترام الذكر، وأدعى لاستحضار القلب، ولهذا مدح الذكر في المساجد لرفعتها: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

وينبغي أن يكون فمه نظيفاً من الروائح غير الطيبة. أقول: لعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يشير إلى الحديث الذي ينوه بأن الفم طريق القرآن ويلزم تطييب مجاري القرآن وطريقه، وأن الملائكة تستمع للقارئ عن قرب فإذا كانت رائحة فمه غير طيبة تأذت منه، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنسان. ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن الذكر محبوب في جميع الأحوال إلا في أحوال ورد الشرع باستثنائها:

منها حال قضاء الحاجة، وعند إتيان الرجل أهله، وحال سماع الخطبة، وفي القيام للصلاة بغير التلاوة، وفي حالة النعاس: أي لأنه لا يدري ما يقول، لعله يذهب يذكر الله فيتكلم بما لا يليق.

وقال في أحوال تعرض للذاكر: يستحب له قطع الذكر من أجلها ثم يعود إليه بعد زوالها عنه، منها:

إذا سلم أحد عليه. فيرد السلام، ثم يعود لما كان فيه من الذكر.

إذا عطس عند أحد فحمد الله. فإنه يشمته، ثم يعود لما كان عليه.

إذا سمع الخطيب يوم الجمعة، حتى يفرغ من الصلاة.

إذا سمع المؤذن، فليجبه حتى يفرغ من الأذان.

إذا رأى منكراً أمر بتغييره، أو معروفاً أرشد إليه.

ولعل السبب في ذلك أن الذكر المطلق مندوب إليه، أما هذه الأمور فتدخل في نطاق الوجوب، أو المؤكَّدات.

وفيها نصوص خاصة، والقاعدة الأصولية: أن الخاص مقدم على العام. وكذلك فإن هذه الأمور إذا تركت تفوت، والذكر لا يفوت لعدم تقيده بزمن. والله تعالى أعلم.

٧ ـ مراتب الذكر:

مما هو معلوم بالضرورة أن الأعمال تتفاوت مراتبها بحسب موضوعها: فالنطق بالشهادتين في المرتبة الأولى لجميع منطوق اللسان، والصلاة في أوقاتها في المرتبة الأولى لجميع أعمال الأبدان، وهكذا نوع الصلوات اختص

من المفروضة الصلاة الوسطى، والنوافل بعضها أولى من بعض.

وكذلك الحال في ذكر الله تعالى فإنه تتفاوت مراتبه، وقد بيّن ﷺ المفاضلة في مروره على صاحبة النوى التي جلست تذكر الله وتعدّ بالنوى، فذهب ورجع وهي على حالتها تلك فقال لها: **«أما زلت على جلوسك منذ مررت بك؟ لقد قلت كلمات مذ فارقتك تعدل** ـ أو قال: **خير** ـ **مما قلته: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»**.

وعلى هذا فينبغي للذاكر أن يوجه جل عنايته واهتمامه لأعلى مراتب ذكر الله تعالى، أعظم لأجره، وأخصر لوقته.

وعليه فسنحاول إيراد ما يمكن أن يكون بياناً لتلك المراتب إن شاء الله على ضوء الكتاب والسنة.

أولى تلك المراتب: هو قول: لا إلٰه إلا الله:

وقد جاء في فضلها النصوص العديدة منها: ما جاء عن نبي الله موسى عليه السلام: قال في مناجاته ربه: يا رب علمني شيئاً أذكرك به. قال له: قل: لا إلٰه إلٰه الله. فقال: يا رب كل الناس يقولون ذلك. علمني شيئاً أذكرك به. فقال: يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين وعامرهن ومن فيهن في كفة ولا إلٰه إلا الله في كفة لمالت بهن لا إلٰه إلا الله.

ومن ذلك أيضاً حديث (البطاقة) مصداقاً لذلك وهو ما جاء عنه ﷺ ما معناه: أنه يؤتى بعبد يوم القيامة وعند الميزان توضع له سجلات أمثال الجبال من سيئاته فيرى أنه هالك، فيقال له: اصبر لك أمانة عندنا فيؤتى ببطاقة مكتوب فيها: لا إلٰه إلا الله، فيقول: يا رب وماذا تفعل هذه بتلك السجلات؟ فتوضع في كفة حسناته، فتطيش كفة السيئات، فيؤمر به إلى الجنة.

وهي أفضل ذكر أفاضل الخلق في أفضل يوم في أفضل مكان في يومه، كما جاء عنه ﷺ: **«أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي في ذلك اليوم** ـ يعني يوم عرفة ـ: **لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»**.

ومنها أنها مسك ختام أعمال العبد. أي كما أنها بداية إيمانه فهي مسك

ختام أعماله كما جاء في الحديث: «**من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة**» إلى غير ذلك من الآثار التي تنص على عظيم فضلها.

المرتبة الثانية: هي تلاوة القرآن:

ومعلوم أن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود، وأن في كل حرف عشر حسنات، وجاء عنه فيه قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ثم بيّن وجه حسنه وتأثيره ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣] وغير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة كحديث تنزل السكينة عند تلاوته. وصاحب الفرس وحركتها وإخباره ﷺ بذلك.

المرتبة الثالثة: التسبيح والتحميد:

وهو قول: سبحان الله والحمد لله. أو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. كما جاء في الحديث: «**الطهور شطر الإيمان. والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض...**» إلخ.

المرتبة الرابعة: الصلاة والتسليم على النبي ﷺ وآله:

للحديث: «**من صلى عليَّ مرة صلّى الله عليه بها عشراً**» وحديث: «**من أراد أن يكتال بالكيل الأوفى فليقل: اللهم صَلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد...**» الحديث.

وهناك نصوص من الأذكار مرتبطة بحالات أو بأوقات مخصوصة: كالأذكار اليومية في الصباح والمساء، وعقب الصلوات، وعند أخذ المضاجع للنوم، وعند النهوض من نومه، وعند سماع الرعد أو هبوب الريح. إلى غير ذلك مما يمكن أن يقال فيه: لكل مقام مقال.

ومما يوضح ذلك ما جاء في غزوة بدر وهو أشد ما كان على المسلمين إذ فوجئوا بعدو لم يحسبوا له حساباً، متفوقاً عدداً وعدة. فاجتهد ﷺ في الدعاء حتى كان يرفع يديه مبتهلاً إلى الله، إلى حد أن يسقط عنه رداؤه، ويقول له الصدّيق رضي الله عنه: حنانيك يا رسول الله، فإن الله منجز لك ما وعد.

وهنا نجده ﷺ لم يتضرع إلى الله بتلاوة ولا تسبيح أو تحميد، وإنما اجتهد

في دعائه وضراعته إلى الله، وهكذا كما يقال: لكل مقام مقال.

وكذلك مما يؤيد هذه النظرية هو أن السجود وهو يجعل العبد أقرب ما يكون إلى الله لا يشرع فيه تلاوة القرآن حيث نهي عنها في السجود وفيه التسبيح، والاجتهاد في الدعاء، للحديث: «**أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد فاجتهدوا في الدعاء**».

وفي ذلك جاء عن ابن عباس ﵄ أنه سئل عن نوع إحياء رمضان: هل الأفضل فيه طول القيام بالقراءة أو قصر القيام لكثرة السجود وعدد الركعات؟ فقال: إنما أنت مرتاد لنفسك فانظر أيهما أحب إليك.

وعلى هذا فإذا كان يميل إلى التلاوة وتدبر معاني كتاب الله، والاستئناس بأسلوب القرآن الكريم على حد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فليمض في التلاوة، فقد كان بعض السلف يقرأ القرآن كله في ليلة، وسمعنا بأمثال هؤلاء في المسجد النبوي في ليالي رمضان، ولكن بقراءة لا يكاد يتابعها معه إلا الحفاظ. وجاء عن أمير المؤمنين عثمان ﵁: أنه كان يقرأ القرآن كله في ليلة، ثم أخذ يتمهل في القراءة ويتأمل حتى بلغ به في النهاية إلى أن كان ربما قام ليلة كاملة بسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أو بسورة (الفاتحة).

وإذا ما رغب في إطالة السجود، وشدة الضراعة والخشوع، والتذلل بين يدي رب العزة والجلال، فليمض في سبيل ذلك.

وإذا ما تذكر الموت وما بعده من ضيق اللحد، وشدائد العرض، ودقة الحساب، فاستغفر وأناب، فلا مانع فإنما هو مرتاد لنفسه فليمض بها إلى ما تميل إليه فإنه أشد عوناً له عليها وأطوع هي إليه. ولا يكرهها على شيء معين، ولا في حالة انصرافه بمثل نعاس ونحوه.

والذي ينبغي أن يعلم هو أن الذكر للقلب كالروح للبدن، وكالنور للسراج، والثمر للشجر، فجسم بلا روح، وسراج بلا نور، وشجر بلا ثمر، لا قيمة تذكر لأحدها. ولهذا سُمي القرآن روحاً ونوراً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن

نَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. والحديث: «**أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا...**» الحديث.

والمثل المضروب لنور الإيمان في القلب في قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٥ ـ ٣٦] فهذا مثل مضروب لنور الإيمان بالقلب، مثل وشبه القلب بالمصباح في طاقة تعكس نوره فيكون أقوى. وهذا المصباح يمده زيت الزيتون من شجرة تنبت في أحسن موقع لا شرقية تتسلط عليها الشمس صباحاً، ولا غربية كذلك، ولكن بين بين، يأتيها إشعاع الشمس هادئاً، فيكون أطيب للثمرة، وأنقى للزيت، وبالتالي أصفى للنور.

وفي إيراد آية ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ الآية، ويعنى بها المساجد عقب المثل المضروب لذكر الله ونور الإيمان في قلب المؤمن، فإن له دلالة مزدوجة:

منها: أنه أعظم ما يورث آثار النور والإيمان ويزكي نور القلب، إنما هو ما يتعلق بالمساجد بيوت الله، من صلاة وتسبيح وتحميد وتلاوة واعتكاف. . . إلخ.

ومنها: أنه ينبغي أن يعنى بمكان الذكر ما يماثل العناية بالمساجد من نظافة وتكريم. وهذا ينبهنا إلى أفضلية المكان، كأفضلية الزمان، ويلفت النظر إلى ما لا يصح ذكر الله تعالى فيه، أي موانع الذكر.

٨ ـ موانع الذكر:

وموانع الذكر قسمان: قسم يتعلق بالمكان، وقسم يتعلق بحال الذاكر نفسه.

أ ـ فمما يتعلق بالمكان: فقد جاء النهي بخصوص الصلاة ـ وهي أخص من عموم الذكر ـ جاء النهي عنها في سبعة مواطن:

المجزرة، والمقبرة، والمزبلة، والحمام، وقارعة الطريق، وفوق ظهر بيت الله الحرام، ومعاطن الإبل.

أما المجزرة والمزبلة فللنجاسة، وأما المقبرة فلحماية العبادة لله وحده، وأما الحمام فلكشف العورات وأنها مأوى الشياطين، وأما قارعة الطريق: فلحق المارة لا يحجزها عليهم، وأما فوق ظهر بيت الله الحرام: فلعدم تهيئة قبلة له يستقبلها.

أما عموم الذكر غير الصلاة: فقد جاء النهي عنه في بيت الخلاء، وفيه الذكر الوارد قبل وبعد الدخول.

ب ـ أما ما يتعلق بحال الذاكر فهو من حيث الطهارة والحدث، فإن كان حدثه أكبر حرّم عليه تلاوة القرآن، ولو حرفاً واحداً لحديث علي رضي الله عنه: كان ﷺ يقرئنا القرآن على جميع حالاته ما لم يكن جنباً فلا، ولا حرفاً. وأما غيره من الأذكار مما هو استعاذة أو استغفار أو دعاء فلا يمنع عنه.

وأما الحدث الأصغر فلا يمنع حتى ولا تلاوة القرآن، ومعلوم أن الأكمل والأفضل أن يكون على طهارة كاملة وهيئة حسنة.

أما قوله ﷺ: **«ففاضت عيناه»** فغالباً لها معنيان: إما خالياً عن الناس سالماً من المراءاة، وأدعى إلى قوة الإخلاص وحسن النية. وكمال الصدق مع الله، وهذه هي مرتبة الإحسان: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

وإما خالي القلب عن الشواغل فيكون أدعى إلى استحضار عظمة الله عز وجل، وبعظم الرجاء في الله سبحانه، وكلاهما أكمل حالات الذاكر أن يكون في خلوة عن الناس، خالي القلب مما سوى الله.

فيكمل أنسه بالله، متذكراً قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ...﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

أما قوله: **«ففاضت عيناه»** فهو على سبيل المجاز: إما بالحذف، ففاضت دموع عينيه، على حد ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾. أي أهل القرية.

وفيه غرض بلاغي وهو: إسناد الفيضان للعينين مع أن الفيضان هو زيادة الماء على سعة الإناء تقول: فاض النهر، وفاض الحوض. أي زاد الماء على سعته ففاض من الجوانب. أو أن العين وهي الباصرة أصبحت ذات إحساس وفيضان، وهذا كله مبالغة في إظهار صورة شدة الخوف من الله وكما جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: **«من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة»**(١).

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله ﷺ بهم بكى معهم فبكينا ببكائه. فقال رسول الله ﷺ: **«لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم»**(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فخر فتىً مغشياً عليه... إلى نهاية الحديث.



(١) الترغيب والترهيب (٤/٢٢٨).
(٢) رواه البيهقي.

الخاتمة

وقد قيل: إن هذه الصفات السبع قد اجتمعت لنبي الله يوسف، فقد كان ـ فضلاً عن النبوة ـ إماماً عدلاً عادلاً وشاباً نشأ في عبادة الله ومتصدقاً ومتعففاً.

وقد يقال أيضاً مثل ذلك في علي ﷺ حيث نشأ في رعاية النبي ﷺ على أعلى درجات النشوء في طاعة الله، وصانه الله عن السجود للأصنام، وكان عفاً عن كل السوآت وإماماً وخليفة راشداً.

وهذا آخر ما تيسر إيراده على هؤلاء السبعة المجمع على عدهم في الصحاح جعلنا الله تعالى منهم، ومنَّ علينا بفضله وكرمه وجوده وإحسانه بصحبتهم، وأن يظلنا معهم بظله يوم لا ظل إلا ظله. ولله الحمد والمنة على إكماله وإتمامه، وصلاة ربي على أكمل خلقه.

اللهم صلِّ وسلم وبارك أفضل صلواتك على أكمل مخلوقاتك صاحب المقام المحمود والحوض المورود، اللهم أنلنا شفاعته وأوردنا حوضه واسقنا بيده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً، وألحقنا اللهم بعبادك الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين هم من فزع يومئذٍ آمنون وفي ظل عرشك يوم القيامة مطمئنون.

وكان الفراغ من تبييضه ومراجعته يوم الثلاثاء
الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة
سنة تسع بعد الأربعمائة والألف
بالمدينة المنورة، والحمد لله
على ذلك والشكر له على جميع إنعامه

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

